



# الثقافة الجديدة

«آراء حول مجلس الحكم

«تقييم سياسات الإصلاح الزراعي

عبد الرزاق زبير

«البعد التاريخي والعقائدي للتعريب

زهير الجزائري

«الامبرطورية الأمريكية إلى أين ؟

أريك هويسباوم

«المعبد والزقورة في عمارة وادي الرافدين

صبيح الحمداني

## أدب وفن

سعدى يوسف

محمد صادق رحيم

كامل شيعاء

فلاح الجواهري

سلام عبود

عبد الجبار الحلفي

كزار حنتوش

وحيد خيون

بلقيس حميد حسن

سامي العامري

عباس خضير

شعوب محمود

مؤيد حنون

عبد الرزاق صالح

عشتر محسن سعدون

شاكر خصيباك

محمود سعيد





# الثقافة الجديدة



فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام ١٩٥٣

رئيس التحرير

**رائد فهمي**

مجلس التحرير

عزیز سجاہی	حمدان يوسف
غاتم حمدون	زهير الجزائري
كامل شياح	سعدی يوسف
مهدي محمد علي	سامي خالد
هادي محمود	صالح ياسر

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

310

أغلق تحرير العدد أواسط أيلول ٢٠٠٣

السعر : خمسة عشر ديناراً

الاشتراك السنوي: 50 دولار أو ما يعادلها — 100 دولار للمؤسسات

يحول المبلغ مقدماً إلى حساب رقم: 42-467127

ANY HAMED AYOUB  
BANQUE LIBANO-FRANCAISE  
Bar Elias, LEBANON

أو إلى حساب رقم: 27-307020

COMMERCIAL BANK OF SYRIA  
Branch 16 Damascus, Mr. FARES FARES

للمراسلة باسم رئيس التحرير، فاكس رقم: 00331-64262562

E-MAIL: thakafajadida@hotmail.com

HYPERLINK "http://www.althakafaaljadeda.com

ترسل مواد (فدب وفن) باسم: مهدي محمد علي

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وماليتها على العنوان:

سورية، دمشق، ص.ب: ٧١٢٢ أو ٧٦٢٢، هاتف: ٤٤٤٩٧٧٤

ترجو هيئة التحرير الأخوة المساهمين في المجلة مراعاة ما يلي في ما يرسلون للنشر

- أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- يفضل أن تكون المادة مطبوعة على الكمبيوتر ومرسلة عبر البريد الإلكتروني. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية.
- ألا يتجاوز حجم المادة ٤٠٠٠ كلمة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتبقى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي ترد لها.

## محتويات العدد

5	— كلمة العدد
7	— نظرة إلى «مجلس الحكم» ..... آراء من الصحافة العربية
29	— العراق محتلاً ..... سليم عبد الأمير حمدان
34	— العراق: الانتماء والسياسة ..... محمد سيد رصاص
38	— لعبة سياسية جديدة في العراق المحتل ..... ديفيد باران
43	— محاولة لتقييم مسيرة الإصلاح الزراعي ..... عبد الرزاق زبير
54	— هل طوت ثورة تموز فصلها الأخير ..... كامل شجاع
58	— من وثائق الحزب الشيوعي العراقي
63	— الحزب الشيوعي حزب للديمقراطية والتجديد ..... هادي محمود
70	— البعد العقائدي والتاريخي للتعريب ..... زهير الجزائري
79	— الرأسمالية المعولمة وفعالية اليسار العربي ..... لطفي حاتم
89	— الإمبراطورية الأميركية، إلى أين؟ ..... إريك هويسبوم
97	— المعبد والزقورة في عمارة وادي الرافدين ..... صبيح الحمداي

## أدب وفن

- 108 — أم سقوط الطاغية؟! ..... مهدي محمد علي
- 109 — حق الرقعة العجب ..... سعدي يوسف
- 114 — قيل عنا في الغرب ..... محمد صادق رحيم
- 121 — حوار مع الفنان علي عساف ..... كامل شيباع
- 128 — خواطر فنية ..... فلاح الجواهري
- 134 — علوكي [قصة] ..... سلام عبود
- 139 — الكيل [قصة] ..... عبد الجبار الحلفي
- 142 — كلمات عفو للخطر [شعر] ..... غزار حنتوش
- 144 — الساعة الواحدة [شعر] ..... وحيد خيون
- 146 — التربة الأولى [شعر] ..... بلقيس حميد حسن
- 147 — صبوات مؤجلة [شعر] ..... سامي العامري
- 148 — لأبني الذي ليس هنا [شعر] ..... عباس خضر
- 149 — من قصيدة جسر الطين [شعر] ..... شعوب محمود
- 152 — أثني البعيد [شعر] ..... مؤيد حنون
- 153 — الاغتراب [شعر] ..... عبد الرزاق صالح
- 156 — غطرسة [شعر] ..... عشتار محسن سعدون
- 159 — تجربة مسرحية ..... شاكر خصباك
- 169 — جنان الطفولة [متابعة] ..... محمود سعيد

- صورة الغلاف الأول: حريق المكتبة الوطنية في متحف بغداد، نيسان ٢٠٠٣
- لوحة الغلاف الأخير (إلى أُمي) للفنان علي عساف

## كلمة العدد

# مهمات أمام المثقف

إن ينسى العراقيون ذلك المشهد الذي أنهى ٣٥ عاماً من القمع والقمع، مشهد سقوط تمثال الطاغية من على منصته العالية على الأرض في لحظة بدأ فيها المحال يتحقق تحت شمس ساطعة. كان هذا المشهد برميته وواقعيته بداية عهد عراقي جديد بحلاوته ومراراته.

لكن سقوط التمثال لا يعني بالضرورة زوال الآثار الروحية والثقافية لذلك العهد الذي شهد ثلاثة حروب خارجية وحرباً على الداخل كانت الأساس والدافع لحروب الخارج.

خلال ١٢ عاماً من الحصار تحولت الطبقة الوسطى صاحبة مشاريع التحديث في العراق إلى مستوى من الفقر بدت فيه الحاجات الروحية والفكرية بطراً زائداً إزاء الحاجة إلى لقمة الخبز.

ونتيجة غياب أية ثقافة عقلانية بديلة ولدت ونشأت أجيال من العراقيين وقد أغلقت عليها مسارب حرية الفكر والرؤية تحت هيمنة ثقافة الحزب الواحد والقائد الواحد.

من المستحيل والمداخلة القول بأن ثقافة ٣٥ عاماً زالت من داخل العراقيين بمجرد سقوط تمثال وغياب طاغية. واحد من تجليات هذا الخراب الروحي نشوء قطاعات هامشية عريضة أفقرت ولمسّت لدرجة أنها راحت تنهب مؤسسات الدولة، بما في ذلك المؤسسات التي تمثل إرث البلد الحضاري. فقد تهايا لها أن ثروة البلد لا تمت لها بصلة، إنما لطغمة حكمت البلاد بالدم، حكماً من تجلياته تحول العنف إلى تمييز عن الحرية حيث نشأت الأجيال الجديدة بين الخندق والخندق، وتوسعت أجهزة العنف بشكل يندر أن تجد له مثيلاً.

من هنا تبدأ معركة التغيير، وهي معركة ثقافية أكثر مما هي سياسية رغم صعوبات الفصل بين الجانبين. ومن هنا يبدأ دور المثقف العراقي.

ليست مهمة المثقف كخالق قيم جديدة، مهمة أنية أملاها سقوط طاغية. فمنذ ثورة العشرين لم يفارق المثقف العراقي للشعور بأنه حامل رسالة اجتماعية للناس. وهذه الرسالة تجمعهم مع المياسي ضمن مشروع واحد في بلد شهد تخراط أوسع عدد من المثقفين في العمل السياسي

والحزبي. وشكل السجن والتعذيب جزءاً لازماً من سيرة ونتاج هذا المثقف الذي رأى الأحوال. هذه المهمة تدخل في صلب العمل الثقافي لأن أية معرفة عندما تصل الناس تثير أسئلة، وتعرض على التفكير، وتؤثر في علاقات الفرد بالجماعة فتغدو ممارسة اجتماعية. فالمعرفة تتحول إلى سلطة حين تدخل حيز التطبيق.

وفي عراق ما بعد صدام حسين يجري جدل حاد عن طبيعة هذا الدور. ففي تجمعاتهم ولقاءاتهم يسأل المثقفون عما يمكن أن يفعلوه وسط الخراب الشامل الذي خلفه الاستبداد والحرب، وإزاء مستقبل يبنو، على المدى القريب، غامضاً ومجهولاً. عن ذلك المستقبل يدور الحديث في الغرف المغلقة للسياسيين الذين مازالوا يعتقدون أن الثقافة موضوعة ثانوية ولاحقة لتقسيم السلطة الفوقية، وإن دور المثقف ما زال مقتصرأ على خدمة السياسي دون مجالته.

لقد تبذد الكثير من الوقت والنضال خارج فضاء الديمقراطية ودفع المثقف والسياسي الثمن غالباً. طريق الديمقراطية غداً ممتداً اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأنه يتطلب النضال على عدة جبهات مغترقة ومتداخلة:

— نضال داخل الخندق وخارجه، من أجل أن يكون للمثقف وللثقافة دور أساسي في بحث صورة عراق المستقبل. فبدون هذا الدور ستبقى الصورة قاصرة، وتظل مشاغل السياسة أنية تدور في كيفية توزيع حكمه السلطة، وتترك الأمور الجوهرية موجهة بلا جدول ولا أفق.

— نضال ضد الاحتلال يستند على إرث البلد الثقافي والسياسي لإشاعة روح وطنية عراقية تعلق على الطوائف والقبائل، وتوظف كل طاقات البلد لكي يأخذ العراقيون المبادرة والتحكم من سلطات الاحتلال، ويثبتوا قدرتهم على إدارة بلادهم وإقامة ثقافة حوار يتجه نحو الديمقراطية والبناء.

— نضال ضد ثقافة الاستبداد والعنف التي خلفتها ٣٥ عاماً من حكم الحزب الواحد والفرد الواحد. مهمة المثقف أن يضع يديه على قاعدة الاستبداد الاجتماعية ويساهم في خلق ثقافة عقلانية لدى أوسع قطاعات الناس بحيث تصبح سداً أمام صعود حزب بعث باسم آخر، أو صعود (صدام) محسن، أي صعود تيار يرفض الديمقراطية بكل مكوناتها. وهذا يتطلب النضال داخل الخندق، أي مع وضد القوى السياسية التي كانت في المعارضة والتي اكتسبت خلال الصراع، وهو علاقة جدل، بعض صفات جلاها. على المثقف أن يكون داخل الحركة وخارجها، بناءً ونقاداً.

— لا يولج المثقف سلطة الاستبداد وحدها، إنما أيضاً تيارات نابذة من مجتمع منهوك القوى، مفكك الكيان، مدين لدول إقليمية ودولية ستفرض شروطها في شكل الحكم، تيارات مندفعة من قاع مجتمع مسدود الأفق ستقاوم حرية المثقف بشروط سلفية...

إنها معركة ملتبسة وصعبة، ومع ذلك لا خيار للمثقف المؤمن بالديمقراطية، إلا النضال من أجل الديمقراطية، وسيلة للحكم ونظاماً للمجتمع وطريقة للحياة. التزام الكاتب بالديمقراطية هو الالتزام بعينه، وبعدها ليختلف المختلفون ؟



نظرة إلى:

## «مجلس الحكم»

من أجل ١٨ تموز أفضل

جوزف سماعة

«مجلس الحكم» العراقي امتداد للاحتلال الأميركي. شبيه بحكم ذاتي سيعود إلى بول بريمر المحتفظ بحق النقض. تركّب بطريقة تعكس اللحظة الراهنة من ارتباك واشنطن بعد فشل جاي غارنر واكتشاف خلفه عجزه عن تمرير مشروع الأفراد الكامل. لا يتمتع المجلس المذكور بصلاحيات سيادية وسينصرف إلى مساعدة «التحالف» على تحمل الأعباء. لن تتوانى الإدارة الأميركية عن استخدامه في وجه الأسئلة المرحجة المرفوعة ضدها في الولايات المتحدة. وسيفيدها في تجنب إحراجات مع هيئات دولية ودول تتردد في المشاركة لأنها عارضت الحرب. يضم المجلس في من يضم عملاء واشنطن بالمعنى الحرفي للكلمة، وأصدقاء لعنة أعداء العرب والموالين لإسرائيل. لا بل هناك من لا يخفي صلته بل أيّيب ويعتبر أن مخصصتها من الأضرار التي ألحقها العروبة بالعراق.

ويمكن أن نستطرد. ويمكن أن نطيل لائحة الاتهام. ويمكن أن نمخر من قوم جيء بهم إلى المواقع الأمامية في بلد عربي مركزي فاشتيكوا مع... للفضائيات. ويمكن أن نتوقف عند الاستقبال الشعبي الفاتر. ويمكن أن نستعجن القرار باعتبار يوم سقوط بغداد عيداً وطنياً. ويمكن...

غير أن ذلك كله يبقى ناقص للمعنى من دون التوقف عند تحديات يرميها الحدث العراقي في وجه كل عربي يبحث عن سبيل لوقف التردّي المتمادي.

أولاً لابد من القول، وأمس ١٧ تموز، إن عالماً العربي لم يشهد أي تداول للسلطة إلا بالعنف والانقلاب. والمرة الأخيرة التي بدا فيها أن الانتخابات يمكنها أن تتغير شيئاً (نحو الأسوأ أو نحو الأحسن) تدخل الجيش لمنع. كان ذلك في الجزائر. ما فعله الأميركيون في العراق هو تداول جزري للسلطة بواسطة قوة عسكرية أجنبية. وبكل تركيبة المجلس على أن البلد مقبل على توازنات لا عهد له بها في تاريخه لجهة مواقع الجماعات من السلطة. ربما نكون أمام سابقة لجهة إعطاء الأرجحية لأكثرية ضئيلة في بلد هي، في الواقع، أقلية دينية مؤكدة.

ثانياً إذا استعرضنا أحوال معظم الدول العربية فإننا سنعيش مثل صفة الفكرة القائلة بأن «مجلس الحكم»، ضعيف الصلاحيات، قد يكون من أكثر «الحكومات» تمتعاً بتمثيلية شعبية. يضم تيارات دينية شيعية وسنية، وجمع اليسار واليمين، ولا يستبعد الأعراق والإثنيات، ويجد صيغة

لحضور المرأة...

ثالثاً يعيد «المجلس» تذكيرنا بأننا، منذ الاستقلالات، لم نتطور كثيراً لتتحول إلى شعوب. ارتدنا، في الواقع، وأكثر مما كنا، إلى ما دون الوطنية. ولقد حصل ذلك سواء باعتماد «النموذج اللبناني» القائم على الاعتراف بالتمديدية، أو باعتماد «نموذج انصهاري»، محافظ أو راديكالي، ينطلق من رفض مطلق لرؤية أي انقسام. انفجر النموذج الأول غير مرة وهو لا يعيش اليوم أحسن أيامه. واختزن النموذج الثاني عناصر الانفجار بحيث باتت بلدان عديدة تعيش حروباً أهلية باردة.

إن المطلوب إخضاع العراق لمراقبة دقيقة. فهناك يحصل انتقال شديد السرعة من مركزية سلطوية متعسفة ذات ركيزة شديدة الضيق إلى شكل فدرالي طوائفي وعرقي. إن سرعة الانتقال مخوفة بمخاطر عدم القدرة على إيقاف التذرر عند عتبة التقسيم الواقعي. لا بل إننا نشهد بدايات تقسيم في التباينات شديدة الوضوح حيال الاحتلال واستطراداً حيال الحصر المحتملة في عراق الغد.

تدل تجارب السنوات الأخيرة، في العالم، على استحالة الانتقال من أنظمة «مضبوبة» إلى أنظمة فدرالية. انتهت تشيكوسلوفاكيا بولتين. وتشظت يوغسلافيا. واستقلت دول عن الاتحاد الروسي في انتظار مصير الأزمة الشيشانية. وحتى في دول ديموقراطية تشد نزعة الانطواء (كندا، المكسيك، بلجيكا، إلخ...) لتتخضم الدولة الوطنية «من تحت» في وقت تقضمها العولمة «من فوق».

ربما ثمة قوى تحارب الولايات المتحدة مثيلاتها في العالم كله ولكنها لا تتورع عن المشاركة في مجلس حكم تقيمه الولايات المتحدة في بلد محتل. إنه حدث استثنائي أن «يعود» الشيوعيون إلى الواجهة في العراق اليوم. وليس بسيطاً أن أحزاباً رعتها إيران لا تمنع في أن تكون، ولو بصورة غير مباشرة، عوناً لواشنطن على طهران. يسهل التشكيك بهذه الأطراف وإيجاد «مبررات» لانفراج الأحزاب الكردية نحو أقصى التعاون مع قوات الاحتلال. ولكن، في الأحوال كلها، لا مهرب من التساؤل عن درجة السوء التي كان فيها الوضع السابق إلى حد جعل الموقف الحالي وارداً. هناك من يشارك في «المجلس» بعد أن عارض الحرب. وهناك، ربما، من انتظر إشارة انفتاح من النظام السابق كان يمكن لها، لو حصلت، أن تعزز المقاومة. لم يحصل شيء من هذا القبيل. فضل النظام الانفراد حتى في لحظة السقوط وربما يفضل مناصروه، الآن، ألا يشاركهم عراقي واحد شرف المقاومة.

هذه التحديات، وغيرها، لا يفيد التهرب من مواجهتها. من دونها يصعب، أصلاً، وضع المقاومة العراقية في إطار صحيح والانتقال، بالتالي، من تمجيد البندقية إلى التقيصر في شروط توليد إجماعات عراقية، مدعومة عربياً، وذات منحى استقلالي.

لقد وجه الرئيس صدام حسين كلمة بمناسبة ١٧ تموز. لا أثر فيها للنبرة شخص نادم على خطأ واحد ارتكبه في حين أن أكثرية عراقية ساحقة تقاقل فكرة أن يرسم لها ١٧ تموز ٦٨ مستقبلها بعد تجربة امتدت ٣٥ عاماً. إن تخيير العراقيين بين النظام السابق و«مجلس حكم» الاحتلال قد

يستدعي جواباً مرجحاً.

يجب الاعتراف بأننا لم نحسن تداول السلطة ولا استخدامها. يجب الاعتراف بأن الإنجازات قليلة والكلفة باهظة. يجب الاعتراف بأن أنظمتنا لم تقترب من صيغ تمثيلية حقيقية. يجب الاعتراف بأن جهداً لم يبذل كفاية لتغليب المشترك الوطني الذي هو شرط للبحث في المشترك القومي. ومن دون هذه الاعترافات، وبالجزئية الكافية، ان يكون الدرب المنطلق من ١٨ تموز ٢٠٠٣ أفضل من الدرب الذي سلكناه في ١٨ تموز ١٩٦٨.

للسفير اللبنانية، ١٨ يوليو ٢٠٠٣

## الآن ثمة «خبر سعيد» من بغداد

### صلاح النصاروي

مهما تكن الانتقادات او الملاحظات التي توجه الى مجلس الحكم الانتقالي الذي اعلن عن تشكيله في العراق فإن من المؤكد انه يبقى اسعد خبر سمعه العراقيون منذ سقوط نظام الطاغية صدام حسين في التاسع من شهر نيسان (أبريل) الماضي. هذا الاستنتاج لا علاقة له بوجهات نظر عاطفية او شخصية تجاه المجلس او اعضائه او شروط انبثاقه، وانما له علاقة بالحقيقة التي هي في اللحظة الراهنة من تاريخ العراق وضمن العملية السياسية الجارية لا تعريف لها سوى انها كل ما يتفق ومصلحة الشعب للعراقي وضمان مستقبل بلاده.

ولتبدأ بالملاحظات أولاً. هناك جملة ملاحظات موجهة الى الطرف الأميركي باعتباره قوة احتلال تمتلك السلطة الفعلية في ادارة العراق المحتل، بشأن الطريقة التي تم بها تشكيل مجلس الحكم الانتقالي، اذ يصعب تصور عدم وجود أجندة أميركية هي التي بلورت ظروف اطلاق مجلس الحكم الانتقالي وصيغته وتشكيلته. الواضح ان الادارة الأميركية استغلت حالة الفراغ السياسي التي نشأت عن انهيار الدولة ومؤسساتها وغياب بديل جذاب اضافة الى الوضع النفسي السيئ وحالة اليأس التي نتجت عن الاوضاع المتردية التي راقت الاسابيع الاولى من الاحتلال لكي تقدم للعراقيين هذا المجلس بصيغته وبتركيبته بعدما كانت امتنعت في البداية ثم ماطلت في تسليم السلطة او حتى للقبول بمشاركة اطراف عراقية حليفة فيها مفضلة الافراد بذلك من خلال الادارة المباشرة للاحتلال والاستمالة بعراقيين كمستشارين. وما يزيد من الشكوك في النيات الأميركية هو غياب أي وثيقة تفصح عن علاقات تعاونية بين قوة الاحتلال والمجلس — الذي يعمل كـ«ممثل للبلاد الموجود تحت الاحتلال» — تحدد واجبات ومسؤوليات كل طرف وفقاً للقانون الدولي والمصالح العليا للشعب العراقي، او تضع جدولاً زمنياً لإنهاء الاحتلال واستعادة السيادة العراقية كاملة. طريقة اختيار المجلس من دون المرور بأي شكل من اشكال الانتخاب

أو الاختيار العام إضافة إلى غياب رؤية أميركية معلنة يلقي ظلالاً من الشك على الأهداف الأميركية سواء ما يتعلق بالنموذج للديموقراطي المنشود أو بدرجة الاستقلالية المطلوبة لعراق المستقبل.

الملاحظات المتعلقة بالطرف أو الأطراف العراقية كثيرة بدورها، عبرت عنها قوى عراقية مختلفة وتمثل نقاط نقد جديرة بالإشارة. في المقدمة هناك تأكيد من جانب الأطراف والشخصيات التي تشكل منهم المجلس وهم عبروا عنه فور الاعلان عن المجلس، بأنهم يمثلون كل مكونات الطيف العراقي الاتني والديني والمذهبي والسياسي، وهذا تأكيد تراه يمنحها الشرعية والصلاحيّة للازمتين لممارسة دورها. غير ان الواقع، في هذه الحال، ليس سوى واقع افتراضي. فمثل هذا الادعاء يحتاج الى أدلة يصعب توفرها من غير احتكام الى صناديق الاقتراع.

الأمر الآخر هو صعوبة الاعتماد، عملياً، وفي هذه المرحلة تحديداً، على صيغة لتوزيع الحصص على اساس الانقسام الاقوي والعمودي بين عناصر المجتمع العراقي ومكوناته، من جهة، وتركيبته السياسية المتداخلة، من جهة ثانية، على رغم ان اي تجربة للحكم في العراق المستقبلي تحتم ضرورة تحقيق العدالة في التمثيل النسبي. ان ما يؤكد تجريدية صورة مجلس الحكم هو تمثيل رجال دين ورجال اعمال ليبراليين وبعضيين سابقين الى جانب سكرتير عام للحزب الشيوعي الشيعة، بينما يجمع التمثيل المعني بين ممثلين للمشائر ومسلمين وليبراليين، وهو الامر الذي يثير تساؤلات حول وحدة القياس في النشاط السياسي لذي يرمع المجلس للقيام به في ظل هذه التشكيلة المتشابهة والمتداخلة اجتماعياً وسياسياً. هناك ملاحظة لخرى، أو تساؤل يتعلق بالرؤية أو المنظور السياسي والفكري المشترك الذي يجمع بين الأطراف المكونة للمجلس بشأن المشكلات والقضايا التي يواجهها الواقع العراقي السياسي والاجتماعي والثقافي المعقد والمتشابك وهل أنها متفقة على برنامج حد أدنى لمعالجة المخلفات التي أورتها النظام البائد وهل يجمعها تفق معين حول وسائل التغيير السياسي وآلياته؟ هذه المجموعة من التنظيمات والشخصيات، على رغم اتفاق بعضها على مواقف مشتركة عبرت عنها في مؤتمر لندن للمعارضة السابقة، إلا أنها بالتأكيد ليست حركة تحرر وطني أو حتى ائتلاف مؤطر بميثاق أو برنامج موحد، ما يثير تساؤلات حول قدرتها ودرجة استعدادها للوصول الى حلول وسط وتقديم تنازلات واستنباط رؤى مشتركة لمواجهة تحديات المرحلة الحالية واستحقاقات المرحلة اللاحقة خصوصاً أنها تطوي على خلافات وتناقضات عديدة بعضها قابل للحل عبر التسيويات وبعضها الآخر قد يكون سبباً لاندلاع الصراعات.

ملاحظة أخرى، هي ان هناك طابعاً شديداً للرمزية في اختيار الفصائل والشخصيات التي شكل منها المجلس بخاصة تلك التي خاضت من الخارج بمستويات مختلفة نضالاً مثابراً لاسقاط النظام الصدامي إلا أن الحقيقة التي يجب ان نظل سائدة هي ان اسقاط ذلك النظام كان مهمة تاريخية ثم تكن لتنتج من دون اضطلاح فئات الشعب العراقي كافة في الداخل والخارج بها، ماريعني ان الفرصة الاكبر يجب ان تمنح لاسباب عملية واخلاقية لاولئك الرجال والنساء الذين قارعوا نظام صدام فعلاً وبإمكانهم الآن ان يقدموا طاقاتهم وتجاربهم لمهمة انجاز التغيير والعبور. اعلان المجلس بهذه التشكيلة له خصوصية وظروف المرحلة الانتقالية لكن ينبغي ان لا تؤسس منذ الآن

قواعد قسرية لاقتسام الحكم او الثروة او الامتيازات، قائمة على رصيد رمزي او قواعد لسلوكيات تغطى حق الآخرين خصوصاً وفي المقام الاول الدور الذي يجب ان تلعبه الفئات الطليعية في المجتمع ذات القدرة على الابداع والابتكار والنخب الثقافية والفكرية التي ستحمل على عاتقها عبء المهمة التاريخية لاعادة البناء المادي والفنسي للعراق والعراقيين.

هذه الملاحظات ان تقال من حقيقة ان الاعلان عن تشكيل مجلس الحكم كان فعلاً خيراً ساراً لجميع العراقيين ولكل القوى التي تحب لهم الخير ولكل المتطلعين في هذا العالم لنجاح التجربة العراقية، وسيكون حدثاً تاريخياً عندما يستطيع المجلس تجاوز مهماته الاساسية وعلى رأسها استعادة استقلال وسيادة العراق بأسرع وقت ممكن. ان اهمية الاعلان عن تشكيل مجلس الحكم نابع من الادراك المبكر للعراقيين للمخاطر والشرور التي بدأت تحيق ببلادهم ومستقبلهم من جراء انعكاسات الحرب وواقع الاحتلال والمشاكل الجمة التي انشأها خصوصاً الفراغ السياسي الذي خلفه.

هذا الفراغ خلق الفرصة لبقايا وشرانم النظام البائد لكي يستخدموا اساليب العنف والتمييز التي ترمسوا عليها للخروج من حال للنزاع الاخير التي انخلتهم هزيمتهم فيها، كما خلق الارضية المناسبة لأولئك الذين يكرهون ثقافة التفاوض ولم يلقوها بعد لكي يلجأوا الى الارهاب لتحقيق غايات غير مشروعة ويملوا مطالبهم على الآخرين. هناك أيضاً فئات متضررة من التغيير الذي حصل واطاح امتيازاتها غير المشروعة، لذا فهي تستفيد من هذا الفراغ في تأجيج العلل والمشاكل او تضخيمها اضافة الى بث الاحاييل والاكاذيب بهدف افشال مشروع التحول والبناء واستعادة مكاسبها او اللعب والابتزاز. الفراغ خلق أيضاً حالة من اليأس بسبب المصاعب التي ولدها عدم القدرة على مواجهة مشاكل الفوضى وانفلات الامن وانعدام الخدمات الاساسية والانهيار شبه التام للنشاط الاقتصادي الضروري لإدامة الحياة.

الآن يمكن القول ان ثمة أملاً، مهما كان رفيعاً، بأن يكون الاعلان عن تشكيل المجلس بداية لنهاية الفوضى وانعدام الامن وللمعانة الانسانية وحالة الاحباط التي رافقت الاسابيع التي تلت الحرب والتي رسمت صورة كالحة لا مكان ان يقدر العراقيون على انجاز التغيير المنشود كما هي أيضاً بداية للشروع في بناء التجربة العراقية التي طال انتظارها للقطيعة مع ماضي النظام الصدامي البغيض بكل ما يمثله من ظلم وظلام وخراب مادي وروحي. هي خطوة اولى ربما، متواضعة وملتبسة ومحفوفة بالشكوك مثلما هي محفوفة بالمخاطر والصعاب، لكنها غنية بالفرص وبالآفاق التي يمكن ان تفتح السبل امامها في المستقبل.

إن اللحظة التي يمر بها العراق هي لحظة تاريخية بكل المقاييس تتطلب وعياً تاريخياً وادراكاً واقعياً للحاضر بروح المسؤولية الوطنية اضافة الى احساس عال بمتطلبات المستقبل ومهماته. لكننا كمراقبين يجب ان ندرك أيضاً ان ايس بالأمل والتفاؤل وحدهما يمكن ان نبني بلادنا التي نمرها الطغيان والاستبداد الذي مارسته عصابة منحطة ارتكبت بحق اجيال مقبلة من العراقيين ابشع الجرائم. بل لا بد من البدء سريعاً بعمل خارق يرتقي الى نبل تضحياتنا وتطلعاتنا، عمل يعيد الثقة الى انفسنا ويعيدنا الى دورنا الحقيقي كأحفاد لبناء اولى للحضارات الانسانية التي قدمت للبشرية اروع انتاجاتها المادية والفكرية. بالمعنى العملي هذا يتطلب الاسراع باتمام مهمات

المرحلة الانتقالية ووضع لبنات المرحلة الدائمة من دستور وقوانين وانظمة ديموقراطية تتجاوب مع تطلعات الاغلبية التي ستقرها في استفتاء عام كما يتطلب انجاز المهمات العاجلة والمباشرة من استتباب الامن وتوفير الخدمات الضرورية واعادة تشغيل عجلة الاقتصاد. هذا يضع على اعضاء مجلس الحكم الانتقالي امام مهمات جسيمة لكن عليهم ان يعوا ان ليست هناك شيكات على بياض تقدم اليهم، وان الهم الوطني والاحساس بالواجب هو الدافع لتقديم الدعم والعون لهم وان مسؤوليتهم هي العمل لتلبية تلك المطالب الوطنية.

كما يضع على كل الفئات الاجتماعية والقوى السياسية والنخب الفكرية والثقافية امام واجب ومسؤولية ان تتحي جانبا لثانياتها ورؤيتها الضيقة الى مصالحها وخلافتها، وان تضع ايديها بأبدي بعضها بعضا للشروع منذ الآن بمبادرة نهوض وطنية شاملة. انه قدر العراقيين والسؤال الذي يواجههم منذ الآن هو ان يكونوا أو لا يكونوا ابدأ. بل انه قدرهم في ان يقدموا للمنطقة التي هم قلب ناطقها الجغرافي والسياسي والتي يسودها العجز والشلل والمهددة بالانهيار نموذجاً انسانياً فريداً قمته من قبل وعلى مر اكثر من سبعة آلاف سنة سومر وكند وبابل والكوفة وبغداد. هذه الحقيقة تضع على نخب المنطقة العربية ايضاً واجب الدفاع عن التجربة العراقية الوليدة ودفعها حتى لو حفلت بالاخطاء والعثرات لأن في نجاحها سيكون لهم ما يمنون به انفسهم ويتطلعون اليه وبطلانهم به انتظمتهم. أما الفشل، لا سمح الله، فإنه لا يعني غير عزف سيمفونية الوداع لكل الآمال والتطلعات والبقاء في مستنقع الثمومية والتخلف واللبوس والخضوع.

الحياة ٢٥/٧/٢٠٠٣

## العراق: «مجلس الحكم» بالاحتلال.. أو على الاحتلال؟

طلال سلمان

دار الفلك بالعراق وأهله دورات عنيفة ما بين ١٤ تموز ١٩٥٨ و ١٣ تموز ٢٠٠٣، زلزلت كيانه السياسي ودمرت أو هي كادت تدمر وحدة شعبه الذي نصفه شهداء ونصفه شعراء ومجموعه يتمزق بين الرقة حتى الموت بكاء والقسوة حتى إيمان التفرع على الخطيئة الأصلية!

قبل خمس وأربعين سنة تماماً، أسقط الجيش، بانقلاب اعتبر سابقة بدمويته، الحكم الملكي الذي كان متهماً في وطنيته، وها هو الحاكم باسم الاحتلال الأميركي يقيم اليوم «مجلس حكم انتقالي» يضم مجاميع من ضحايا اليهود المتعاقبة التي أخذتها المغامرات العسكرية والنزعة إلى التفرد بالسلطة إلى كوارث متلاحقة، وذهبت بثروات «أرض الموлада» الهائلة فأفترت شعبها وجعلته يخضع مرة أخرى لاحتلال جديد، وهذه المرة من أسف بلا مقاومة.

ذهب «العبد» الذي جاء مع «سحل» الملكية ورموز التبعية للأجنبي وإعلان «جمهورية الحرية والتقدم والعدالة» التي سرعان ما أكلها «أبناءؤها»، شرعيين وغير شرعيين، مما أخلّى المساحة أمام الاحتلال الجديد ليقيم «مجلس الحكم الانتقالي» من ضحايا اليهود جميعاً، لا سيما الأخير منها وللغريب من نوعه والذي أفرغ أرض العراقيين من أهل الفكر والرأي وأصحاب التاريخ النضالي الطويل، كما أفرغها من المستعدين للدفاع عنها وحمائيتها وبناء نهضتها، فإذا بها تسقط بخير قتال، وإذا هي لا تقف على رفض «الأميركي» الذي جاءها بلبوس «المحرر»، بينما اكتفى البريطاني بمكانه في مؤخرة الصورة... أما الأمم المتحدة فتحاول تجاوز دورها كشاهد صامت إلى «مستشار» يفترض أن دوره سيصبح أكثر جدية كلما ولج الاحتلال المزيد من المصاعب في سعيه لتوطيد سيطرته.

في ظروف عادية كان يمكن اعتبار العديد من أعضاء «مجلس الحكم الانتقالي» ممثلين شرعيين» للعراقيين بمجموعهم ومن نون التوغل في انتماءاتهم العرقية أو الطائفية أو المذهبية. حتى مع التدقيق في هوياتهم السياسية فثمة من يجيء من تجربة حزبية طويلة، سواء في قلب الحركة الوطنية التقليدية الديمقراطية على النموذج البريطاني، أو في الحركات الدينية التي صارت أحزاباً وبعضها امتشق السلاح لنشر دعوته، أو في الحركات اليسارية، الشيوعية تحديداً، والتي وصلت في بعض حالاتها إلى القول بالكفاح المسلح...

لكن الظروف غير عادية بالمطلق، والمتحدر من ديمقراطية العهد الملكي ليس كمثل المتحدر من بعثة عتيقة جبنها طبقات جديدة من «البعثية» آخرها لا تعترف بأن صدام حسين له من قبله أو له من بعده، فضلاً عن أن لا شبيه له ولا مثيل، متجاوزة بذلك أحد الثعارف التي أودت ببطل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ «ماكو زعيم الإكريم»!

كذلك فإن المتحدرين من صلب «الإسلام السياسي» كثرة، وهم يختلفون في ما بينهم أكثر من اختلافهم مجتمعين مع «العلمانيين».

ثم إن كثيراً من أعضاء هذا «المجلس» يعونون من البعيد البعيد: البعض من البنتاغون، والبعض من لندن ذات الأثر الذي يصعب محوه عن وجه للعراق السياسي، والبعض من إيران الدولة التي أنجبتها الثورة الإسلامية لكن لها الآن أجهزتها ومصالحها، والبعض الآخر من أعضائ الشائير التي أعاد صدام حسين إلى بعضها من الاعتبار ما جعلها عشائر حاكمة، وأغلق على بعض آخر منها ما جعلها عشائر غائمة، والتي جاء الاحتلال الآن ليعتمد على آخر «إنجازات» صدام حسين في هذا المجال.

من حول طائفة «الحكم بالوكالة» عن الحاكم بالاحتلال: أعيد العراق إلى مكوناته الأولية: أدبياً وأعرافاً وطوائف ومذاهب وعشائر. أجلس العراق مشطراً... كل شطر إلى جانب الشطر الآخر. لم تكون الأشرار وحده. لم تكون العراق... ولكنها قمت صورة تشبه العراق. كان الكل عراقيين (وعرقيات). لكنهم لم يكونوا وحدة، هم لم يكونوا كلهم من الماضي، لكن من الصعب تخيلهم صورة للمستقبل.

كان شبح المحتل الأميركي، ولو بلباس مدني، بين كل عراقي والآخر. وكان ظله يفيض عن

القاعة التي اجتمعوا فيها، ويمتد إلى الجامعة العربية التي لم يعرف أمينها العام (المعاقب على تزايد اجتهاداته) هل يعلن قبول هذا المجلس الجديد ممثلاً للعراق فيرفضه أصحاب الشأن، أم يرفضه فينتقل «تأنيب» الدول التي كانت تتعجل ولادته لترتاج من «غضب» شعوبها عليها لتسليمها بالاحتلال «كضرورة» بل وترحيبها به باعتباره طوق النجاة الأخير لشعب العراق من طاغيته للموي؟!!

أبأس ما في هذا الوضع أن الدول العربية، بعمومها، لا تستطيع رفضه، لأنها لا تملك أن تحدد بديلاً منه، ثم إنها لا تستطيع التسليم بشرعيته المستمدة من «الاحتلال» الذي وإن كان قد حظي بختم للشرعية الدولية ممثلة بمجلس الأمن، إلا أنه كان بمثابة «المرض الذي لا يمكن رفضه».. مع إدراك صعوبة قبوله!

في ظروف عادية كان يمكن أن يكون الكثير ممن اختارهم الاحتلال أعضاء في «مجلس الحكم الانتقالي» وزراء طبيعيين، بل وربما كان بإمكان بعضهم أن يتطلع إلى أعلى من الوزارة.

لكن الظروف غير طبيعية، وكذلك مهمة هؤلاء الذين حشدوا في هذا المجلس، والذين قد يتحولون إلى مجرد «واجهة» نموّ الاحتلال وتبرّره وتشريع وجوده، بل وقد تمد في عمر المرحلة الانتقالية، أو قد تمنع وطنية العديد منهم ووعيهم خطورة المهمة التي انتدبوا لانجازها، ولقي يحتاج الاحتلال إلى تبنيها حتى لا يستفز وطنية العراقيين بعد أن يفوقوا من ليل صدام حسين الطويل فتكون عندها المقاومة الوطنية فعلاً، والتي يملك شعب العراق فيها سجلاً حافلاً يعرفه «البريطانيون» كل المعرفة.

إن «مجلس الحكم الانتقالي» أمام امتحان جدي ليس لكفائته فحسب بل لوطنيته أساساً، فإن هو نجح في ممارسة سلطات تنفيذية حقيقية، سواء بتعيين الوزراء أو بالبعثات الدبلوماسية الجديدة، أو بتقرير الموازنة الخ فلسوف يفض العراقيون نظرهم عن «التعاون مع الاحتلال» مفترضين أن نجلحه إنما يقصر في عمر فترة الاحتلال.

إن يمنح احد هذا المجلس ثقة غير مشروطة، وإن يرحب به الا من رحب بالاحتلال معتبراً أن أي بديل سيكون أقل سوءاً من حكم صدام حسين.

إن هذا المجلس أن يكتب شرعيته الا بنجلحه في تقييد امد الاحتلال، وفي فرض رقابة عراقية على طريقة تصرف الاحتلال بثروات العراق الوطنية، وفي توفير الامن والغذاء وسائل الخدمات الاساسية للشعب العراقي. المهم أن يصدق اعضاؤه فيهم في موقع «مجلس الحكم» وأنهم اصحاب الرأي الاول في القرار وكيف يساس شعبهم، وإن هم لم يصدقوا ان لهم الصفة التمثيلية التي تجعل الاحتلال بحاجة الى تنفيذهم وإنهم ان محبوبا كشفوه فسرعوا في اخراجه، فإنهم بذلك يتحولون الى مجرد واجهة لتعويهِ الاحتلال وتزيين «منجزاته» بالمقارنة الدائمة مع ما كان عليه الوضع في الظل الاسود لصدام حسين.

يبقى بعض المغارقات التي لا بد من تسجيلها:

الاولى ان هذا المجلس قد التأم عقده في مقر وزارة التصنيع الحربي، قرب القصر



الجمهوري... وهذا المقر هو، بحسب الأميركيين، المركز الاستراتيجي لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، وهي الذريعة التي استخدمت لتبرير الحرب على العراق، ثم لتسريع احتلاله... وهي هي كرة النار التي يتقاذفها الآن الأميركيون والبريطانيون بعدما ثبت أن المخابرات المركزية الأميركية قد «مررت» كذبة طوني بلير على جورج بوش، بالتعاون مع عصابة البنتاغون و«سائري المحافظين الجدد» من «المسيحيين للصهيينة» في الإدارة الأميركية.

الثانية أن اسرع المرحبين بهذا الانجرار الأميركي كانت الخارجية الفرنسية التي تبدي وزيرها الشاعر في مجلس الأمن وكأنه محامي الشعوب المهفورة والمدافع الفذ عن الشرعية الدولية.

ثالثة هذه المفارقات أن بعض أعضاء هذا المجلس قد «أحرقوا» أطلالته الأولى عندما أصر «الناطق باسم الاحتلال» والعائد بدباباته على شكر بوش والكونغرس والشعب الأميركي وبريمر، وعلى توصيف قوات الاحتلال بأنها «قوات تحرير».

رابعة هذه المفارقات أن ممثل الأمم المتحدة الذي شهد ولادة المجلس حاول أن ينسب هذه المؤسسة الوليدة إلى القرار ١٤٨٣، ولكنه تحفظ إذ اعتبر أن العراق «يجد نفسه اليوم في موقع فريد من نوعه وصعب وأمام مأس عديدة ومن دون أن يتمتع حالياً بكامل سيادته».

خامسة هذه المفارقات وأبشعها أن يبدأ هذا المجلس «عهده» الميمون باعتبار يوم التاسع من نيسان، أي يوم احتلال بغداد وإعلان سقوط صدام حسين ونهاية عهده، «عيداً وطنياً» كأنه لم يكن للعراق قبله عيد وطني، وكان تاريخ العراق الحديث إنما يبدأ مع الاحتلال... الأميركي.

هل أن عراقاً جديداً يولد فعلاً؟

من الصعب أن ننسب هذا المجلس إلى الوطنية العراقية بالمطلق، ولكن من الضروري التعامل معه كـبعض نتائج الاحتلال، وعليه أن يستخرج بعمله شهادة بوطنيته... فهو، وبغض النظر عن التفاصيل والتحفظات، من نسب إليه شرف تمثيل شعب العراق المحتل؛ ومعيار وطنيته كم يعجل في إنهاء هذا الاحتلال، وإلا كان صاحب فضل في التعتيل في ولادة المقاومة الشعبية الحتمية للاحتلال ولواجهاته المحلية.

المفكر اللبناني ١٤ يوليو ٢٠٠٣

## تأمل في الأسئلة والإجابات العراقية

عبد الحسن الأمين

العرب ما يزالون بالنسبة إلى العراق عربين: عرباً رحبوا بمجلس الحكم ونددوا بما تتعرض

له قوات الاحتلال من هجمات، و عربياً تندوا بمجلس الحكم ورحبوا بتلك الهجمات. والغريب أن المرحبين بمجلس الحكم رأوا فيه خطوة في الاتجاه الصحيح لانتهاء الاحتلال. وأن بعض المنددين يرون فيه الوسيلة لانجاز المهمة نفسها: اخراج القوات الأميركية.

فهل نحن أمام حالة انقسام على الوسيلة وتفاق على الهدف؟

هنا نحصل على جوابين: الأول يقول إن الخلاف اعمق من ذلك وأن من قبلوا بالمجلس مذعنون لارادة المحتل ولا يمثلون لارادة الشعب العراقي، وأن الهجمات العسكرية هي التي تعطي من شأن هذه الارادة. والثاني أن من قبلوا عضوية المجلس أو ليدوه هم الذين يمثلون ما يريده الشعب في هذه المرحلة. وأن إعادة بناء مؤسسات الدولة العراقية قُرب الطرق لمطالبة القوات الأميركية بالخروج من العراق، وأن للفعل «المقاوم» واحد من طرفين: أ- بقايا النظام من الذين يريدون فرض أنفسهم على المحتل في مشاريعه لبناء النظام الجديد، كي يتفاوض معهم ويعيد إليهم أهلية تمثيل ما تطل، على الأقل، مناطق عراقية معينة. ب- منظمات ترفع لواء اطلاق النار على الأميركيين حيث وجنوا، داخل العراق وخارجه. وقد لقيت فرصتها في الفراغ الحاصل بعد انهيار النظام.

ويضيف أصحاب الجواب الثاني: مثل هذه الأعمال قد تؤدي الى عكس ما هو مطلوب: اطالة امد الاحتلال من جهة، وفتح ابواب للصراع العراقي - العراقي التي أمكن حتى الآن اقفالها. وفي الجوابين يتمحور الخلاف حول أهلية تمثيل الشعب العراقي. وهنا نحن أمام جوابين جديدين:

الأول، أن المقاومة تبدأ بها القلة وتتمتع لتشمل الكثرة. وهذا يتحصل في موازاة تحقيقها الانجازات ونجاحها في اثبات نفسها في الميدان. وبالتالي، ليس مهما أن نكون ذات لون طائفي محدد إذ من الطبيعي ان تنمو بدلية في بيئة تشدها أواصر ووشائج تمنع اختراقها. وأصحاب هذا الجواب يستشهدون بالمقاومة في جنوب لبنان والمراحل التي مرت بها والبيئات التي رعتها. والواضح ان الخطاب المقاوم ما تفك يتمثل بتجربة لبنان، سواء في الطريقة التي اخرجت فيها القوات الاميركية عام ١٩٨٣، أو بكيفية فرض الانسحاب على القوات الاسرائيلية في العام ٢٠٠٠.

أما الجواب الثاني فيؤكد ان العمليات التي أدت الى اخراج الاسرائيليين والاميركيين من لبنان كانت في مرحلة مختلفة دولياً ومحلياً وإسلامياً. وأن الدعم الخارجي الذي حظيت به تلك المقاومة في لبنان لا يمكن ان يحصل مثله للمقاومة في العراق، ليس فقط تبعاص للتغيرات الكبرى التي حصلت دولياً بين المرحلتين، بل لأن الأولوية مختلفة عند الشعب العراقي نفسه: فالعراقيون، رغم انهم لم يستقبلوا بالورود القوات الاميركية، يدركون ان خلاصهم من أسر النظام السابق وممارساته الفاتكة في قسوتها، ما كان ليتم بوسيلة أخرى غير للتدخل الخارجي.

ثم ان القوى التي تشكل منها مجلس الحكم العراقي لها تاريخها السياسي الطويل، وهي معروفة في دول الجوار والخارج، وبعض رموزها كان يُستقبل على مستوى القيادات العليا في

تلك الدول: فهناك القيادات التاريخية للوسطين الكردي والشيعي، كما هناك تمثيل لتيارات تاريخية فكرية لعبت دورها في العراق والمنطقة: من التيار الشيوعي إلى الإسلامي والوطني والقومي، عدا الوجوه الليبرالية والمعتدلة كالباجهجي وبحر العلوم. ومثل هذه القوى غير مشكوك في سعيها لانتهاء الاحتلال من دون إنكار أنه حقق للفترة الأهم في برنامجها ألا وهو: الخلاص من النظام، وهو يعدها بالمساعدة في انجاز الوجه الثاني للبرنامج، أي إقامة نظام تعددي في العراق يقوم على آلية الاقتراع الحر والمساواة بين أبناء المناطق والمذاهب والطوائف والأعراق. وهذه القوى على قناعة بان البرنامج في وجهه ليس صفقة أميركية على الشعب العراقي، إذ للنجاح في تحقيقه هو السبيل الوحيد لمصادقية الإدارة الأميركية أمام الرأي العام عندها، كما أنه السبيل الأقصر لحفظ مصالح وتشتت في المنطقة دون اضطرابها للدائم إلى تجييش وبناء للقواعد، وهو ما حصل مرتين خلال عقد ونيف.

إذًا، عراقيًا، من المفترض أن هناك اتفاقاً على الهدف: انتهاء الاحتلال وبناء النظام التعددي. وإن الخلاف على الوسيلة لا يمنع من تاحة الفرصة لأدوات العمل السلمي. لأن المجتمع القادر أن يخوض موحداً كفاح المقاومة المسلحة سيكون قادر على خوض المعركة السلمية. وهنا تبرز مجموعة من الخلافات أهمها: أن دعم مجلس الحكم عربياً ودولياً سيمطيه قدرة أكبر على المناورة في حوار مع الأميركيين، ويوسع هامش استقلاله كلما عمق وحدته الداخلية وتوطدت علاقاته الخارجية. ثم إن الأعمال المسلحة تتم خارج أي برنامج سياسي لإعادة بناء العراق، وقد تطيل أمد الاحتلال فيما تبدو أقرب إلى الأعمال الفردية أو الصادرة عن جماعات صغيرة يسهل عزلها من داخل البيئات التي تحتضنها. بيد أن ذلك لا يعني نجاعة الحل الأمني في التصدي لظاهرة المملو، إذ لا بد من حل عراقي — عراقي يقوم على تعزيز الحوار بين حاسمات البلد المختلفة، خصوصاً تلك التي تُحصب، صولياً أو خطأً، على أنها قريبة من النظام السابق.

إنها بعض أسئلة العراق اليوم، وبعض إجاباته.

الحياة ٢٠/٠٧/٢٠٠٣

## إقامة «مجلس شوري المقيم العام» بالعراق

### إتيان البيوت من ظمورها

عبد الهادي بوطالب

يردد الكثيرون مقولة «لا سهل من الهم ولا أصعب من البناء» ويحكمونها كتقاعدة مطردة

في كل سياق. ولعل تفويض نظم صدام حسين من لدن قوات الاحتلال بالمسؤولية التي تم بها، وما يعترض الحكم الأميركي المباشر للعراق من صعوبات ومشاكل وتعقيدات ومقاومة مسلحة يؤكدان صدق هذه القاعدة بشقيها.

بداية يجب ان نعترف بأن حكم شعب العراق سواء من لدن ابنائه او غزاته لم يكن قط - طوال التاريخ - سهلا ميسورا حتى ليتمكن للقول ان العراق يُعد من بين الشعوب التي لا تسلسل قيادها بسهولة لحاكمها سواء كان وطنيا او اجنبيا. وقد ادى شعب العراق لثمن غالبا للخضوع بالاكراه والقتوة والطغيان لحاكم العراق السابق الذي اطاحت قوات التحالف به يوم تاسع ابريل /نيسان المنصرم بعد حرب لم تزد على ثلاثة اسابيع ولم تقتل فيها قوات العراق، وتحقق هذا الانجاز الضخم على هذه الوثيرة المتسارعة لان شعب العراق كان يرفض النظام البعثي المفروض عليه.

اتخذ البيت الابيض بهذا الانتصار السريع للمحاق وتم الاعلان عنه امام العالم في مشهد احتفالي لم يتقدم له مثيل، حيث جاء الرئيس «بوش» بوصفه القائد الاعلى للقوات المسلحة المنتصرة منطويا متن حاملة الطائرات الكبرى ومرتديا لباس القيادة العسكرية ليعلم في فاتح مايو/ايار المنصرم نهاية حرب للعراق والانتصار الشامل امام عسكات الفضائيات العالمية.

لكن الرئيس الأميركي في يوم الخميس عاشر يوليو/تموز الجاري كان مضطرا الى التصريح بقوله: «اننا نعلم بالعراق مشكلة لمن بكل تأكيد». واعتقب هذا التصريح اعتراف اخر صدر عن وزير الدفاع «توماس رامسفيلد» جاء فيه: «ان الجيش الأميركي بالعراق يواجه بعض الصعوبات من خلال الهجمات التي يتعرض لها كل يوم» وهو يشير بذلك الى ارتفاع عدد الضحايا الأميركيين من قتلى وجرحى يقال انهم يحضون بالعشرات. وامام لجنة مجلس الشيوخ التي ساءلته يوم ١٠ يوليو/تموز الجاري اضاف الوزير ان للتكاليف المالية التي تحملتها وزارته بعد نهاية حرب العراق كان غلافها المالي اكبر مما كان يتوقع، لاذ تجاوزت التكاليف ٣ مليارات دولار كل شهر.

ويعيب اعضاء مجلس الشيوخ الديموقراطيون على الرئيس «بوش» ان الحرب التي اعلنها على العراق بتسرع (وبعضهم يقول بدون مبرر موجب) كلفت امريكا اكثر مما يجب، مما شكل عبئا ماليا مبالغا فيه وضاعف حجم عجز الميزانية الذي بلغ ٤٥٥ مليار دولار هذه السنة، وهو ما لم يبلغه حجم العجز المالي قط في تاريخ الولايات المتحدة. وللتذكير فان الميزانية الأميركية تتحمل كل شهر خمسة مليارات دولار تصرف على العمليات العسكرية بكل من افغانستان والعراق. كما يذكر ان وزارة الدفاع الأميركي تقدمت الى الكونغرس بطلب الموافقة على غلاف مالي قدره ٣٦٩ مليار دولار لتغطية نفقاتها العسكرية خلال السنة الجبائية المقبلة. وهكذا يرتفع حجم المبالغ المالية المرصودة سنة بعد اخرى وحجم العجز المالي تبعا لذلك.

اما الجنرال «جون ابي زيد» القائد الجديد للقوات الوسطى (اللبناني الاصل) فقد اعترف بدوره ان الجيش الأميركي يواجه بالعراق حرب عصابات منظمة ورد على وزيره في الدفاع (رامسفيلد) الذي سبق له ان نفى ذلك.

وقد أصبحت أزمة الولايات المتحدة في العراق حديث الساعة الذي يتردد ذكره على الألسنة والأقلام، وتختلف أسماؤه وأوصافه من تسميته بالأزمة، والمأزق إلى تسميته بالمستنقع العراقي، أو وكر الزنابير، بل يُبعد البعض النجمة في المقارنة ليمسّيه فيتلثم الآخر أو الجديد.

وإذا اختلفت الأسماء فإن الاتفاق منحد على أن الأزمة ستطول، وقه لا يمكن التنبؤ بمفاجئاتها، وعلى ذلك جاء في بعض تصريحات كبار البيت الأبيض أن الوجود الأميركي المسلح بالعراق قد يستمر أكثر من عشر سنوات. وقيل عنه أنه قد يمتد ربع قرن.

وقال الجنرال «جون أبي زيد» أيضاً أن أفراد الجيش الأميركي البالغ عددهم اليوم ١٤٠,٠٠٠ لن يُسرحوا ويعودوا إلى الولايات المتحدة، وإنما سيعود بعضهم بدايةً من شهر أيلول ويعوضهم نفس العدد. وهكذا يستمر الحضور الأميركي المسلح بالعراق بنفس الكثافة، ولكن بالتناوب، لأن الأوضاع القائمة بالعراق — يقول الجنرال — لا تسمح بالتخفيض من حجم الجيش.

وتعززت أخطاء سوء التقدير بتأسيس «بول بريمر» «مجلس الحكم الانتقالي» المؤلف من ٢٥ عضواً اختارهم بانتقائية خاطئة بدلاً من اعتماد معايير موضوعية للاختيار.

ويعاب على المجلس أولاً أنه ليست له سلطة تقريرية، وإن الحاكم المدني الأميركي هو صاحب القرار الذي يستشير أعضاء المجلس فيما يشاء ومتى يشاء ودون أن يتقيد بمشورتهم ورأيهم.

أنه مجلس يضاهي المجالس الأهلية التي كانت تقام من لدن سلطات الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية وبشكلها للمنوب السامي الأجنبي أو المقيم العام الغريب. وقد كان لنا في المغرب — ولي شخصياً — تذكيرات مع هذا النوع من المجالس التي أقامها بعاصمة المغرب (الرباط) مقيمون عامون اشتهر من بينهم الجنرال «جولان» و«كيوم». وكنا — نحن الوطنيين المقاومين للاستعمار الفرنسي — نندبها ونسخر منها ونطلق عليها على صفحات جريدة الرأي العام اسم «مجلس شورى المقيم العام».

لقد قام التركيب الفيسيفسائي للمجلس المقام ببغداد على معايير تجزئة العراق إلى طوائف دينية وعرقية وقبيلية، وتمثلت فيه بعض الأحزاب دون البعض، وأعطى فيه للتمثيل الشعبي نصيب الاسد: ١٤ مقعداً من بين ٢٥، وناب أهل السنة فيه خمسة مقاعد فقط، وأعطى الأكراد خمسة مقاعد، والمسيحيون ثلاثة، ولتركان مقعداً واحداً. وقيل في تبرير ذلك أن الشيعة بالعراق يمثلون ٦٠ في المائة، وأن السنة أعطيت أكثر مما تستحقه لكن روعي في «الوزيمة» اعتبارها التاريخي، وأن ما أعطى للمسيحيين يتناسب ونسبة ٣ في المائة من السكان التي يؤلفونها، وأن التركمان يمثلون واحداً في المائة، لذلك أعطى لهم مقعد واحد. ولم يقل الحاكم المدني الأميركي على أي إحصاء رسمي قد اعتمد في اختياره.

إن إقامة مجلس شورى المقيم العام آتيان للبيوت من ظهورها. وما أقيم على فاسد فهو فاسد. لقد كان منطقياً وشرعياً أن ترحل قوات الاحتلال أثر سقوط النظام، وتحل محلها قوات دولية تابعة للأمم المتحدة هي التي تجمع لجنة قانونية تقنية من أبناء العراق لوضع دستور جديد

يعرض للاستفتاء الشعبي، وإن تسهر على إجراء انتخابات تشريعية ينبثق من صناديق اقتراعها برلمان يعطي الثقة لحكومة وطنية. ولم يكن ضروريا مطلقا أن ينشئ «بول بريمر» بجانبه مجلس شورى معيناً بدون اختصاص. وإن يُعترف لهذا المجلس بالشرعية. ولن تقبل الأمم المتحدة ولا الجامعة العربية أن تعطيا مقعد العراق لمن ينتخبه. فالمنظمتان دوليتان، تقبلان في عضويتها من تعتمدهم الدول المستقلة لتمثيلها، وليس من ينتخبه حاكم اجنبي محتل باسم مجلس يستشار فقط ولا يحكم.

جريدة «الشرق الأوسط»

## ينبغي عدم الحكم على «مجلس الحكم» منذ الآن

عبد الوهاب بدرخان

أسوأ ما يمكن أن يواجه به «مجلس الحكم» الانتقالي في العراق هو الرفض والنزب والقطيعة، خصوصاً من الجانب العربي. فإذا كان الاحتلال الأميركي مقبولاً كأمر واقع لا يستطيع أحد إزاحته، فمن الأولى أن يُقبل هذا المجلس أو أي صيغة مشابهة كأمر واقع داخلي. وكما أن الاحتلال «مقبول» شرط أن يهيئ ظروف رحيله، كذلك للمجلس مطالب بأن ينتقل سريعاً من صفته المؤقتة إلى صيغة حكم ثابتة.

يجب الاعتراف بأن للنظام السابق وقوة الاحتلال الفتياء، من دون اتفاق، على تسهيل انهيار الدولة ومؤسساتها، كل لحساباته الخاصة. النظام شاء أرباك المحتلين ومقاومة التعقيدات أمامهم، والأميركيون وجدوا في الانهيار فرصتهم لإعادة تأسيس العراق من نقطة الصفر تقريباً، بما في ذلك الوسط الميساسي المؤهل لتسيير البلد وحكمه. وفي غياب أي تنظيمات بديلة جاهزة للقيام بالأدوار المطلوبة، لم يكن هناك مفر من التعامل مع القوى الموجودة. ولو كانت الأمم المتحدة هي المولجة بالمهمة، أو الجامعة العربية مثلاً، أو أي هيئة أخرى، لكان للواقع الفوضوي فرض نفسه عليها كما فرض نفسه على سلطة الاحتلال.

طبعاً، كانت مقارنة المشكلة ستختلف مع الأمم المتحدة التي تعمل بحكم تكوينها وميثاقها وتقاليدها وفقاً للأصول. وكان يفترض في أي خيار تعتمد الأمم المتحدة أن يكون منزهاً عن الخيالات والأغراض، فهي منظمة دولية تبقى على مسافة متساوية من جميع الأطراف ولا تتحاز إلى هذا أو ذاك. أما سلطة الاحتلال فلها أهداف، بعضها معروف وبعضها الآخر مضمّر، وهي تبقى معنية بشؤونها قبل أن تنشأ بشؤون العراق والعراقيين. وللفارق هنا جوهري، مثلاً أنه فارق عملي يتمثل تحديداً في أن ما تستطيع سلطة الاحتلال أن تفرضه وتدفع عنه لا تملك الأمم المتحدة سوى تحقيقه بالتفاوض والإقناع والتوافق.

ينبغي أن لا يخدع أعضاء «مجلس الحكم» أنفسهم في شأن نظرة العالم والعرب إليهم. وسواء كانوا يبالغون بهذه النظرة أم لا، فهذا لا يغير شيئاً. العالم يحترم من سيحمل تمثيلاً وفقاً للأصول المعروفة. والعالم كان يعمد هذه الحرب من دون أن يتعاطف مع صدام حسين ويؤيد بقاءه في الحكم، وهذه قضية معقدة لا ترمي إلى معاداة الشعب العراقي وإنما ترفض أن يتحمل العالم تبعات سياسة أميركية خاصة جعلت من نظام صدام مطوية لأهدافها. وانطلاقاً من ذلك لا بد أن ينظر إلى «مجلس الحكم» على أنه صنيعة سلطة الاحتلال وفتاح لها طالما أنه لم يأت بالانتخاب. لا شك أن في هذه النظرة ظلماً للعديد من أعضاء المجلس، لكن ثمة أعضاء آخرين فيه لكونوا مراراً أنهم غير معنيين بالشأن الوطني مقدار ما تعنيهم مصالحهم الخاصة، بل مقدار ما يعينهم أن يبقى الاحتلال لأنهم يمثلونه ولا شرعية لهم من دونه.

النظرة الأخرى إلى هذا «المجلس» أنه كرم فشل القوى العراقية كافة، خصوصاً الشيعة والأكراد والمثنية، في اقامة لحمة وطنية، وهي القوى التي يفترض أنها متجاوزة ومتحدة ومتوافقة على إسقاط للنظام السابق، فإذا بها متفكة ضمناً على وجود كيانات طائفية متميزة. وحتى لو كان هذا هو الواقع، الذي كان يجب أن يظهر إلى العلن بعد زمن طويل من الطمس والتلاعب، إلا أن العالم والعرب كانوا يتوقعون من العراقيين ما هو أفضل من مجرد تقاسم تركة صدام أو بالأحرى تركة «الدولة العراقية» السابقة. فبين من لا يتطلع إلا إلى حصص، ومن لا يهمه سوى كيانه المستقل، ومن يكافح للحد من خسائره، ليس هناك عملياً من يبدو مهتماً بالعراق كبلاد ووطن للجميع. وهذا هو الوضع الذي يريح الاحتلال، فحيث تكون الانقسامات هي السائدة ليس للمحتل أن يقلق بل أن يلعب على التناقضات.

مع ذلك، ينبغي عدم الحكم على «مجلس الحكم» منذ الآن. لذا كان للترحيب عاماً وحذراً. والمجلس وحده يستطيع إزالة الحذر الخارجي، كيف؟ بأن يعمل بسرعة لإثبات أنه لا يمثل سلطة الاحتلال، وبأن تكون له أجندة وطنية، وبأن ينجز للمستور ولوائح الناخبين في زمن قياسي لتقريب موعد الانتخابات، وبأن يخوض حواراً وطنياً شيعياً - سنياً - كردياً لبلورة ائتلاف تولبلورة ائتلاف توالحم المقبل. فلا أحد يطلبهم بحمل السلاح لمقاتلة الأميركيين، ولا أحد يلومهم على امتنانهم للأميركيين الذين خلصوهم من نظام صدام، لكن الجميع سيلومهم إذا لم يعرفوا كيف يأخذون المهمة التاريخية على عاتقهم.

الحياة ٢٠٠٣/٧/١٧

## واقعية موهلة

عزمي بشارة

ليس من السهل مناقشة البنى السياسية العراقية التي يفتنق عنها ذهن الاحتلال الاميركي من بلدية بغداد «المنتخبة» — المدينة بواسطة لجان أحياء والتي عقدت جلستها الاولى يوم ٧ تموز (يوليو)، الى مجلس الحكم المعين المنعقد بعد ذلك بأسبوع. فما زالت البنية تراوح كما يبدو بين التجربة والخطأ في أفضل الحالات، وبين المؤامرة في أسوأها. وفي أي حال، لا للفوضى الاجتماعية والسياسية التي تلت انهيار النظام طرحت ما يناقش، ولا افق واضح المعالم تكشفه العمليات المسلحة ضد قوات الاحتلال. ونحن لا ندري هل هذه العمليات محكومة بقانون الاستمرارية والقصور الذاتي للرجعي والمغوي في آن، أم انها نقیض الاحتلال الذي يفتح أفقاً جديداً لا نعرف له برنامجاً ديمقراطياً او غير ديمقراطي. وقد تحكم المقاومة المسلحة قوانين التوزيع الطائفي نفسها التي تحكم نقیضها الذي تجسده البنى السياسية التجريبية المتولدة لتوها.

ومع ولادة هذه البنى السياسية طرح للنقاش حتى قيل أن تتضح كل النيات، وقيل ان يمسح العقل السليم عن حذائه بقايا غبار أثارته بهلوانيات مناقشة الموضوع في الأمم المتحدة وزواج المتعة للقصير المدى مع أخلاقيات تنتقض ضد الجمع بين نظام نموي أجوف يدار بانحرافات سادية وبين أسلحة الدمار الشامل. لقد اخلص صدام حسين في احترامه لإرادة الإدارة الاميركية منذ ان رغب بخلافة الشاه المخلوع، ولم يستخدم أسلحة الدمار الشامل إلا (!!) ضد شعبه. وكذبوا عندما صوّتوا أذانهم وعصبوا أعينهم عن رؤية اضطهاده لشعبه طالما كان ذلك في مصلحتهم. لقد صدق عندما قال عشية الحرب انه لا يملك أسلحة دمار شامل. وكذبوا. وكان من الأجدى لو وفروا علينا جلافة رامسفيلد وجنتلمانية بليكس والبرادعي اللذين توهم الناس بسذاجة انهما قد يلعبان دوراً مهماً. كان الهدف إسقاط النظام لأسباب استراتيجية اميركية اختلف الناس وأطالوا في الاختلاف على تعدادها وترتيبها حسب الأهمية. ولكن البديل الديمقراطي لنظام صدام حسين لم يكن هدفاً استراتيجياً إلا بنظر الاصوليين الديموقراطيين الاميركيين المبشرين بالديموقراطية بأسلوب عبأ الرجل الابيض الاستعماري للقديم. وحتى هؤلاء اعتاشوا على اسطورة الدور الاميركي في اليابان وألمانيا، والدولتان صناعيتان متطورتان متناسقتان قومياً بشكل لا مثيل له لا في أوروبا ولا في آسيا. وكما نجح الالمان واليابان في إقامة أنظمة حكم شمولية ايدولوجية تنظم صناعة «الجنوسايد» ونقاوم حتى اللحظة الأخيرة، ويفضل بعض قادتها على الاقل الانتحار على الاستسلام، فقد وجدوا أيضاً مقومات الانعطاف نحو الديموقراطية، وجه الحداثة الآخر. اما نظام صدام حسين فلم ينجح حتى في إقامة نظام شمولي وراوح في المساحة بين الدولة السلطانية او المملوكية والديكتاتورية العسكرية الى ان وصلت به «البهلة» حد شراء ولاءات العشائر بالمال عدأً ونقداً.

وفي أي حال فقد وقعت الواقعة وطُرحت أفكار دستورية الطابع بشأن تنظيم دولة عربية، وهناك الآن ما يناقش. ولا تستطيع القوى الديموقراطية العربية، سواء كانت قومية او غير قومية في فهمها للعرب والانتماء العربي، ان تتجاهل ما يجري في العراق وألا تساهم في مناقشته افراداً ومؤسسات.



ولا يحتاج الإنسان الى رؤية ثابتة ليلحظ مؤشرات خطيرة يبينها بكل الاتجاهات الفضائية نموذج ما يطرح حالياً في العراق. ويتبين ذلك من النقاش الدائر حول التركيبة الطائفية، وربما اخذت في الاعتبار في المرحلة الاولى بحثاً عن «التوازن» ولنزع فتيل معارضة طائفية او تثبيتاً لتوجه فكري دستوري يتم عن نزعة قائمة لدى الولايات المتحدة وحلفائها لتوليف الفيدرالية مع الطائفية، تركباً للحدثة على نقيضها. قد يتساءل قائل: وهل حكم الغالبية الطائفية هو طائفية أما حكم الأقلية الطائفية فليس طائفية؟ ويجب للديمقراطي قائلًا كلاهما حكم طائفي. والغالبية للديمقراطية ليست هي الغالبية الطائفية، ولا الأقلية الديمقراطية هي الأقلية الطائفية. والحقيقة أنه لا الأقلية الطائفية حكمت في الماضي ولا الأكثرية تحكم عبر غالبية طائفية تصور كأنها غالبية ديمقراطية، بل حكمت دولة سلطانية مستندة الى تحالفات بتركيبات مختلفة وتعتمد الى حد بعيد على ولاءات عشائرية وطيائفية ولكن دالما مدفوعة بالخوف او المصلحة او بكليهما، يضاف اليهما هامش الفساد والافساد.

صحيح ان الطوائف وقع قائم، ولكن بناء دولة حديثة على وحل هذا الواقع هو نقيض للديمقراطية. فالأخيرة تبنى على اسس تساهم هي في تحويلها الى واقع، مثل سيادة القانون، وحقوق المواطنة، والفصل بين الحيز العام والخاص وغيرها. وإذا وضع حجر الأساس للنظام على رسوخ الطوائف كنوات قانونية فسينعكس الأساس في جملة البنيان ويصعب تغييره من دون تهديمه. لأن كل الاسئلة مستصاغ بعد ذلك بلغة طائفية. وكما ان التركيب الطائفي الدستوري للحكم في لبنان يكرس النقاش الطائفي ويعيد لنتاجه في كل ملاحظة سياسية عليه حتى لو كانت معادية للطائفية، كذلك سيصعب على اي نظام قام على اساس طائفي ان ينظم العلاقة بين المواطن والسلطة إلا عبر الطبائفة التي ولد فيها، متدينًا كان لم لا، مؤمنًا لم غير مؤمن. ولا يستطيع النظام ان يتجاوز النظام الطائفي الاستبدادي الذي يهيمس الاحزاب التي تطرح برامج لمصلحة المجتمع ككل في دولة لجميع مواطنيها، إلا الى ما يشبه ديمقراطية توفيقية غير ليبرالية تعتمد تمثيل الطوائف لا للناس، وينتهي الأمر الى تمثيل نخب الطوائف الاقتصادية والسياسية والثقافية القادرة على انتاج رموز الهوية وتمثيل الهوية بعد ان تصنعها وتعيد صناعتها على صورتها ومثالها. ديمقراطية لبنان للتوفيقية المحدودة فضل بلا شك من الدولة السلطانية او الديكتاتورية، ولكن فقط عندما لا تكون في حالة حرب اهلية.

ولماذا تصح للفيدرالية في الديمقراطية. ولا تصح الفيدرالية بين الطوائف؟ أولاً، تبقى المواطنة هي الوحدة المكونة الاصغر في حالة الفيدرالية بين الولايات والاقليم. ولا توجد فيدرالية لا يعتمد فيها على علاقتين متوازيتين للمواطن، واحدة مباشرة مع مركز الحكم واخرى في الولاية وعبرها. وثانياً لأن الديمقراطية تفترض ان الاقليم او الولاية تشكل من مواطنين افراد احرار، ولا يمكن حتى ان يفترض ان الطائفة تشكل منهم. وقد توظف الاقليمية كمفهوم عصيوي غير ديمقراطي لهوية منافضة للديمقراطية، او ذات نزعة انفصالية تسعى في الفضل الحالات الى ديمقراطية في اطارها العبادي المنفصل. لما في الاطار الديمقراطي فهي لا تضع حجر عثرة أمام ممارسة ديمقراطية بحجم عثرة الهوية الطائفية التي قد تتحول بسهولة الى

مواقف دينية. وفي إمكان الحزب السياسي القطري الطابع ان يقيم فروعاً في الاقاليم كافة وان يسعى الى تمثيلها جميعاً. ولكن ما هذا النظائر بالسنداجة؟ الاقاليم مسكون بأرواح وأشباح وأساطير عديدة وليس بالمواطنين فقط، والا فمن اين الحصيلات الاقليمية لأوطان صغيرة بأساطيرها؟ هذا صحيح، ولكن المفهوم الدستوري: ولاية، كـ«قلب للتفكير» وكإطار للتفكير الدستوري هو غير مفهوم الطائفة ويفتح وفقاً للتطور الديمقراطي عبر العلاقة بين الفرد ومؤسسات الولاية ثقلاً الطائفة.

ويبقى هدف التفكير الديمقراطي هو ان تنظم المواطنة، حقوقها وواجباتها، العلاقة مباشرة بين الفرد والسلطة، وان تستخدم الدولة لبناء أمة للمواطنين المدنية. ولا مجال لعلاقة مباشرة بين الفرد والدولة لا يسحق فيها الفرد إلا بوجود حقوق المواطنة بحيزها الخاص والعام. اما البنى التي تموض عن غياب المواطنة فتخلق الفرد في انتمائه العضوية العائلية الممتدة او الطائفية كتمن لنفاها عنه وحمايته ككائن حي، وليس كفرد، أمام اعتبارية الدولة.

وهناك فرق بين اعتماد اللغة او الثقافة او القومية أساساً للتوزيع الاقليمي الفيدرالي، كما في سويسرا او بلجيكا او كندا او غيرها، وبين اعتماد للطائفة الدينية أساساً لعلاقة توافقية دستورية بين نوات قانونية معترف بها لاضافة الى المواطنة. للتعددية الطائفية الدينية كتعددية سياسية لا تنتج حتى ديمقراطية توافقية، وهي لا تمكن من فصل «للاهوت» أو «الفقه» الدستوري عن اللاهوت أو الفقه الديني حتى في فكر النخب السياسية الممثلة للطوائف. ان «افضل» من يمثل الطائفة في النهاية هو الحزب الطائفي او حتى الديني، وهذا ما ينتجه النظام الطائفي في النهاية.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل تصلح المواطنة وحدها لتشكيل أساساً عضوياً للانتماء الى الأمة وللمناهل مع الوحدة الذي يجعل التعددية في اطارها ممكنة من دون ان ينحل عقدها الى حرب اهلية. هل يتعصب الناس الى موطناتهم؟ هل تنفع المواطنة وحدها الى الشعور الوطني؟ لا تكفي وحدها. ولكن في الامكان التتيف على المواطنة كأسلوب حياة وكنهج في التعامل بين الأفراد وفي تعامل السلطة مع المواطنين، خصوصاً في حالة المواطنة الديمقراطية. وإذا كان هنالك تطابق بين المواطنة والقومية كما في فرنسا مثلاً فليست هنالك مشكلة من هذا النوع، بل تنشأ مشكلة أخرى وعصية من نوع آخر، لا يتسع المجال هنا للخوض فيها. أما إذا نشأت تاريخياً تعددية قومية فهذا لا يعني الانقراض من أهمية المواطنة او القومية.

هوية غالبية سكان العراق هوية عربية، تاريخياً وحضارياً وثقافياً. وكل من يدعو الى إضعاف هذا الانتماء كمؤسسة معترف بها من قبل الدولة لما يمهّد لمأسسة الطائفية السياسية الشيعية والسنية والمسيحية في الدولة. لا يجوز الاستغناء عن الهوية العربية رسمياً. أما القومية الأخرى الكردية فيجب الاعتراف بها رسمياً أيضاً كقومية وكلفة وكتقافة. ولكن هنالك فرقاً بين بلد يأخذ دستوراً الديمقراطي في الاعتبار وجود قومية غالبية عربية وقومية أقلية كردية بحيث تجمعهما المواطنة العراقية، وبين تقسيم للدولة بعد البلد الى طوائف وعشائر وحمايل لا تنتهي الا بغياب المواطن سوياً مع ضياع الانتماءات الثقافية الحدائقة الطابع. الأمة للمدنية والمواطنة وجهان للعملة نفسها، وتشكل للقومية مضمون صلتها الحضاري والثقافي والسياسي.

وكما لا يمكن تصور عراق حديث من دون هوية قومية عربية متحررة من العنصرية والبطانة متعايشة مع هوية قومية كردية، كذلك لا يتدبر الأردن العلاقة الفلسطينية الأردنية من دون هويته العربية، وكذلك حال لبنان وسورية وغيرها. وعلى رغم وجود توتر بين البعثين، للقومية والمواطنة التي من المفترض ان تتخلص من منشئها التاريخي لتصبح محايدة قومياً، في دولة لجميع مواطنيها، إلا ان جدلية العلاقة بين القومية والمواطنة في النظام للديمقراطي هي جدلية أرقى بعصور من الجدلية بين الطوائف والعشائر والدولة والأفراد. قد ينحرف نظام حكم بالقومية الى ايديولوجية عنصرية وفاشية الطابع والادوات، وقد تشكل القومية اطاراً للتعددية الديمقراطية في تفاعل متشعب مع مواطنة محايدة قومياً.

إن مجرد نشر أسماء أعضاء مجلس الحكم في العراق تحت عناوين من نوع: خمسة عشر من الطائفة الفلانية وأربعة من الطائفة الفلانية، يضرر سوءاً ولا يبرش بالخير. لم يجد الاميركان سلاح دمار شامل في العراق ولكنهم قد يخترعون سلاح دمار اجتماعي شامل ألا وهو سلاح التقسيم السياسي الطائفي للمجتمعات العربية خصوصاً في المشرق العربي.

الحياة ١٧/٠٧/٢٠٠٣

## سباق أميركي مع الزمن في العراق

غراهام فولر<sup>(١)</sup>

تأليف مجلس الحكم العراقي بشكل اول خطوة سياسية حكيمة تقدم عليها السلطات الاميركية منذ توليها امر العراق، وهي مؤشر ايجابي بعد شهور من التوجه السلبي. وبالرغم من التأخر في تشكيله، فإن المجلس يعزز الأمل بأن السلطات في العراق سوف تعود في النهاية الى الشعب العراقي لأول مرة منذ ٤٠ عاماً. ومن الواضح ان كثيرين من المتشككين في السياسة الاميركية باسروا الان التركيز على متابعة التجربة باهتمام أوضح.

ولكن، من الجلي ان مجلس الحكم ليس الجواب النهائي. فالكثير من العراقيين لا يزالون يشكون من ان المجلس، ومهما أخذ من السلطات، يبقى جهازاً معيماً من قبل رئيس الادارة المدنية في العراق بابل بريمر، وأنه ليس جهازاً منتخباً من الشعب. بيد ان هذا لا يلغي حقيقة ان المجلس يمثل قطاعات واسعة من الشعب العراقي، من المتدينين والايديولوجيين، ومن منطلق طائفي هناك شيعة وسنة، وعرب واكراد، ومن منطلق ايديولوجي هناك اسلاميون وعلمانيون، وهناك ليبراليون وشيوعيون، أي ان التوازن جيد، ولكن للأسف فإن المجلس لا يكتسب شرعية الانتخاب.

عموماً، هذه الخطوة السياسية لم تتخذ في الفراغ بل على خلفية زيادة المقاومة المسلحة للقوات

الاميركية. ولا شك في ان ادارة بوش تمايل للزمن الان، إذ على واشنطن ان تحقق لقناعا سريعا للعراقيين بأن المجلس شرعي. بيد ان واشنطن تواجه مشاكل رئيسية في هذا الصدد.

اولاً، هل سيقبّل المجلس مكتفياً بالصلاحيات المحدودة المعطاة له والعمل ضمن حدودها، ام انه سيطالب واشنطن بالمزيد من الصلاحيات الاكبر؟

ثانياً، هل سيعتبر العراقيون المجلس قاطرة للامال العراقية، لم سينظر اليه كلعبة مبرمجة لخدمة المصالح الاميركية؟

ثالثاً، هل ستطغى عمليات المقاومة ضد القوات الاميركية على الساحة السياسية وتجبر الولايات المتحدة الى المزيد من التورط العسكري وتحويل كل فكرة المجلس الى نكتة هزيلة؟  
لا شك ان نمو المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الاميركي ظاهرة مثمرة ومثيرة، وربما تكون قد بدأت في تغيير الحقائق على الارض. وبالرغم من ادعاءات البنتاغون بأن المقاومة تعبر عن تصرفات يأس اخيرة من جانب أنصار صدام حسين، فإنها تبدو الان متشعبة ومتوسعة على الدوام وليست محصورة في مناطق مركزية. وقد لا تعبر المقاومة عن اغلبية العراقيين الآن، ولكن عندما تبدأ حروب العصابات فإنها نادراً ما تعبر عن اغلبية السكان.

الهدف الاساسي للمقاومة هو تعقيد عملية الحكم امام قوات الاحتلال الاميركي، وفرض الجبهات ومن ثم لجبار حتى المعتدلين على دعم حركة المقاومة الوطنية. وحتى الآن امتنعت القيادات الدينية من الشبهة والسنة عن دعم المقاومة المسلحة ضد الاحتلال، ولكن الى متى سيستمر موقفهم هذا؟ الواقع انه لا يمكنهم الظهور كمؤيدين للولايات المتحدة بينما حركة المقاومة الوطنية تحارب ضد الاحتلال.

الى ذلك من المحتمل ان تتحول المقاومة أيضاً الى حركة وطنية موسعة اذا لم يتمكن مجلس الحكم من اخذ سلطات مستقلة عن الولايات المتحدة، وبالتالي سوف يخسر هيئته امام اغلبية العراقيين. وعلى النقيض من ذلك، اذا تعززت آمال الناس مع تشكيل المجلس واقعاه، فقد تخسر المقاومة المسلحة الدعم الشعبي، وبالتالي تتعاون السلطات العراقية مع القوات الاميركية على اثناء العنف.

الحقيقة الاهم الآن بالنسبة للولايات المتحدة هي ان جندياً أميركياً يقتل بمعدل يومي. والاحتمال الأغلب هو ان صبر الشعب الاميركي على تحمل هذه الخسارة الناتجة عن الاحتلال سيكون محدوداً. أما الأهم فهو اتنا على بعد خمسة عشر شهرا من الانتخابات الرئاسية. وبعد شهر من الآن هناك احتمال ان يتولى كارل روفيه عملياً شأن السياسة الخارجية، كونه المستشار السياسي للرئيس للربيع بوش، وسيكون عليه دراسة آثار السياسة الخارجية بصدد العراق على الحملة الانتخابية. من هنا يمكن القول انه اذا لم تبدأ الامور تتجه ايجابيا في العراق في القريب، فمن الممكن التخمين ان الولايات المتحدة سوف «تعلن للنصر وتعود للوطن» في الصيف المقبل، تاركة خلفها بعض الاشكال التنظيمية لحكم ذاتي في العراق وستكون مهمة القائمين على تلك الاشكال الدفاع عنها.

اذا حدث ذلك، سيكون بوسع بوش الاستفادة من حقيقة انه قضى على نظام صدام حسين

العنيف. لكن ذلك سيبدو اقل بكثير مما اشيع عن آمال وخطط جيوسياسية طموحة اعلن عنها المحافظون الجدد قبل الحرب. فعلى عكس خططهم وأمالهم ان يصبح العراق حليفا اساسيا للولايات المتحدة في الشرق الاوسط، ولن تتمكن واشنطن من دفع للنظام الجديد في بغداد لاقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل (على الاقل حتى يتم التوصل لحل سياسي حقيقي في فلسطين المحتلة). وازافة لذلك، فإن الحديث عن اقامة خط نفط بين العراق واسرائيل ان يتحقق.

اخيراً، يبقى ان الولايات المتحدة ان تتمكن، كما تمتعت، من اقامة اربع قواعد عسكرية رئيسية في العراق كان يراد منها تحويل البلاد الى نقطة انطلاق وعصب مركزي للمصالح الاميركية في الشرق الاوسط. من دون شك سيكون العراق في وضع افضل عن السابق، ولكن من منظور توقعات ومصالح ادارة بوش فإن النتيجة ستكون بالفشل مخيبة للآمال.

(\*) شغل منصب نائب رئيس مجلس الاستخبارات الوطنية في وكالة الاستخبارات المركزية، ومؤلف كتاب «مستقبل الاسلام السياسي».

جريدة «الشرق الاوسط»

## مفاعل على ضفاف دجلة

غسان شربل

راود بعض مهندسي الحرب على العراق حلم جميل خادع وهو جعل اطلاحة صدام حسين البوابة الذهبية لانقلاب كبير في الشرق الأوسط. منذ هجمات ١١ ايلول (سبتمبر) ترسخت لدى هؤلاء فتاة مفادها ان بيئة الشرق الأوسط حاضنة للإرهاب بسبب غياب الديمقراطية والفشل الاقتصادي والفساد واليأس ومناهج التعليم. لهذا نظروا الى اقتلاع صدام حسين بوصفه محطة أولى مهمة في جراحة واسعة. ولم يروا حاجة الى الاعتقاد ان القصول التالية يجب ان تكون ساخنة. توقعوا ان يكون لسقوط نظام صدام اثر شبيه بانهييار جدار برلين. كشف دول المنطقة أمام رياح جديدة وحقائق جديدة لا خيار غير التكيف معها أو السقوط. وبين هؤلاء من راهن على العدوى. اعتبروا ان اقامة نظام ديمقراطي في العراق ستؤدي الى تسرب اشعاعات من النموذج الجديد الى دول المنطقة. ومنهم من رأى ان استكمال الانقلاب الكبير يستلزم أيضاً استدعاء طرفي النزاع الفلسطيني - الاسرائيلي لإنهائه بعد «انضاج» موقف الجانب الفلسطيني بتغيير الوجه والأساليب.

راهن بعض مهندسي الحرب على نصب مفاعل للديمقراطية على ضفاف دجلة. صناديق

اقتراع وحريات وانتخابات وتداول السلطة وفصل بين السلطات وشفافية ومحاسبة وتعندية انتماءات في ظل القانون.

وبعد شهر على سقوط نظام صدام يمكن القول ان هذا الحلم تبخر أو هو في الطريق الى هذا المصير. البيئة العراقية ليست جاهزة لاعتناق تصور من هذا النوع ولا هي مستعدة. لا مجلس الحكم يعد بقيام هذا النموذج ولا اللياقات المنددة به. كان الحلم جميلاً وبعجلاً.

من حق المتابع لشؤون العراق وشجونه، ان يخشى ان يكون الوضع العراقي الجديد منخلاً لاضطراب كبير في المنطقة. كأن ينصب على ضفاف دجلة مفاعل لا يرسل اشعاعات الديموقراطية والتعددية والتعايش، بل اشعاعات الطلاق والتناحر وخطوط التماس للدامية على الحدود المفخخة للعراق والمذاهب.

نفهم ان تنتقد جهات عراقية مجلس الحكم الانتقالي لأنه ولد في ظل الاحتلال وفي غياب أي دور عراقي على ساحة ما بعد صدام حسين. لكن ان ينتقد المجلس بسبب نسبة الأكراد فيه، فهذا يعد بأيام غير سارة. وان ينتقد لارتفاع نسبة الشيعة فهذا ينذر بما هو أدهى. وان يعلن مقتدى الصدر، أمام من يلبسون أكفانهم، انشاء «جيش المهدي» للدفاع عن الحوزة مطالباً بأن تكون مرجع العراقيين فلا بد من الالتفات الى المخاوف. وان يتم التنكير بالنسب السكانية والمذهبية تحت الاحتلال، فإن الأمر مدعاة للقلق.

لا شيء يوحى بأن المفاعل الذي حلم الاميركيون بزرقه لانتاج الديموقراطيات قابل للقيام أو العيش. والخوف هو ان لا ترحم القوى العراقية العراق فتتسبب في زرع مفاعل التشرنم ورفض الآخر ومحاولة تحصين «الجزر العراقية». لا بد من الانتظار فما يجري على ضفاف دجلة يفتح الباب لكل أنواع المخاوف.

الحياة ٢٠٠٣/٧/٢٠

## العراق محتلاً

### محاولة للفهم .. مسعى للتحرر

سليم عبد الأمير حمدان



ما يزال البعض لا يصدق، أو يدعي أنه لا يصدق، أن ما جرى في العراق منذ ٩ نيسان الماضي هو عملية احتلال، رغم تمدد «المحررين» الأنكلو أميركان - وإن شئنا النكبة الأنكلو ساكسون، حيث أن مع ما يسمى بقوات التحالف عدداً من الأستراليين أيضاً - عدم محاربة أعمال القوضى والتخريب والسلب والنهب في العراق مع ابتداء «التحرير». ومع انضاح دور قوات التحالف في إثارة وترسيخ الشقاق بين القوى السياسية العراقية المختلفة وما نشأ، وينشأ عنه، من تأخير قيام حكومة مؤقتة تأخذ على عاتقها الدعوة لانتخاب مجلس تأسيسي أو مؤتمر وطني لإحداث التغييرات اللازمة في العراق، تحرص تلك القوات على حراسة النفط ومنشآته لتأمين ضخته سريعاً، في حين أعلن حاكم العراق المدني - بريمر - حل الجيش العراقي!

إنه احتلال، بأبسط التعابير ويلقها في الوقت نفسه.

وقد استند هذا البعض في رفضه التصديق، أو في تشكيكه على الأقل، إلى مسألتين، كلتيهما

صحيحة، إلى حد - وهو حد كبير فعلاً:

١ - لقد كُتبت الولايات المتحدة فرصة احتلال العراق بعد انتهاء حرب النفط الثانية (أو الخليج

لثانية، أو تحرير الكويت)، ولكنها لم تفعل.

٢ - إن النفط - والاستحواف عليه مبرر الاحتلال عند من يرون ما جرى احتلالاً واضحاً

صريحاً - ملعة تباع وتشتري في الأسواق، فهي بالتالي لا تحتاج إلى تجيش الجيوش وإنفاق مليارات الدولارات<sup>(١)</sup> من أجل الحصول عليها.

وعلى هذا، فلابد من توضيح هاتين المسألتين قبل الانتقال إلى ما نريد بهما من حديث.

#### بوش الأب - صدام

صار من نال للقول إن الإدارة الأمريكية في زمن بوش الأب خشيت احتمال نظام «إسلامي» زعماً، أو شعبي حقاً، في العراق سنة ١٩٩١، ولذلك لم تسمح بـ«ذهابي إلى القصر الجمهوري لأخذ توقيع صدام حسين على استقالته» - حسب تعبير جلال حملة تلك الأيام: نورمان شوارتزكوف، وإنما قامت بعكس ذلك بالضبط: سمحت لطاغية العراق بسحق انتفاضة شعبية قائمة

(١) حوالي ٣٠٠ ألف عسكري، ما يقرب من ١٠٠ مليار دولار.

كانت ستحق «تحرير» العراق من الطاغية! إيماناً منها بأن الطاغية هو الكفيل بإبعاد مخاطر تلك الانتفاضة، التي هي أكثر تنفيراً للولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة من الطاغية ونظامه. (ونكتضينا الموضوعية أن نعتزف بأن الانتفاضة العنيفة بالأسلحة أسوء استخداماً لها بشكل سوغ للإدارة الأمريكية — بعد التضخيم طبعاً — ذلك التصور، ومن ثم الموقف الذي اتخذ بناء على ذلك التصور، فالسلوك الناتج عنه. ولكن إساعة الاستخدالم تلك لم تكن السبب الوحيد في تلك التدايعات).

ومتلما هو صحيح أن النفط ملعة تباع وتشتري، ويمكن لكل من يدفع ثمنها أن يحصل عليها، فالصحيح أيضاً أن أكثر من ٤٥% من صادرات النفط العراقي قبل حرب النفط الثانية ولتأءاءها كان يصدر إلى الولايات المتحدة، رغم للشعارات الثورانية وفوق الثورانية والقومانية، وفوق القومانية، التي كانت تطلقها النكتورية... فما الذي كان سيدفع للولايات المتحدة إلى مواصلة الحرب على نظام كهذا — بل إسقاطه — وهو يوفر تدفق النفط الرخيص بهذه الاسيانية الوافرة إليها؟

الذي جرى بعد ذلك هو قلب هذه الصورة، مع أنه يمكن تفسيره بأن نظام المصابة التي كانت متسلطة على العراق كان مضطراً إلى ذلك للتخلص من مصاعب الحصار الذي فرض على العراق (لا النظام، وهذه واحدة من مفارقات قرار الحصار وتطبيقه).

أنسف إلى ذلك أن الإدارة الأمريكية قد تخطى، مثلها مثل أية إدارة بشر أخرى، وقد أخطأت — كما وجئت في حسابات لاحقة — في عدم احتلالها العراق آنذاك، وهاهي تقوم بتصحيح ذلك الخطأ الآن. ولا ينبغي، بأي حال من الأحوال، أن نربأ بالولايات المتحدة عن خطأ الحسابات أو نبرئها منه، فقد رأينا أغلاطها الجمة في الاحتلال الراهن، مع أنها ظلت تطبخه على نار هادئة منذ أكثر من عشر سنوات، وفي احتلالات أخرى (ولعل مرأ يقول: إن غلطها الأول هو الاحتلال ذاته، ووفق حساباتها هي بالذات).

كما يجب ألا ننسى اختلاف المصالح والرؤى داخل الإدارة الأمريكية، والتوجه اليميني للتيار الذي تغلب في الإدارة الأمريكية الراهن، والذي يريد تنفيذ رؤيته عن الخريطة الجديدة للمنطقة العربية.

### مخالفات العراق

ارتكبت نظام العصابة كثيراً من المخالفات التي استقرت الإدارة الأمريكية، وحسنت رأيها في إسقاطه<sup>(\*)</sup>، وكان أهم تلك المخالفات هو ما جرى في مجال النفط بالذات:

\* فقد باع العراق نفطه إلى دول «مارقة» لا تحبذ الولايات المتحدة البيع لها، وأهدى نفطاً إلى دول «شرعى الإرهاب».

\* باع العراق ٤٤ مليار برميل من النفط إلى شركات غير أمريكية وغير بريطانية.

\* وقع العراق عقوداً مع شركات عالمية، ليست أمريكية ولا بريطانية، لتطوير استخراج النفط

(\*) دون أن يعني ذلك وطنيته أو قوميته، بل مناورة منه في ما تصوره هامشاً متروكاً له، ومحاولة — في الوقت نفسه — للحصول على حصة أكبر مما كانت تسمح له به الإدارة الأمريكية من عائدات النفط.



العراقي، كانت أهمها عقود مع شركة توتال الفرنسية لتنمية حقول نفط جزيرة مجنون ونهر عمر، والتي تضم ما يقدر بـ ١٨ مليار برميل، ومع شركة لوك الروسية، لتنمية حقول القزنة، التي يقدر موجودها بـ ١٥ مليار برميل، عدا عن عقود مع شركتي الصين الوطنية وليني الإيطالية، التي تعتبر «مفكة» أمام الحقلين المذكورين أعلاه.

### أسباب أمريكية

وفي هذه الأسباب، نجد النفط في القلب مرة أخرى:

\* في الشرق الأوسط ٧٠% من احتياطي النفط العالمي.

\* تشكل حصة بلدان أوبك ٥١% من الإنتاج النفطي العالمي.

ودور العراق في الاثنيتين: المنطقة والمنظمة، يكاد لا يحتاج إلى بيان. ويكفي أن نقول إن احتياطي النفط العراقي أكبر احتياطي في العالم، رغم توقف الاستكشاف منذ سنة ١٩٩٠.

ومع بقاء النفط مصدر الطاقة الرئيس في العالم<sup>(١)</sup>، فقد ارتفع الطلب عليه من سنة ١٩٨٥ إلى سنة ٢٠٠٠ بمقدار ٣,١ مليون برميل يوميا، أي بنسبة ١٧%، ويستند الخبراء أن الزيادة قفزت بين سنتي ٢٠٠٠ و ٢٠٠١ إلى ٢٠ مليون برميل يوميا!

ولكن الأهم من ذلك كله أن الولايات المتحدة – التي تعتبر النفط والطرق المؤدية إليه وطرق تصديره حاداً من حدود الأمن القومي الأمريكي – تسعى من وراء تأمين النفط لنفسها احتكاره لتحقيق أهداف استراتيجية عدا الأهداف الاقتصادية المجردة – على ضخامة هذه الأهداف. ولم أوضح هذه الأهداف الاستراتيجية:

\* إضعاف موقف اليابان وأستراليا وكندا، وكل الدول الأوروبية التي لا تمتلك نفطاً فهي تستورده حالياً، أو التي سينضب نفطها عن قريب وستستورده مستقبلاً، وتقليص استقلالية قراراتها.

\* وتشديد الضغط على روسيا، عن طريق التلاعب بأسعار النفط الخام، وفرض السياسات الأمريكية عليها عن طريق تهديدها بالإفترار عن طريق خفض أسعار النفط العالمية.

\* وأخيراً، وإن لم يكن آخراً، إحكام القبضة الأمريكية على مقدرات الدول الأعضاء في أوبك، إضافة إلى أوبك ذاتها بالطبع، لضمان سيرها في الخط الأمريكي المطلوب.

### أمور داخلية

ولكن قبل هذا وذلك – وربما فوق هذه الأسباب جميعاً – جاء الاحتلال الأمريكي في زمن يتميز فيه الواقع الأمريكي بما يلي:

(\*) للولايات المتحدة دورها في هذا الأمر أيضاً، ولكن ذلك يستحق بحثاً مستقلاً.

- ٤١ مليون مواطن بلا ضمان صحي.
  - ٣٣ مليون مواطن عند خط الفقر أو دونه.
  - ١٣ مليون طفل يمانون من نقص التغذية أو سوءها.
  - ٣ مليون مواطن بلا مأوى.
  - ١٣٣ مليون مواطن يتعرضون لتلوث الهواء في مناطق سكنهم.
  - ١٥٩ مليار دولار عجز في الميزانية.
- وهكذا، وجد شعار «من ليس معنا فهو ضدنا»، الذي يعتبره المفكر المصري سيد يس فاتحة عهد تقنين الهيمنة، أو البيان الإمبراطوري الجديد، لا أرضية صالحة تبرر إطلاقه فقط، وإنما مبررات وضعه موضع التطبيق أيضاً. بهذا صار ما أطلقه الرئيس بوش الابن، وما فسرتة مستشارته للأمن القومي بعد إطلاقه إياه بوقت قصير، سياسة تجرب وممارسة تُقرض.
- وعلى كل حال، فقد حسنت الولايات المتحدة بنفسها المعاملة، حين تقدمت إلى مجلس الأمن بمشروع لقرار الذي استحصلت ختمه عليه، ليصير لقرار ١٤٨٣ مطناً لن العراق وقع تحت الاحتلال.

### بين احتلالين

أجرى بعض المحللين والكتاب مقارنات بين الاحتلال البريطاني في أوائل القرن العشرين والاحتلال الأمريكي الراهن مع مطلع القرن الحادي والعشرين، للعراق. وكان أهم ما لفت أنظارهم هو أن طبخة الاحتلال البريطاني بقيت سرية في مراحل تحضيرها وحتى في تطبيقها الأول، ولم تكشف إلا بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا، بينما كان الاحتلال الأمريكي للعراق موضوع بحث عمومي في وسائل الإعلام المختلفة طوال سنين بحيث استفادت الإدارة الأمريكية من المناقشات التي جرت بشأنه لإجراء التعديلات الضرورية على التنفيذ!

كما لاحظوا أيضاً أن الاحتلال السابق كان محمياً بالذهب الآخي، المباشر، فقط، بينما يريد الاحتلال الأمريكي الراهن أن تمتد جذوره بعيداً في الأعماق، ولذلك فمن بين «الإصلاحات» التي يريد إدخالها في العراق – والمنطقة طبعاً – إجراء تغييرات في الواقع الثقافي والعملية التربوية، غير مستثن من ذلك الدين نفسه!

ولعلني أضيف فارقاً آخر هو أن احتلال القرن العشرين، الذي نجم عن سقوط الإمبراطورية العثمانية أدى إلى نشوء دول قومية صغيرة في أوروبا، بينما فتح احتلال القرن الحادي والعشرين شهية دول هامشية وصغيرة لتعبر عن مطامعها، في العراق وثورته بشكل خاص. فقد رأينا بريطانيا وإسترااليا تشاركان في الحرب عملياً، بينما فتحت تركيا سجلاتها القديمة لتبحث «أحققتها» القانونية في المطالبة بضم كركوك والموصل! (فقط يا ترى!!)، وعندما لم تجد استجابة امتنعت عن التعاون المطلق في المجهود الحربي.

### كوة للأمل

لقد مر العراق منذ تاريخه القديم بفترات احتلال و/أو تسلط متعددة، استوعبها وتغلب عليها جميعاً. وقد سجل الدكتور عبد الوهاب حميد رشيد، في كتاب جديد له لم يصدر بعد، احتلال الفرس

الأخمينيين والسلوقيين المقدونيين ثم الفرس الساسانيين فالترك<sup>١</sup> عثمانيين والإنكليز من بعدهم، وذلك منذ سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، إلا أن ذلك كله إزاحة للشعب للعراقي وقضى عليه. ولا تنسى أن العراق وقع — إضافة إلى ما تقدم — تحت النفوذ التركي فالبيويهي — الفارسي ثم السلجوقي — التركي على نحو متصل منذ سنة ٨٦٢ لغاية ١١٥٥ ميلادية، ولكن ذلك لم يمنعه من الخروج من التجربة أكثر عزماً وتصميماً على الحفاظ على استقلاله.

ولعل ما يلفت النظر في هذه التجارب الطويلة أن الحكم البريطاني المباشر لم يدم أكثر من خمس عشرة سنة في منطقة من العالم لم يكن سكانها يعتنون شعباً وإنما مجموعات قبلية — عشائرية، يسود التناحر بينها أكثر مما ينتشر التقاوم. فكم سيدوم الاحتلال الأنكلو سكسوني يا ترى؟!

### لنجعلها بوابة

سيبقى هذا الماضي للمجرد مبعث فخر، شأنه شأن الكثير مما نفخر به، عراقيون وعرب، من أمجاد الماضي، ذلك الفخر الذي يزيد في كوارثنا، إذا لم نسع إلى تعزيزه بتحرير جديد.

والتحرير الجديد في هذه المرحلة لا يعني قط خروج قوات الاحتلال فوراً، فذلك يخدم طغمة حفاري القبور الجماعية لساقطة أكثر مما يخدم العراق، وإنما بناء أسس العراق الجديد الذي تصير تلك الطغمة على دهمها، لتحقيق وعد رأسها الهارب المهزوم الذي أطلقه منذ نحو ربع قرن!

وما يبرق العمل على بناء هذه الأسس ليس ما تفعله فلول تلك الطغمة فقط — وهي تأمل في استرجاع تسلطها القمعي، وإن ضلّت قليلاً الخسران للجميع — وإنما الموقف غير المبالي والمجرد من الشعور بالمسؤولية، الذي وقفه ونفقه بعض الأحزاب والقوى السياسية العراقية، أيضاً، وهو موقف لا يقتصر على الأحزاب حديثة التكوين قليلة الخبرة، مع الأسف.

لقد غدا واضحاً إخفاق هذه الأحزاب والقوى حتى الأسس القريب في اتخاذ موقف موحد وصارم من عقد مؤتمر وطني عراقي يقرر استراتيجية العمل في مرحلة الاحتلال ويضع أفاق المرحلة التالية لها، ويهيئ لانتخابات حقيقية تنبثق عنها حكومة مؤقتة تدير أمور البلاد اليومية حتى انتهاء سلطة الاحتلال، وبعد مسودة دستور عراقي يجري الاستفتاء عليها، ثم إجراء انتخابات وفقاً له تقوم نتيجة لها حكومة تشكر قوات التحالف على إزاحتها الحكم الدكتاتوري وتطالبها بمغادرة البلاد، كي يرى العراق — لأول مرة في تاريخه — حكماً «أهلياً» حقيقياً، وديمقراطياً حقاً.

إن سلطة الاحتلال لن تخرج رغبة متطوعة، مادام الاحتلال يحقق لها أهدافها الاستراتيجية، بل لابد من إقناعها بضرورة الخروج، ومن يكون أكثر إقناعاً من صف موحد وراء برنامج موحد، يستبد، ولو أنياً فقط، أحلام التمسيد والاستئثار؟

## العراق:

### الاندماج والسياسة

محمد سيد رصاص

دفع شيعة العراق ثمناً كبيراً عندما أقصتهم إنكلترا عن مركز النفوذ في الدولة العرفية الحديثة المقامة عام ١٩٢١ نتيجة لقيادة علماء النجف ثورة ١٩٢٠، ولم يكن تفضيل لندن سنة العراق أتياً فقط من أسباب عراقية، وإنما امتد الأمر إلى نوع من الارتباط مع سجل اصطدام بريطانيا بالمرجعيات الشيعية الإيرانية أثناء فتوى مقاطعة التتباك في فارس بعد احتكار شركة إنكليزية له (١٨٩٠) ومع تعارضهما في الثورة الدستورية (١٩٠٦ - ١٩١١)، وذلك في وقت كان الفاصل بين انقلاب رضا بهلوي في طهران (شباط ١٩٢١)، «معادي للمرجعيات الدينية والموالي لبريطانيا، وتتصيب الملك فيصل على عرش بغداد لا يتجاوز السنة أشهر.

كان ذلك لعباً إنكليزياً بين المكونين الرئيسيين لمجتمع كان «الاندماج المجتمعي» هو عنصره الرئيسي، قبل أن يطل العامل الكردي برأسه عام ١٩٦١، حيث لعبت عوامل الحسابات البريطانية، حيال أتاتورك في الشمال والفرنسيين في الغرب وابن سعود في الجنوب، الدور الرئيسي في تكوين تلك الدولة الممتدة من زاخو إلى الفاو، وليس الاندماج الذاتي للمكونات الداخلية لتلك الرقعة الجغرافية.

كان هذا ظاهراً من تبوّء السنة للمراكز الرئيسية في الإدارة العثمانية، وما انعكس من ذلك في الاجتماع حيث كانت العائلات الأبرز في الاقتصاد والمجتمع داخل بغداد سنّية مع استثناءات شيعية قليلة كانت موجودة في ضاحية الكاظمية أنت ثروتها من إدارتها مقام الإمام الكاظم ومن الحجيج الإيراني للمنطقة وما استتبعه من تجارة، بينما كان المالكون في لواء البصرة من السنة فيما المزارعون من الأكثرية الشيعية، الأمر الذي ينطبق على منطقتي الناصرية والحلة، وهو ما كان بدوره يأخذ شكلاً طبقياً - دينياً في لواء الموصل بين الملاكين المسلمين ومزارعيهم المسيحيين، فيما كان في أربيل موزعاً بين التتركان الأثرياء والأكراد الفقراء، وفي كركوك بين التتركان ومزارعيهم وورعاتهم العرب.

كانت سيطرة السُنة على المراكز الرئيسية في العراق الملكي حصيلة سياسية لتلك اللوحة الموروثة عن العثمانيين والتي أتى الميل البريطاني ليعطي سفيتها الرياح المطلوبة، وقد تبرز ذلك مع حقيقة أن معاونين الرئيسيين للملك فيصل كانوا من الضباط العثمانيين الملتحقين بالهاشميين (نوري السعيد، جميل المدفعي، علي جودت الأيوبي، ياسين الهاشمي، طه الهاشمي)، الذين أتوا من سنة العراق العرب، وهم جميعاً تولوا منصب رئيس الوزراء، إضافة إلى من أتى من سنة بغداد من عائلات (السويدي، الكيلاني، الباججي)، وسنة الموصل (العمري) والبصرة (السعدون)، ممن يمكن عبر أسمائهم تأريخ حقبة العهد الملكي، والذي مثل سقوطه عام ١٩٥٨ بداية صعود الريف والبلدات الصفرى بالعراق على حساب العاصمة والمدن الكبرى ووجهاتها واغنيائها، وهو ما يدخل ضمن موجة عمت المنطقة الممتدة بين الجزائر وطهران، ابتدأت مع عبد الناصر وانتهت بالخميني، وهو تطور لا يمكن عزله عن فشل السلطات السابقة في حل المسألة الزراعية على امتداد تلك المنطقة.

أنت المحاولة الأولى لتوحيد هذا الركام المجتمعي من جانب شيعي بغداد، هو (جعفر أبو التمن)، عبر تأسيس (الحزب الوطني العراقي) عام ١٩٢٢، من خلال برنامج رافض للانتداب ومطالب بالاستقلال، وقد كان لاقاً للنظر أن السياسيين للذين شرعاً بالتقاعد عن الأسرة المالكة والاقتراب من العربيين بعد معاهدة ١٩٣٠، أي ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني، كانا على علاقة وثيقة مع هذا الحزب قبل أن يشكل «حزب الإخاء الوطني» في الثلاثينات، فيما أتى زعيما «حزب الاستقلال»، الذي تشكل كحزب عروبي عام ١٩٤٦ بعد فشل «حركة عالي الكيلاني» عام ١٩٤١، أي محمد مهدي كبة وفائق السامرائي، من حزب أبي التمن، وهما شيعيان مثله.

وما يلتفت النظر أن هذين الحزبين، اللذين حاولا تقديم جامع وطني للعراق ضد بريطانيا، قد فشلوا في أن يكونا رافعة سياسية في العشرينات والثلاثينات على التوالي، بخلاف «حزب الوفد» المصري و«الكتلة الوطنية» السورية، فيما لم تستطع حركة الكيلاني، التي استقطبت تأييداً شيعياً مرموقاً إضافة إلى السنة، أن تتجح لتتكسر على الحائط البريطاني بعد مراهناتها على الألمان، فيما كان حزب الاستقلال وريثاً لحركة عروبية مهزومة أمام البريطانيين والهاشميين. على هذه الخلفية أنت «جماعة الأهادي» عام ١٩٣١، لتحوي داخلها جنيهاً لاتجاه شيوعي قوي، أتى زخمه من فقدان الاجتماع القوي للاتجاه الوطني مع الليبرالية، كما في مصر مع «الوفد» أو في سوريا مع «الكتلة» وبعدها في «حزب الشعب»، وهزيمة التيار العروبي بالعراق عام ١٩٤١، وكذلك من فشل كامل الجادرجي وحزبه «الوطني الديموقراطي» في تشكيل اتجاه اشتراكي ديموقراطي مع ملاحج ليبرالية، وهو الآتي بالأصل من «جماعة الأهادي»، وذلك في مجتمع لم تكتمل فيه معالم التحديث والتصنيع.

كان نمو الحزب الشيوعي العراقي، الذي أخذ لبعداً قوية بين ١٩٤٢ — ١٩٤٨، مبنياً على قاعدة عمالية ظهرت مع بدايات الصناعة ومنشآت النفط ومصالحه السكك الحديد، إلا أنه اعتمد أساساً على الفئات الوسطى في المدن التي وجدت نفسها في حالة من فراغ القوة مع فقدان

وجود الاتجاه الوطني الجامع للعريض، ومع هزيمة القوميين في ١٩٤١، ثم ليأتي رافد قوي لنموه مع انضمام غالبية حزب «رزكاري كرد - التحرير الكردي» إلى الحزب الشيوعي في عام ١٩٤٦، وهو ما ترافق مع انهيار جمهورية مهاباد الكردية بإيران ولجوء الملاّ البارزاني إلى موسكو: رغم ذلك وإضافة إلى ما مثله الشيوعيون من أول محاولة حزبية جامعة لأكراد العراق لطائفية ولقومية وحتى الدينية مع المسيحيين واليهود، فإن النمو الفعلي للحزب في الخمسينات، الأمر الذي أخذ أبعاده الكبرى في فترة الصعود بين عامي ١٩٥٩ - ١٩٦١، قد بيّن رجحاناً عندياً كبيراً للشعبة والأكراد في الجسم الشيوعي وضعفاً للحزب في المدن السنية العربية (الموصل، الرمادي، تكريت) وكذلك في أحياء بغداد السنية، ليأتي يوم ٨ شباط ١٩٦٣ ليبين مدى انقسام الشيوعيين والبعثيين الجغرافي بين الكاظمية والأعظمية من مناطق بغداد، رغم للصورة المعاكسة في قيادة الحزبين، للسنة وللشعبة، مما لم يكن يعكسه جسمهما التنظيمي وقاعدتهما الاجتماعية.

يؤكد ذلك واقع أن بداية العد النزولي لقوة الشيوعيين بعد نزوة ١٩٥٩ قد ترافقت مع استعادة التيار القومي قوته مع البعث منذ ذلك التاريخ، ومع نشوء حزب الدعوة عبر مؤتمره التأسيسي عام ١٩٥٩ (لم يكن صدفة أن كتابي مؤسس الحزب، السيد محمد باقر الصدر، أي «فلسفتنا» و«اقتصادنا»، قد كانا محاولتين مسجالتين ضد الماركسية، أساساً)، ومع التمرد الأول للملاّ البارزاني ضد عبد الكريم قاسم في أيلول ١٩٦١ وبداية استقطابه غالبية الجسم الكردي، وهو شيء لم يكن «البارتي» قادراً على ادعائه قبل هذا التاريخ حيال الشيوعيين. صحيح أن الحزب الشيوعي قد استطاع لملمة جراحه بعد المجزرة التي حصلت له في ٨ شباط واستعادة شيء من قوته معتمداً على جذوره الاجتماعية، إلا أن مفاعيل قوة البدائل الثلاثة (البعث، الدعوة، البارتي) هي التي تفسر ضعف الشيوعيين في السبعينات والثمانينات، بعدما أخذت الأمور أبعادها، الأمر الذي يمكن أن تلخصه حقيقة تحول حي الثورة في بغداد، وهو الذي أنشأه قاسم لاستيعاب الآتين من الجنوب، من قاعدة للشيوعيين إلى معقل لحزب الدعوة في أواخر السبعينات.

قنمت حرب ٢٠٠٣ صورة قوية عن تضرر المجتمع العراقي، عندما وقف هذا الأخير في موقف أقرب إلى الحياد - وعند بعض مكوناته رواح الموقف من الحياد الإيجابي إلى الترحيب - حيال الغزو الأميركي للبلد، وهو ما يتناقض مع مقاومة العراقيين وممانعتهم حيال الغزو الإنكليزي في فترة ١٩١٤ - ١٩١٧، الأمر الذي لا يمكن عزوه فقط إلى ما فعله الديكتاتور بالمرق. فيما توحى صورة ما بعد الحرب بثبات ذلك الثالوث كإطار رئيسي للوحة السياسية العراقية، ولو مع اختفاء السلطة ليحل محلها التنظيم الإخواني، أي «الحزب الإسلامي العراقي»، في مركز القوة بالموصل وأحياء بغداد السنية (وما أظهرته حادثة مدينة الفلوجة)، فيما انقسم نفوذ (البارتي) القديم بين البارزاني والطلاباني، فيما تتوزع الشيعة ثلاثة قوى دينية: «التيار الصدري» كوريت لقوة الصدر الأول (السيد محمد باقر: أعدم في نيسان ١٩٨٠)

والثاني السيد محمد صادق الصدر (اغتل في شباط ١٩٩٩) ولحزب الدعوة في مواجهة «الحوزة» بالنجف، وضد «المجلس الأعلى» الذي يقترب زعيمه كثيراً من إيران وإن كان يجد نفسه أمام قوة «الصدريين» مضطراً للاحتماء تحت عباءة «الحوزة» التي نأت بنفسها كثيراً عن «ولاية الفقيه» والخطمي.

لا يناقض ذلك ما جرى في أربعينية الحسين، وإنما يؤكد من حيث كونه استعراضاً فنوياً للقوة، ولو من طائفة عانت الغبن والتمييز طوال لثتين وثمانين عاماً من عمر العراق الحديث، حتى وهو يقول بـ «الوحدة الإسلامية»، التي من الواضح أن شيعة العراق المعاصرين لن يقبلوا بأقل من عربة الدرجة الأولى في قطارها، وإن كان من الواضح أن الأمور لن تصل عندهم إلى درجة احتكار السنة للسلطة في القرن العشرين.

من غير المحتمل أن يقود ذلك إلى تكرار سيناريو طهران ١٩٧٩، نظراً إلى العوامل الدولية والإقليمية، وكذلك بسبب التركيبة المجتمعية العراقية، وربما كان المرجح هو الاتجاه إلى «طائف عراقي» في ظل رعاية دولية وإقليمية، خصوصاً إذا استمرت، وهذا ما نوحى به المؤشرات، للوحة السياسية العراقية بالتوزع بحسب هذه المجاري الثلاثة للمكونات، من دون أن تقدم مؤشرات على تجاوز ذلك في اتجاه فرز اتجاهات وطنية جامعة تملك القوة على الهيمنة داخل هذه اللوحة، سواء أكانت ليبرالية أحمد الجلبي وكنعان مكية أو عدنان الباجي، أو يسارية الشيوعيين، أو قومية عربية فشلت في تجاربها. ؟

محمد سيد رصاص: كاتب سوري

## لعبة سياسية جديدة في العراق المحتل

دافيد باران (\*) David BARAN

وفقا للإدارة الأميركية التي تحب الإعلانات الطنانة فإن عودة النظام إلى العراق قد بدلت ولن يتأخر تشكيل حكومة انتقالية، كما استعاد إنتاج الكهرباء معدلات ما قبل الحرب وواصل رجال الشرطة وغالبية الموظفين أعمالهم كما أعادت الجامعات والمدارس فتح أبوابها وأعيد تشكيل منتخب كرة القدم العراقي. لم يبق سوى تنظيم بطولة لكرة المضرب في بغداد وهذا ما لم يتردد نادي اللطوية للراقي القائم بجانب فندق فلسطين في تنظيمه تحت أنظار الصحافيين الأجانب.

من العراق يتبين أن هذه صورة مخادعة. فانفلات الأمن هو السائد أكثر من أي إدارة جديدة، والنهب متواصل في العاصمة، في وزارة الإعلام مثلا أي على بعد 200 متر فقط من مركز قيادة القوات الأميركية. آلاف عناصر للشرطة الذين استأنفوا أعمالهم حتى اليوم غير ظاهرين للعيان تقريبا فيما يتناقل للشارع أخبارا مثيرة للقلق: اغتالات وسط الطريق، اغتصاب داخل المنازل واختطاف أولاد. كلفة الحياة ترتفع والأجور لا تكفي فيما تستنفد المؤونة من المواد الغذائية المخزنة قبل الحرب في بعض الأحياء، والوقود نادر وكذلك الغاز المنزلي للضروري لأعمال الطبخ.

ما هي إذا الاستراتيجية الأميركية في هذا البلد الذي انهار اقتصاده ومؤسساته تماما بعد الاجتياح وبعبارة كان نظام صدام حسين قد عبث بها وحولها عن أهدافها؟ بعد مرور شهرين على سقوط بغداد يبقى السؤال بلا جواب، والعراقيون مضطرون لتخمين هذه الاستراتيجية من دون أن يوضحها أحد لهم. والالتباس قائم بين سكان يعتبرون أنفسهم ولقعين تحت الوصاية الأميركية وقوة



الاحتلال التي تعتقد أنها نغزت الجزء الأساسي من مهمتها.

واقع الحال أن الاستراتيجية الأميركية تراهن على تشكيل حكومة انتقالية تضطلع بمهمة تلبية حاجات المواطنين وإيجاد الحلول للعديد من المشكلات الثقيلة على أن يقتصر الوجود الأميركي على الاحتلال العسكري من جهة والإشراف على المفاوضات الآيلة إلى تشكيل الحكومة الجديدة من جهة أخرى. يتحول هذا الوجود العسكري والسياسي في وقت لاحق وبشكل تدريجي إلى وجود اقتصادي خلال مرحلة إعادة الإعمار التي سوف تطاول البنى التحتية المحلية كافة.

وتفترض هذه السياسة البعيدة المدى نوعاً من السلبية لدى المواطنين كأنهم كتلة رخوة يسهل تطويعها. لكن هؤلاء المواطنين الذين تركوا لأنفسهم في مواجهة القوضى، سعوا إلى التنظيم الذاتي من دون انتظار المفاوضات البطيئة بين الإدارة الأميركية وأحزاب المعارضة العائنة من المنفى. وقامت بعض الشخصيات الدينية والقبلية المبعدة عن هذه المفاوضات بالحلول محل جهاز الدولة البائد. ففي ما يتعدى فراغ السلطة تأتي هذه المبارلات كرد على «فراغ المعنى». فماذا يحدث خارج الحلقة السياسية الضيقة التي تسترعي انتباه واشنطن ووسائل الإعلام ولا يهتم لها العراقيون؟

بعدما تنزعت بأسباب عديدة لمهاجمة العراق رمت واشنطن على اعتبار تدخلها العسكري بمثابة «حرب تحرير»، لكن لا أحد يصدق نبل النيات الأميركية والجميع يعتقدون أن وراء ذلك كله الدفاع عن مصالح واشنطن، فقوت التحالف لم تأت لـ«تحرير» العراق بل لاحتلاله والسيطرة على ثرواته. لكن الخلاف في التصور ينشأ من الفوائد الممكنة جنياً من وراء احتلال الأمر الواقع هذا.

قلة في الحقيقة تبدي نقالاً لا يلبين وترى المستقبل دائماً أفضل مما كان يقمعه صدام حسين. وهم يتذوقون طعم الحرية التي يدينون بها للأميركيين ولا يبدون قلقاً إزاء الإمبريالية التي يدركون ما هي عليه: «منعطيهم البترول، فنحن في كل حال لم نكن نستفيد منه في الماضي». ولا يهم إن كانت الحكومة المقبلة تابعة لواشنطن طالما توقف القمع والحروب والحرمان.

بالطبع لا تتناسب هذه الفئة مع الذين تعرضوا للقمع قبل الحرب، فمن بين السعداء اليوم عدد كبير من الذين ابتعدوا منذ زمن طويل عن السياسة، وغيرهم ممن أقاموا علاقات وثيقة طوعاً أو غصباً مع النظام. وبالعكس فإن فئة العراقيين المرتابين وحتى المستائين لا تنمأ في الضرورة مع النظام البائد. ففي بغداد مثلاً إن غالبية سكان مدينة الثورة الشاسعة المعروفة بمدينة صدام والتي أعيدت تسميتها مدينة الصدر (الإمام المعروف الذي اغتيل في العام 1999) يصلون إلى خلاصة غير متوقّعة وهي أن «الأمر كان أفضل في الماضي».

فهناك فئة كبيرة من السكان معنية بتأمين معيشتها اليومية، تتطلع إلى سقوط النظام من وجهة المصاعب المادية ونفقات حبل الأمن الذي نتج من هذا السقوط، وبهذا المعنى كانت تعيش في الزاوية «الأفضل» في زمن كان على الأهل «يمكن الخروج من البيت من دون التعرض للخطر». فكيف لهؤلاء أن يؤمنوا بغد أفضل طالما أن شروط حياتهم تتراجع؟ وكيف يقتنعون بنبل مقاصد التدخل الأميركي التي لا تزال تنتظر منه فولد ملموسة لئلا تكن هذه الفوائد؟ الشعور العام هو على

العكس أن «الأميركيين لا يفعلون شيئا».

بالفعل فإن الأسلحة تباع وسط الشارع ويغير الأكراد من دون عقاب على المدن العربية في شمال شرق البلاد في وقت يشن سكان مدينة الثورة غارات انتقامية في المجمعات البعثية للقائمة في المسيب والاسكندرية. المشكلات الأيسر لا تجد حلا، بما يتعارض مع القدرات الهائلة التي برهن عنها الأميركيون خلال الحرب، مخلفين الانطباع بأنهم قادرين على كل شيء شرط أن يرغبوا في إنجازه. إن سلبيتهم الظاهرة منذ سقوط بغداد تثير التساؤل العام.

شيئا فشيئا تشبه سياسة الأميركيين سياسة صدام وينظر إليها على أنها امتداد لها. ففوات الاحتلال تحصنت في مواقع للنظام السابق وأماكن ترفه حيث تقيم نظاما غير شرعي، محاصرا ومهتما فقط بالدفاع عن مصالحه الخاصة. وتلجأ هذه السلطة إلى القمع من دون تمييز في مواجهة أي تمرد. ترسم إذن أمام أعين العراقيين صورة نظام لا يحبب أعداءه بل يقتلهم ويمش في الرخاء خلف حصونه مرتكزا على نخبة اختارها وهي تابعة له تحتكر موارد البلد ولو بقي المواطنون يعانون الحاجة.

هكذا يرى المدنيون في أزمة المحروقات سياسة مقصودة وخصوصا أن البنية التحتية النفطية لم تتعرض للدمار مما يؤدي إلى خلاصة الحرمان المعتمد والذي كان صدام حسين يحسن استخدامه. ويعبر أحد الأمثال الشائعة هذه الأيام عن العودة المفترضة إلى الأساليب القديمة: «ذهب التلاميذ وحضر الأستاذة». والمفارقة أن الوجود الأميركي يجد مبرره في المصدر نفسه الذي برر وجود صدام حسين، أي للخشية من فراغ السلطة واحتمال قيام الفوضى<sup>(1)</sup> والعراقيون مجمعون على هذه النقطة أن واشنطن تريد إبقاء وجودها بإنكاء الفوضى وتفاقم العنف واستغلال التقسيمات العراقية.

وتفصح خطب المناسبات والشمعارات حول «الوحدة العراقية» وعيا دقيقا لهذه الانقسامات المعقدة أكثر مما هو ظاهر. فالأكراد على سبيل المثال منقسمون جماعات صغيرة ذات مصالح متنافسة بينما لا يشكل السنة العرب طائفة بما للكلمة من معنى. والشعبة الخاضعون لسلطة الحوزة العلمية التي لا نقاش فيها والتي تجمع في مدينة النجف النخبة الروحية والعلمية في الطائفة، فإنهم لا يتبعون نهجا واحدا ومدرسة فكرية واحدة.

الواقع أن الخلافات لا تفرق فقط بين الطوائف بل بين الأحياء والعائلات وهي تخترق الأفراد أنفسهم الذين يقررون صراحة بازواجية مشاعرهم. هكذا فإن للفئات التي صنفاها آنفا لا تتقاطع إلا جزئيا، ونادرة هي التصريحات المتماسكة والمواقف الحاسمة. وحدها بعض الشخصيات وخصوصا الدينية تطالب من اليوم بانسحاب القوات الأميركية. باقي العراقيين يتخذون مواقف أكثر تحفظا وتلقاضا وهم يبدون ضائعين أو كما يقول أحدهم «تحت صدمة» انهيار النظام. يقولون إنهم يدركون لوم السياسة الأميركية لكنهم لا يُصنمون بها كثيرا كان اللوم الذي أثار المشاعر في الغرب هو من طبيعة الأمور بالنسبة إليهم.

بيد أن البعض يشير إلى الاختفاء العجيب لـ «أسلحة الدمار الشامل» أو لذريعة الإرهاب

المزيفة هي أيضا. لكن هذه الانتقادات وغيرها لا تشكل إضربارة اتهام متماسكة ومبرمة ضد السياسة الأميركية والقائمين عليها. في نهاية المطاف يبدو أن العراقيين لم يحفظوا من ذرائع الحرب سوى كلمة «حرية» وحول هذه الحرية تتمحور انتظاراتهم ومحاسبتهم لمن أعلنوا انهم محرروهم. لكن للسكان لم يفهموا الحرية على أنها مجرد إقلاّت من ملطمة صدام حسين وهم يطالبون شيئا غير هذه الفوضى والانفلات وحرب الكل ضد الكل.

إذا خيبت الإدارة الأميركية ما لوحث به من آمال فإنها ستواجه معارضة من كل جانب أكثر تنظيما مما تشهد الآن. وبالفعل فإن قوى سياسية مختلفة تملأ اليوم الفراغ الناتج ليس فقط من انهيار النظام بل أيضا من غياب السياسة الأميركية. فإلى أي حد يمكن أن يتحمل العراقيون بموقعهم العقلاني والمسؤول خطة التدخل لحد الآن؟ وهل تتحني القوى المبعدة عن الحكومة الانتقالية أمام سلطتها المفقودة إلى الشرعية؟

شبهه العراق في المحصلة لعبة مونوبولي ضخمة نظف الأميركيون رقعتها ليفرضوا عند اللزوم رابعا من اختيارهم. في غضون ذلك يسعى اللاعبون إلى تعزيز مواقعهم وقد احتل عدد كبير من الأحزاب من دون إذن مراكز النظام البائد المهجورة. ويكرر كبير هؤلاء الأحزاب ممارسات الزبانية التي تذكر بأسلوب صدام حسين كما يلاحظ العراقيون. فأسيد أحمد الجليبي يشتري الدعم من خلال دفع بدلات مقابل الانتساب إلى حزبه، المؤتمر الوطني العراقي، الذي يفتر إلى القاعدة الشعبية. من جهته بدأ رئيس الاتحاد الوطني الكردستاني جلال الطالباني توزيع الهوافت الدولية والأسلحة الفخمة على بعض الأعضاء للمختارين في صفوف العشائر العربية.

كما استفاد بعض وجهاء الشيعة من انهيار المؤسسات بغية توسيع رقعة نفوذهم. وتطرح مدينة الثورة وسكانها الذين يتجاوز عددهم للمليونين تحديات جدية لجهة إدارة شؤونها وتتولى المتابعة فيها شبكة منظمة من الأئمة للشباب من اتباع مقتدى الصدر، الوجه الصاعد في الحوزة العلمية. ويقوم هؤلاء الأئمة بتمويل المستشفيات والمراكز الثقافية الإسلامية وإدارتها والتي ظهرت مع سقوط النظام. ويشرفون في صورة غير مباشرة على الإدارة المدنية التي تتعهد حاليا حاجات التغذية الأساسية للمواطنين هناك.

ترسم هكذا جغرافيا سياسية معقدة حيث لكل مدينة شكل تنظيميها الخاص، وفي بعض الحالات مثل الرمادي، يلعب زعماء العشائر دورا بارزا بينما يرجع هذا الدور في مدن أخرى إلى رجال الدين أو يمكن أن يتشارك رجال الدين والعشائر في إدارة الأمور الملحة، كما تقوم حالات من التناقص كما في الحلة حيث يعترض أمام المدينة الذي يتجامله الأميركيون على حاكم المدينة. الذي نصّب نفسه بدعم من قوات الاحتلال. بشكل عام يلقي نفوذ رجال الدين للريّة لدى قوات الاحتلال التي لا تترك ما ترتكبه من خطأ في معادلتهم.

بدأ يبرز أول مقومات المقاومة للسياسة الأميركية. فالمقاتلون الشيعة من فيلق بدر<sup>(2)</sup> الذين سمح لهم بالعودة إلى العراق من دون سلاح للانضمام إلى عائلاتهم، جندوا أسلحتهم واحتفظوا بتنظيمهم السري. «الإخوان المسلمون» من السنة دخلوا غرب البلاد بينما تشكل مجموعات

مقاومة علمانية. فمثلاً تنظم لقاءات لعناصر الاستخبارات السابقة يتبادلون فيها بمرارة أوضاعهم اليائسة مما قد يدفعهم إلى تنسيق أعمال على الأرض. كما أن بعض الشخصيات الدينية والقبلية تجاهر برغبتها اللجوء إلى المقاومة المسلحة إذا لم يحترم الأميركيون وعودهم.

في واقع الحال إن هذه المبادرات لا تتذر بتمرد قريب، فالعشائر والسلطات الدينية منهكة بعد خروجها من 35 عاماً من حكم البعث. وبصورة عامة فالسكان متعبون من الحرب وعديمو التنظيم، وهم يعرفون أيضاً القوة العسكرية الهائلة التي يتمتع بها المحتلون. لذا فالوقت للحذر قبل كل شيء، وقبل الانتقادات المبنيّة الموجهة لقوات الاحتلال. لكن لعبة سياسية تتشكل في صمت وتجاوز رهانتها المفاوضات الجارية في بغداد.

في هذا الإطار ولو افترضنا أن قوات الاحتلال لن ترتكب خطأ جسيماً كاعتقال أحد رجال الدين الشيعة الكبار أو غطلة عسكرية كبيرة، يبقى أمامها تحديان رئيسيان. فمن جهة عليها تحمل المسؤوليات الملقاة على عاتقها في صفتها محتلة للعراق لم تترك أن النظام السياسي الذي أقامه صدام حسين كان مقدراً له أن يهار معه. وفي الملموس فإن مطالب الأهالي الملحة هي الأمن والتموين وبصورة معنوية يحتاج العراقيون إلى الأمل وإلى دليل ما على تحسن الأحوال. أما إغراق العراقيين في القنوط فنتيجته ستكون في طبيعة الحال بروز أشكال من العنف اليائس...

من جهة أخرى سيعني تشكيل حكومة انتقالية إقفال اللعبة السياسية على حساب بعض القوى فيكون الخطر أكبر في تصلب مواقف السلطات المحلية والسلطات المضادة المبعدة. إن تتمكن الحكومة المركزية من فرض سيطرتها بلا مصاعب. وكونها تشكلت بواسطة الأميركيين وتفتقر إلى وسائل الردع الخاصة بها، فإنها ستجهد على الأرجح في الحلول محل السلطات المحلية الشرعية نسبياً. إضافة إلى أن الحكومة الانتقالية ستمثل هدفا ملموساً ومرنيا للانتقاد أكثر من قوات الاحتلال وقد تضطر هذه القوات في نهاية المطاف إلى مساندة هذه الحكومة في وجه الشعب ويكفي عندها حدوث اغتيال سياسي أو اغتيالين لتعقيد عمليات الانتقال المعلن نحو الديمقراطية.

في حال فشل تجربة الديمقراطية غير المسبوقة وغير المؤكدة والمهيئة للإعداد، أي خلاصات يمكن أن نستنتج؟ بالطبع إن أنصار الاجتياح سيتهمون العراقيين بأنهم ممانعون إزاء الديمقراطية ولم يحصلوا الاستفادة من الفرصة النادرة التي أتاحت لهم برحابة. وسيستدرك هؤلاء مرة أخرى على الأرجح بجرائم صدام التي لا يمكن للدفاع عنها والتي تجسد الشر الذي كان يجب التخلص منه. وهذا ما يعفيهم من أي تفكير نقدي في الأسس التي تقوم عليها هذه العملية والتي كان مقدراً لها أن تحقق نجاحاً أكبر... لو أنها تمت باسم هدف أصيل هو الحرية. □

هوامش

(\*) صحافي، أوتأوا.

(1) حول الشرعية للدنيا لنظام صدام حسين يمكن العودة مثلاً إلى مقال:

Fin de règne à Bagdad, Le Monde Diplomatique, février 2003

## محاولة لتقييم مسيرة الإصلاح الزراعي

عبد الرزاق زبير

من مقالات الذكرى البيوبلية للمجلة اخترنا لهذا العدد مقالة نشرناها قبل عشر سنوات بمناسبة الذكرى الخامسة والثلاثين لتكثيف الإصلاح الزراعي. وحين يصل العدد الحالي إلى قرائه، تكون قد حلت الذكرى الخامسة والأربعين لتكثيف هذا الإصلاح الذي يعتبر من أبرز مشاريع ثورة ١٤ تموز.



كتب المقالة، الأستاذ عبد الرزاق زبير، هو كندر خبرلنا في هذا الموضوع. فقد وكتب جل مسيرة الإصلاح من داخلها، وطالع كل ما تبسر له من مؤلفات حول تجارب الإصلاح الزراعي في مختلف البلدان.

لقد كتب المقالة عام ١٩٩٣ حين كان في لندن لزيارة ابنته ندى وابنه سعد. وحرصاً على سلامته من بطش النظام، لأنه كان على أهبة العودة إلى بغداد، نشرنا المقالة باسم المهندس الزراعي الوهمي حسين علي. ولم تمهله العناية ليشهد سقوط النظام، إذ رحل يوم ٢٥ أيار ٢٠٠١. وما نحن نعيد إليه حق نشر للمقالة باسمه هو. ويدها مباشرة، يجد للقراء ملامح مسيرة هذا الوطني الجليل، وقد دوكتها هو بصيغة الغائب، وهي سيرة حافلة بالعطاء النضالي والمهني.

هذا وتأمل أن نكرس لكتابه ملفاً خاصاً في المستقبل. (ث ج)

عند قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ كانت الملكية السبيرة سائدة في الأراضي الزراعية. والأرقام التالية تعطينا فكرة واضحة حول ملكية الأراضي الزراعية:

- ٤٩ عائلة كانت تملك ما مجموعه حوالي ٥,٥ مليون دونم.
- ٣٥٢ شخصاً يملك كل منهم أكثر من ١٠ آلاف دونم وتتجاوز ملكية بعضهم ١٥٠ ألف دونم.
- ١٢٨ شخصاً يكتزون ١٤ بالمئة من ملاكي الأرض ويملكون ما مجموعه أكثر من ٦ ملايين دونم أي ١٩% من مجموع الأراضي الزراعية.

— ١٨ شخصاً في لواء (محافظة) العمارة يملكون ما مجموعه ٢,٢٥ مليون دونم.

وجدير بالذكر أن مثل هذه الملكيات الضخمة للأرض لم تنشأ من «عرق جبين» وكفاءة المالكين الحاليين أو أسلافهم. فقد كانت الأرض أميرية، تملكها الدولة على مر العصور، ثم وضعت في مختلف المهود السابقة بتصرف أو حيازة شيوخ العشائر ووجهاء المدن وكبار موظفي الدولة بدوافع وذرائع وأشكال مختلفة. وهكذا سادت العلاقات شبه الإقطاعية التي في ظلها ساد الفقر والهزال والاضطهاد حياة الفلاحين، الذين كانوا يشكلون غالبية سكان العراق وقواه العاملة قبل ثورة تموز. وكان تخلف الزراعة وفقر شغيلتها وجهلهم عقبات حاسمة للتعويق لتصنيع البلاد وتطورها الشامل. وبذلك كانت العلاقات شبه الإقطاعية من أهم عوامل استمرار تخلف الاقتصاد، وبالتالي تبعيته. فالزراعة كانت المصدر الأكبر للنتاج المحلي، إذا ما استبعدنا منه إنتاج النفط الخام الخاضع لسيطرة الاحتكارات الأجنبية.

ومن دون تحرير الاقتصاد الوطني من التخلف والتبعية يبقى الاستقلال السياسي المتحقق هشاً ويفقد الكثير من مغزاه في حياة أغلبية الشعب.

وعليه كان تحرير الاقتصاد من العلاقات شبه الإقطاعية ضرورياً لتقدم البلاد ومطلباً ملحاً لغالبية الفلاحين. وهكذا أعلنت السلطة لجمهورية قانون الإصلاح الزراعي في ٣٠ أيلول ١٩٥٨. وقد اعتُبر من أهم منجزات العهد الجديد، حتى قيل إن الانقلاب الذي أنجزه الضباط الأحرار ما كان يستحق تسمية الثورة لولا تمشين الإصلاح الزراعي.

لقد تناول ذلك القانون ثلاثة أمور أساسية هي:

- تحديد سقف ملكية الأرض الزراعية والاستيلاء على ما زاد عنه بغية توزيعه على الفلاحين.
- إقامة تعاونيات زراعية تساعدهم على إدامة وتطوير الإنتاج.
- تنظيم العلاقة الزراعية وتحديد نسبة ما يُحسب من الناتج لكل من عوامل الإنتاج، أي تحديد حصتي الفلاح ومالك الأرض.

لقد حدد القانون سقفاً للملكية افتُرض أنه سيحرر حوالي ٤٠% من مجموع الأراضي الزراعية لتوزيعها على الفلاحين. وكانت بعض الأوساط المشاركة في السلطة ترى رفع السقف من ألف دونم إلى عشرة آلاف دونم لضمان «حياة لائقة» للملاكين. ولو أخذ برأيهم لما تحرر من الأرض سوى حوالي ١٥%.

لما القانون الثاني، الصادر في سنة ١٩٧٠، فقد خفض سقف الملكية. ويُفترض أنه يحرر هذا التخفيض ٢٠% أخرى من الأرض ليصل المجموع إلى ٦٠%. واعتبرت السلطة ذلك نهاية المطاف وأنه هو «الإصلاح الزراعي الجذري».

لئن كان الاستيلاء على ما زاد عن السقف المحدد من الأرض وتوزيعه على الفلاحين هو الهدف المرحلي للإصلاح الزراعي فإن هدفه الأبعد هو تطوير القوى المنتجة بما يؤدي إلى رفع مستوى الإنتاج الزراعي كماً ونوعاً، ليولكب ويدعم للتنمية الاقتصادية والتطور العام للبلاد، بما

في ذلك نمو السكان وارتفاع مستوى المعيشة، في المدن على الأقل.

وشأن لية عملية اقتصادية - اجتماعية بهذه الضخامة والأهمية فقد ظل الإصلاح الزراعي مدلول خلاف في الآراء والمواقف. وذلك يعكس، بصورة مباشرة وغير مباشرة، التناقض بين مصالح الفلاحين وكبار الملاكين الذين تربطهم علاقات شتى بتجار المدن وكبار موظفي الدولة.

فليس من الغريب، إذن، أن يؤثر ويتأثر الإصلاح الزراعي كثيراً بالحياة السياسية التي شهدت فوراً عارماً منذ اليوم الأول للثورة. ففي حين اعتبرته قوى اليسار الجوهر الاجتماعي للثورة الوطنية الديمقراطية وطالبت بتعميقه. بينما تحالفت قوى اليمين لإبقائه عند الحد الأدنى، أو لتعويق تنفيذه، بل ذهب بعضها إلى حد استصدار فتوى بتحريم الصلاة على الأرض الموزعة بموجبه على فقراء الفلاحين.

وبطبيعة الحال، كان الصراع حول قضايا الإصلاح الزراعي ينور في خضم الصراع العام حول وجهة سير الثورة، وبالتالي حول السلطة. وقد أدى احتدام الصراع السياسي إلى نتائج وخيمة لم تكن في حسابان الوطنيين الذين عملوا على إسقاط الحكم الملكي. فلو أنهم قد أدركوا مسبقاً حدة التناقضات التي مستفجر مع تشييد الإصلاحات اللازمة لإخراج البلاد من التخلف والتبعية، لسواء، أغلب الظن، إلى وفاق حول قواسم مشتركة بشأن المهام التي ينبغي إنجازها بعد إطاحة السلطة الملكية، ولاتفقوا كذلك على بعض الضوابط لإدارة الصراع حول القضايا الخلافة.

إن مسيرة الإصلاحات التي نشئت في العهد الجمهوري لا تساعدا فقط على المعرفة العيانية لواقع مجتمعنا في الوقت الحاضر، بل تنطوي كذلك على دروس قيمة لكل الذين يعملون ليس فقط من أجل إسقاط الدكتاتورية، بل كذلك من أجل إعادة البناء، المادي والروحي، لمجتمعنا، وهي عملية مديدة شاقة ينبغي أن نجنبها لأخطاء الماضي وعواقب الأوهام التي مازالت عالقة في بعض الأذهان.

### الإصلاح الزراعي بين السياسة والارتجال

إن إنجاز مهمة بضمخامة الإصلاح الزراعي يتطلب خطة تحدد الأهداف، وتشخص أولويات التنفيذ، وتتابع خطوات التنفيذ حتى يتم إنجاز العملية. وكل ذلك ينبغي أن يجري في ضوء الواقع القائم مع توفير متطلبات التنفيذ. ولكن «الهيئة العليا للإصلاح الزراعي» التي استحدثها القانون، المعلن في ٣٠ أيلول ١٩٥٨، لم تكن قادرة على أداء هذه المهمة، إذ غلب في تركيبها رجال القانون. ولعبت الاعتبارات السياسية، الناشئة عن احتدام الصراع بين قطبي السلطة (قسم وعارف) ومؤيديهم، دوراً واضحاً في استعجال الإعلان عن بدء الإصلاح الزراعي قبل وضع خطة مناسبة وتوفير مستلزمات تنفيذها مع ضمان استمرار عملية الإنتاج الزراعي. ثم إن إنجاز المشاريع الزراعية يتطلب من الوقت والجهد والمال ما يزيد كثيراً عما تحتاجه المشاريع في أغلب القطاعات الأخرى. لذلك يلعب الاستقرار دوراً أساسياً في نجاح الإصلاح الزراعي. غير أن أهدافه وإجراءات تنفيذه ظلت عرضة للتغيير تبعاً لتقلب الاعتبارات السياسية المباشرة، خاصة في العهد الحالي، الذي بدأ بالمزايدة مع اليسار وبلغ في تدخل الدولة في الزراعة، ثم انتهى بالتكرار لعدد من إجراءات

الإصلاح الزراعي وتصفية القطاع الحكومي في الزراعة، واستيلاء الأسرة الحاكمة على عدد من أهم مؤسساته وأراضيها بأبغض الأثمان. وفي غضون ذلك خضع القطاع الزراعي وعملية الإصلاح لاعتبارات وعواقب الحروب الداخلية والخارجية المدمرة، وكذلك لتقلبات مزاج الدكتاتور ومصالحه.

### الملاكون والفلاحون والإدارة

تضمن القانون الأول للإصلاح الزراعي حق الملك باختيار موقع الأرض الباقية له عند الاستيلاء على الأرض لزائدة عن سقف الملكية. وعند البدء بتنفيذ القانون، لوحظ أن الملكين يختارون قطعاً في مواقع متعددة حسب جودة الأرض وسيطرتها على مجاري الري والبلز. وكان ذلك من أسباب احتدام نزاعهم مع الفلاحين، الأمر الذي ألحق ضرراً غير قليل بعملية الإنتاج. ومما زاد هذا الضرر سوءاً إغراق عملية الاستيلاء بشكليات قانونية أبطلت تنفيذها وألقت الأرض الخاضعة للاستيلاء بيد ملاكها. فتكسر هؤلاء عن الوفاء بالتزاماتهم المعتادة لتمشية عملية الإنتاج.

ولم يجد فتيلاً إلغاء حق الاختيار للملاكين عام ١٩٧٠ لأنه جاء بعد فوات الأوان، ولكثرة الاستثناءات التي نالها مؤيدو السلطة وحاشية رئيسها من أحكام القانون.

وينبغي الإشارة إلى أن تغيير الملكية الزراعية لا بد أن يسبب في البداية تخلخلاً في العلاقات الزراعية له تأثير سلبي على عملية الإنتاج. وهذا ما شهدته مختلف البلدان التي طبقت الإصلاح الزراعي. ولتقليل هذا التأثير وتقليص فترة الارتباك كان ينبغي لجهاز الإصلاح الزراعي الذي حل محل الملك السابق للأرض أن يتولى إدارة العمل الزراعي في هذه الأرض وإشراك الفلاحين، الذين تهمهم هذه العملية أكثر من غيرهم، إشراكاً فعالاً في هذه الإدارة... وقد ضرب الفلاحون المتعاقدون بعقود جماعية مع الإصلاح الزراعي مثلاً طيباً في بعض المناطق على التعاون المثمر في مواصلة الإنتاج. وكان لجمعياتهم الفلاحية دور بارز في تعبئة جهودهم بهذا الاتجاه. ويروي زميل كان مهندساً للري في المنطقة الجنوبية واقعة ذات دلالة. ففي بداية الإصلاح الزراعي تجمع في منطقة لزراعة الشلب حوالي ألف فلاح لعمل سدة وقتية (حمول) من القصب والبردي والتراب لغرض الري. فأنجزوا عملهم في يوم واحد، حتى قبل أن تعلم السلطة الإدارية بذلك. وكان مثل هذا العمل يستغرق في السابق أياماً طويلة، وذلك على أساس السخرة التي يفرضها على الفلاحين الملكون بمساعدة الإدارة والشرطة.

غير أن مثل هذه المبادرات الإيجابية سرعان ما طالتها الكبت بدل الرعاية والتعميم. فقد عملت السلطة على إخضاع حركة الفلاحين لسيطرة أجهزتها مستفيدة من الخلافات الحادة بين الأحزاب ذات النفوذ في الريف. ومعلوم أن الأجهزة الإدارية قد تربت على خدمة الملكين والمساهمة في إخضاع الفلاحين لمشيئتهم. ولم يطرأ على تركيبها تغيير هام بعد تشييد الإصلاح الزراعي. فعملت على عرقلة وتهميش لقمع حركة الفلاحين وخنق مبادراتهم.

غير أن السيطرة الحكومية على الحركة الفلاحية اتخذت أبعاداً أشمل بعد انقلاب ١٧ تموز



١٩٦٨ وذلك في إطار عملية «التبعية» القسري الذي مارسته السلطة على أوسع نطاق. وبات على منظمات الفلاحين أن تظهر للتأييد لإجراءات السلطة حتى وإن كانت في غير صالحهم.

عند النظر إلى سبلات توزيع أراضي الملاكين على الإنتاج الزراعي، ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار أن فقراء الفلاحين الذين كانوا يمانون الحرمان لابد أن يشبعوا بطونهم من منتوجهم حين تصبح الأرض ملكاً لهم. وواضح أن ارتفاع مستوى معيشة الفلاحين يمثل واحداً من أهم أهداف الإصلاح الزراعي. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى تحسن قواهم البدنية وبالتالي قدرتهم على العمل الذي يغلب عليه الطابع اليدوي. فليس جميع الهبوط في مقدار المحصول المسوق في المدن من سبلات الإصلاح الزراعي.

### وسائل الإنتاج الزراعي

تتلقى الصفة الزراعية عن الأرض ما لم يتوفر لها الماء الكافي سواء من المطر أم بالري. ولأن فيضان دجلة والفرات في الربيع لا يتزامن مع حاجات موسمي الزراعة الشتوية والصيفية، فلا بد من خزن المياه بالسدود لدرء مخاطر الفيضان ولتغذية النهرين في الصيف، ومن الضروري تنظيم توزيع مياه الري ابتداء من الأنهر الرئيسية حتى الجداول الحلقية بواسطة النواظم. ومنذ العصور القديمة أدرك مزارعو وادي الرافدين هذه الضرورة وعملوا وفقها بطرق بدائية مازالت متبعة في بعض المناطق (الخرز في منطقة نينوى، والحمول في مناطق الأهوار). وفضلاً عن توفير طاقة كهربائية بكلفة رخيصة نسبياً، فإن السدود تساعد على توسيع رقعة الأرض المروية. وتتبع الحاجة إلى ذلك في العراق من حقيقة أن حوالي نصف الأراضي الدائمة غير مضمونة الإنتاج لقلة وتذبذب سقوط الأمطار، علماً بأن حوالي ٦٠% من المحاصيل الشتوية، ولاسيما القمح، يأتي من المنطقة الدائمة في الشمال.

وعليه فإن تحقيق الهدف البعيد من الإصلاح الزراعي يتطلب توسيع وتنظيم الري. وينبغي أن يرافق ري الأراضي الرسوبية في وسط البلاد وجنوبها تطوير البزل، لأن ارتفاع مستوى المياه الأرضية يؤدي إلى تكون السبخ، الذي كان من عوامل انتشار حضارات وادي الرافدين. فالبزل ينبغي أن يتلائم مع الري في الموقع والزمان، ابتداء من الجداول الحلقية إلى الميزل (المصب) العام. وقد عانت مشاريع الري والبزل من التأخير الذي أضر بالأرض الزراعية وأعاق تطور الإنتاج. والأموال الهائلة، التي وفرها تصدير النفط للدولة، لو استثمرت في ملايين الإنتاج بدل إهدارها على التسليح والبذخ، لأحرز قطاع الري والبزل التقدم الذي يتطلبه رفع مستوى الإنتاج الزراعي وإصلاح الأراضي.

ولئن تأخرت مشاريع الري والبزل في المرحلة الأولى بسبب ضعف التخطيط وعدم الاستقرار وقلة الموارد نسبياً، فإن هذه المشاريع خضعت منذ ١٩٦٨ إلى الاعتبارات السياسية ومصالح العائلة الحاكمة وحواشيها، بل حتى لنزوات الدكتاتور. ومصير «المصب العام» المصمم في الخمسينات لنقل مياه الميزل إلى البحر نموذج للاستهتار والديماغوجيا في هذا القطاع. فأجهزة

الإعلام الحكومية لقبته «النهر الثالث» وكذلك «نهر القاند» وكأن غرضها الري لا البزل. فإذا تحقق تغيير وظيفة هذا المشروع فإنه سيلحق ضرراً كارثياً بالأرض الزراعية على المدى الطويل وذلك لأنه سيحرمها من تصريف مياه المبالز الفرعية.

وثمة أخطار كارثية أخرى تهدد الزراعة والاقتصاد الوطني ناجمة عن الشحة المتوقعة للمياه المتدفقة من تركيا بسبب مضيها في إقامة المشاريع المائية الضخمة في أراضيها دونما اعتبار لحاجات العراق وسورية.

وجدير بالذكر أن من عيوب قانون الإصلاح الزراعي الأول أنه اعتمد للتوزيع الفردي للأرض مما زاد في مشاكل الري والبزل، فاستقلال كل فلاح بأرضه يتطلب تنظيم الري والبزل لها على أفراد، وفضلاً عما يتطلبه ذلك من مال ووقت، فإنه يزيد استهلاك مياه الري، ويؤدي إلى تفاقم ارتفاع مستوى المياه الأرضية وبالتالي زيادة السبخ. وكانت الزراعة قبل الإصلاح تجري، في الغالب، بأسلوب النيرين للتقليل من ارتفاع الملوحة. فكان الفلاحون يركزون الزراعة في جنب من الأرض، فيستسمون مساحتها ومياه ربا ثم يتركونها في السنة التالية بوراً ويتحولون إلى الجانب الآخر. ولا بد من التخلي عن الأسلوب البدائي عند استكمال شبكة الري والبزل واستصلاح الأراضي.

أما القانون الثاني لعام ١٩٧٠ فقد أقر التوزيع الجماعي إلى جانب التوزيع الفردي للأرض، لكن ذلك جاء بعد فوات الأول حتى لو طبق للتوزيع الجماعي الذي ظل في الواقع جبراً على ورق.

ولا يستوي الحديث عن الري دون التطرق إلى المضخات. فقدم كفاية النواظم على الأثير والجدول لتنظيم وتوزيع مياه الري، لاسيما في حوض دجلة الذي ترتفع ضفافه عن مستوى الماء أكثر من نهر الفرات، بقيت الزراعة في مناطق كثيرة على السقي بالواسطة كالمضخات والنواير والكروود. وهي تمثل حوالي خمس الأراضي المروية وتمن الأراضي الزراعية. وتكون الزراعة في الأراضي التي تسقى بالواسطة أعلى كلفة منها في الري سبياً. وكان ذلك من أسباب قلة المضخات قياساً إلى الحاجة. وقد استولى الملاكون على أغلب المضخات بموجب حق «الاختيار» وكسوها لسقي الأرض التي أبقاها الإصلاح الزراعي لهم، وذلك رغم أن دوائر الري كانت قبل الإصلاح قد أجازت نصب وتشغيل المضخات لسقي كل الأرض. وقد أدى حرمان الأرض الموزعة على الفلاحين من الماء إلى تركها بدون زراعة وبالتالي هبوط الإنتاج وتزايد النزوح إلى المدينة. و تحولت المضخات أحياناً إلى وسيلة لإخضاع الفلاح إلى سيطرة الملاك حتى بعد أن ملك أرضاً. وظل دور الدولة ضعيفاً في سقي الأرض بالمضخات، وذلك لأن أكثر من ٩٠% من هذه المضخات ان عاندا إلى القطاع الخاص. وكان بوسع الدولة إنشاء محطات لضخ الماء تساعد على تلافي النقص لحين استكمال مشاريع الري.

وعند بدء الإصلاح الزراعي كانت السلاحيات تلبي أقل من ١٠% من حاجة الزراعة، وهي مملوكة للقطاع الخاص الذي تسرب إليه كذلك أغلب السلاحيات المستوردة والمنتجة محلياً، بحيث أصبح يملك أكثر من ٩٠% من السلاحيات. وكان عدد غير قليل من سلاحياته يستخدم خارج القطاع الزراعي، حيث الربح الأعلى. أما بالنسبة للحاصدات فيملك القطاع الخاص حوالي ٧٠% من

مجموعها. ولا يختلف الوضع كثيرا بالنسبة للمعدات الزراعية الأخرى. وقد صفيحت محطات المكنات الزراعية التي أنشأتها الحكومة في البداية، وذلك حتى قبل الشروع بتصفيّة منشآت القطاع الحكومي في لواخر للثمانينات.

ولم يكن لدى الفلاحين المستفيدين من الإصلاح الزراعي من وسائل الإنتاج غير المسحاة والمنجل. فكانوا بأمر الحاجة إلى التسليف الحكومي لتوفير البذور والسماد ومواد مكافحة الخ. وقد تخلف عن القيام بالتسليف جهاز الإصلاح الزراعي الذي حل محل المالك. فصب الإحصاءات الرسمية لم يتجاوز التسليف في السنة الأولى مليون دينار، وفي السنة الثانية مليون ونصف المليون دينار. ولم تحصل التعاونيات التي شملت للفلاحين في أراضي الإصلاح الزراعي إلا أقل من ١٥% من مجموع القروض الحكومية حتى الثمانينات.

مازالت الدواب وسيلة ضرورية للإنتاج للنباتي ونقل المحاصيل. ويمثل الإنتاج الحيواني جانبا مزايدا الأهمية من الإنتاج الفلاحي. وقبل الشروع بالإصلاح الزراعي كانت العناية طفيفة بالثروة الحيوانية. فلتربية الماشية اعتمدت في الغالب على المراعي الطبيعية غير المضمونة لأنها خاضعة للظروف المناخية شأن الزراعة الموسمية. وكان المفروض تطوير هذه الثروة بموازاة نمو السكان وارتفاع مستوى معيشتهم. وقد خفز نمو الطلب على المنتجات الحيوانية القطاع الخاص للاستثمار بنطاق محدود، خاصة في تربية الدواجن. وتوسع القطاع الحكومي في الإنتاج الحيواني وتجارته. ولكن دوره ظل محدودا بالقياس إلى تنامي الحاجة.

كان على القطاع الحكومي أن يتولى مجالات الإنتاج الحيواني التي يحجم القطاع الخاص عن دخولها كإنتاج الحلف المركز الذي يتطلب مشاريع ضخمة وتحتاج إلى خبرات واسعة لدراسة واستغلال المواد الأولية المتوفرة مطيا. والحلف المركز ضروري لإنتاج الحلف للماشية والدواجن. وكان يفترض من القطاع الحكومي دعم الزراعة والفلاحين بإنتاج السلالات المحسنة والمحصنة من الموالشي والدواجن والأسماك وبيعها إلى القطاع الخاص. ولا يتوقع من القطاع الخاص دخول مجال البحوث الحيوانية والنباتية، فهي من المجالات التي يفترض بالقطاع الحكومي أن يتولاها. وكذلك الحال بالنسبة لإنشاء المراعي الاصطناعية الواسعة في المناطق الديمة والمروية معاً.

لكن المشاريع الحيوانية التي أنشأتها الدولة، خاصة في السبعينات، دون دراسة كافية لجنواها، وأنفقت عليها أموالا لا مبرر لضخامتها، قد عهت بإدائها، في الغالب، إلى حزبين دون لا تتوفر فيهم النزاهة والكفاءة لللازمات. ثم ما لبثت أن باعت هذه المشاريع في الثمانينات للقطاع الخاص بثمن بخس. وكانت العائلة الحاكمة وشركاؤها ومؤيدوها أول المستفيدين من هذا التحول بعد أن احتلّوها وهي ملك الدولة.

### استنتاجات ومقترحات

عند تنشين الإصلاح الزراعي لم تتوفر لدى السلطة الخيرات والموارد اللازمة لإتجابه. ويمكن القول إنها لم تستثمر حتى ما كان لديها من خبرات وموارد على شحتها. وكان لاحتدام

الصراع بين القوى الوطنية دور حاسم في إريك مسيرة الإصلاح، وكبح الحركة الفلاحية المستقلة عن السلطة.

أما النظام الحالي فلم يعان من شحة الموارد والخبرات اللازمة للنجاح. يكفي القول إنه زج البلاد في الحرب ضد إيران وتحت تصرفه حوالي ٣٥ مليار دولار من المال الفاقص عن حاجاته الآتية. فقد استنزف خلال الثمانينات مئتي مليار دولار، خاصة على الحرب والعسكرة: فبات العراق مدينة بحوالي ٨٠ مليار دولار، وفوق ذلك جاءت تعويضات الحرب بقرار مجلس الأمن.

ثم إن المرحلة الأولى من الإصلاح الزراعي قد راكمت المعرفة والخبرة بشأن هذه العملية. غير أنه ظل يهدر الموارد الهائلة على العسكرية وأجهزة الإرهاب وعلى مظاهر الأبهة والبهخ المفرط. كما غلب الولاء السياسي على النزاهة والكفاءة في تعيين أغلب المسؤولين عن القطاع الزراعي. ورغم أن القانون الذي أصدره عام ١٩٧٠ للإصلاح الزراعي كان، في نواح عديدة، متقدماً على القانون الأول، فإن تنفيذه قد خضع للأهواء السياسية والذاتية، ولمتطلبات وعواقب حروبه الداخلية والخارجية. وكذلك الأمر بالنسبة لكثير من المشاريع الزراعية والحيوانية والإروائية. وتكفي الإشارة هنا إلى تدمير بضعة آلاف من القرى الكردية ولبعاد أهلها عن الإنتاج الزراعي والحيواني وحجرهم في المجتمعات القسرية. فهلكت مواشيهم وبساتينهم وحل الخراب بالغات الطبيعية. وتضرر بعض منشآت الري في الجنوب إذ سدت السواتر والاستحكامات العسكرية مجاري الماء. وحل بالنخيل دمار، لا سابق له، جراء الحرب مع إيران وقمع الانتفاضة الشعبية في آذار ١٩٩١. وإن الحروب وتوسيع أجهزة القمع وتحويل معدات الزراعة إلى خدمة النشاط الحربي قد ساعدت على تسارع الهجرة من الريف واستنزاف قواه العاملة. ومثل غيرها من قطاعات الإنتاج والخدمات، تعاني الزراعة في الوقت الحاضر من عواقب العقوبات الاقتصادية. وهاهو الدكتاتور يحاول إبعاش الرموز العشائرية التي أوهنها الإصلاح الزراعي والتطور الثقافي، وذلك بهدف العثور على حلفاء يولجهم بهم نعمة الشعب عليه.

كيف، إذن، نقيم حصيللة الإصلاح الزراعي خلال أكثر من ثلاثة عقود منذ صدور قانونه الأول في خريف عام ١٩٥٨؟

لقد انتهت عملية الاستيلاء والتوزيع بالنسبة لأغلب الأراضي الزائدة عن سقف الملكية المقرر في القانون، وبذلك يفترض أن أكثر من نصف الأرض الزراعية قد تحرر من سيطرة الملاكين وتحول إلى حيازات صغيرة للفلاحين. وهكذا تقلصت، إلى حد كبير، رقعة الأرض الزراعية التي كانت تستثمر وفق العلاقة شبه الإقطاعية وهي علاقة تنطوي على استغلال مربيع للفلاحين المحاصرين وتبقيهم في حالة من العوز والسقام والجهل. وكانت تلك العلاقات المتخلفة عائقاً أساسياً أمام تصنيع البلاد وتقدمها الحضاري. وقد تطلعت في مناطق كثيرة تقاليد الولاء العشائري للشيخ الذي يملك الأرض وتختاره السلطة الملكية عضواً في برلمانها عن سكان منطقته وأغلبهم من ضحايا الفلاحين.

ويقترض أن يؤدي تقليص الأرض التي بحوزة الملاك إلى دفعه لاستثمارها على أساس

رأسمالي يساعد على تطوير سريع لوسائل وطرق الإنتاج. فتتشأ بين المالك والعامل الزراعي، الذي يستخذه، علاقة رأسمالية تنطوي على استغلال أقل جوراً مما كان عليه استغلال الفلاحين.

لما الفلاحون الذين افتتحوا من توزيع الأراضي فقد تباينت مصائرهم، إذ تقدم الإنتاج وارتفع مستوى المعيشة في الأراضي القريبة من أسواق المدن، والجيدة من حيث الخصوبة وتوفر الماء لها، فضلاً عن التسليف. أما الأراضي المحرومة من الماء والبعيدة عن المدن والتي لم تتوفر لسلف لاستثمارها، فقد اضطرت ملاكها الجدد إلى تركها أو تأجيرها والبحث عن عمل في المدن. فالأهم من سند الملكية، الذي كان يحلم به، أن تتوفر له مستلزمات الإنتاج التي ترفع مستوى محصوله ومعيشتة.

أما الإنتاج الزراعي فلم يحقق منذ الإصلاح الهدف المرجو، بالنسبة للحبوب، على الأقل. والجدول لآناه يبين أن إنتاج القمح والرز والشعير والذرة لم يولكب في العدين الماضيين نمو السكان ويتفق العمالة الأجنبية. ففي مطلع السبعينات كان المعدل السنوي لإنتاج الحبوب للفرد من السكان ٢٥٩ كيلو غرام لكن هذا المعدل هبط إلى ٩٥ كيلو غرام في نهاية الثمانينات. وتلافياً للعجز المتصاعد بات من الضروري زيادة الاستيراد من هذه المحاصيل الضرورية لآذناه العراقي. ففي بداية السبعينات كان الاستيراد يمد ١٦% من حاجة البلاد إلى هذه الحبوب. ثم قفزت نسبة استيرادها إلى حوالي ٧٤% من حاجة البلاد في أواخر الثمانينات. وبتعبير آخر تدهور الأمن الغذائي إلى حد خطير خلال العقد المنصرم. فواضح أن النظام لم يقد وزن تأثير هذا التدهور الخطير حين زج البلاد في الحرب ضد إيران في مسهل الثمانينات لأن محرضيه على الحرب أو هموه أن الحرب لن تستغرق أكثر من بضعة أيام. أما حين امتدت إلى ثمانية أعوام فكان النظام لا يخشى من انقطاع واردات الحبوب لأنه كان يدرك أن تلك الحرب كانت تخدم جهات إقليمية ودولية عديدة. لكن هذه التي سارعت إلى فرض الحظر الاقتصادي على العراق عقب غزو الكويت، هذا الحظر الذي يمثل كارثة تضاف إلى عذاب وخراب الحروب الخليج والحرب الداخلية المستتمة ضد الشعب منذ ١٩٦٨. فرغم أن الغذاء والدواء غير مشمولين بالحظر إلا أنه يسري على تصدير النفط الذي يدر النقد الأجنبي لتمويل جميع الاستيراد، خاصة وأن نهج النظام أدى إلى تفاقم اعتماد الاقتصاد العراقي على عوائد النفط. ثم إن الحظر يشمل وسائل الإنتاج، بضمنها احتياجات القطاع الزراعي.

المعدل السنوي للفترة	المساحة ألف هكتار	إنتاج الحبوب ألف طن	حصة الفرد مئة كغم	نسبة الاكتفاء من الإنتاج المحلي
١٩٧٢-٧٠	٢٥٥٢	٢٥٣٥	٢٥٩	٨٤%
١٩٨٦-٨٤	٢٩٦٠	٢١١٠	١١٩	٣٢%
١٩٩٠-٨٩	٢٢٧٥	١٧٧١	٩٥	٢٦%

ولئن أخفق الإصلاح الزراعي في تحقيق هدفه الدائم في إنهاء الإنتاج الزراعي، النباتي والحيواني، فإن الخطأ ليس في مبدأ الإصلاح الزراعي، بحد ذاته، بل في الظروف السياسية

والثقافية التي أحاطت به. وبالمثل لا يصح، مثلاً، تخطيط تأمين حصة الاحتكارات الأجنبية، التي كانت مهيمنة على ثروتنا النفطية، لأن النظام أهدر الزيادة الهائلة في عوائد النفط على العسكرية وأجهزة الإرهاب والتضليل وشن الحروب الداخلية والخارجية. فالعلة في الدكتاتورية التي لا تخضع للمساءلة عن كل تصرفاتها وإن جلبت الكوارث.

المهم، كما أسلفنا، أن تستفيد القوى الساعية إلى اللبيل للديمقراطي من دروس العقود التي مضت، فتأخذها بعين الاعتبار عند رسم برنامج البناء السلمي الديمقراطي الذي يعقب الإطاحة بالدكتاتورية. ولا بد من الحوار الجاد المتسامح حول المهام العامة، وكذلك حول أبرز المهام التي تخص قطاعات الاقتصاد.

- وبقدر ما يتعلق الأمر بالقطاع الزراعي يمكن مناقشة المهام التالية ذات الأسبقية، كما نرى:
- توسيع ودعم مؤسسات التسليف الزراعي كي تقدم ما يكفي من القروض لنهوض الإنتاج الزراعي.
- إعادة بناء القرى المهملة ومساعدة أهلها على الرجوع إليها وممارسة الإنتاج الزراعي وتوعيتهم.
- إطلاق حرية النشاط التعاوني في الريف بعيداً عن هيمنة الدولة.
- ترميم وتشغيل منشآت الري التي تضررت بالحرب.
- توفير الأسمدة والمبيدات والمعدات الزراعية، خاصة من الإنتاج الوطني وتوظيف الصناعة العسكرية لهذه الغاية.
- بذل نشاط دبلوماسي على الصعيدين الإقليمي والدولي لضمان تدفق حصة عادلة من المياه في الفرات ودجلة.
- تشجيع صغار المزارعين على إنشاء شركات تعمل على أساس وحدة مصدر الماء والبيزل ونوع المحصول في المنطقة المعنية.
- تشجيع الشركات التي تأخذ بأسلوب الإنتاج الواسع للمحاصيل الأساسية لغذاء السكان (الحنطة والرز والشعير).
- استكمال شبكات الري والبيزل والسدود والخزانات وما تتطلب من نواظم ومحطات.
- دعم صغار المنتجين في زراعة الفواكه والخضر.
- قيام الدولة بإنشاء المشاريع الحيوانية الضخمة، مثل مشاريع إنتاج العلف للمركز المراعي الاصطناعية.
- تمويل وتنظيم الدولة للبحوث الزراعية (النباتية والحيوانية) لخدمة تطوير القطاع الزراعي.
- تطوير شبكة السلايول والمخازن المبردة. □

## عبد الرزاق زبير:

- ولد في بغداد بحملة باب الشيخ سنة ١٩٢٠.
- أتد دراسته في بغداد — التسايل الأولية، العونية الابتدائية، المتوسطة الشرقية، الثانوية المركزية، كلية الحقوق العراقية وتخرج فيها سنة ١٩٤١، ثم دورة ضباط الاحتياط سنة ١٩٤٢ وكان الأول فيها.
- مارس المحاماة مدة طويلة بفترات متعينة بدءاً من سنة ١٩٤٢ في العمارة، في بغداد بدءاً من سنة ١٩٥٤.
- انتخب عضواً لمجلس نقابة المحامين، وسكرتيراً لها لسنتي ١٩٥٤ و ١٩٥٦.
- أشغل وظائف رسمية:
- رئيس بلدية العمارة في ١٩٤٤، واستقال منها في ١٩٤٦. \* عضو الهيئة العليا ومدير عام الإصلاح الزراعي منذ صدور قانون الإصلاح الزراعي الأول في ١٩٥٨، ثم عضواً في الهيئة الاستشارية للإصلاح الزراعي حتى فصله من الوظيفة في ٨ شباط ١٩٦٣. \* مفقش علم الإصلاح الزراعي في ١٩٦٨. \* مدون قانوني بوزارة العدل ١٩٧١ حتى إحقته على التقاعد في سنة ١٩٧٩.
- اهتم بالمسألة الزراعية في العراق، ابتداء في العمارة — بلد الإطاع الأول — وكان إلى جانب الفلاحين والمزارعين الصغار في عمله بالمحاماة.
- شارك في اللجنة الرئيسية التي كلفت بدراسة ووضع مشروع الإصلاح الزراعي إثر ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.
- شارك في وضع قانون الإصلاح الزراعي لقائي سنة ١٩٧٠.
- تولى تدريس مادة الإصلاح الزراعي في كلية القانون والسياسة بجامعة بغداد للفترة ١٩٧٣ — ١٩٧٤، وله محاضرات مطبوعة بالرونيو فيها.
- أشرف على رسائل للدراسات العليا — ماجستير ودكتوراه تتعلق بالإصلاح الزراعي في الكلية المذكورة.
- نشر عدة بحوث عن الإصلاح الزراعي، والإصلاح القانوني في العراق.
- شارك في ندوات تتعلق بالاقتصاد وخاصة الاقتصاد الزراعي محلية وعالمية.
- شارك في مشروع إصلاح النظام القانوني في العراق.
- اختير عضواً في مجلس السلم الوطني منذ تألول تأسيسه في ١٩٥٤، ثم عضواً لمجلس السلم العالمي، وشارك في ندوات واجتماعات مجلس السلم والتضامن في قنصل عدة في آسيا وأوروبا وإفريقيا.
- كان مع الحركة الوطنية الديمقراطية منذ مرحلة الدراسة لثانوية وتحمل أعباءها:
- انضم إلى حزب الشعب سنة ١٩٤٦. \* سجن لمدة ٣ سنوات في سنة ١٩٤٨ بموجب الأحكام العرفية المعلنة إثر الثورة، قضى مدة سجنه في سجن الكوت ونقرة المسلمين. \* نفي إلى شفاثة (عين النمر) للفترة ١٩٥١ — ١٩٥٢. \* اعتقل في معتقل المسحية سنة ١٩٥٦ إثر العدوان الثلاثي على مصر. \* لوقف لمدة ١٣ شهراً إثر انقلاب شباط ١٩٦٣، وكان من ركاب قطار الموت إلى سجن نقرة المسلمين. \* كان قد أوقف لأول مرة لفترة سباعت في سنة ١٩٣٣ وكان بسر ١٣ سنة إثر إلقاه خطاباً في حفل المولد النبوي في جامع سراج الدين تند فيه بالاستصار الإنكليزي والصهيونية.
- كان شغوفاً بالعمارة وبالأهوار.
- كان صديقاً حميماً للحزب الشيوعي في الرأي والعمل.
- كرم الكثير من إمكاناته للحركة الوطنية لديمقراطية وشارك في الكثير من فعاليات على مختلف المستويات.

## هل طوت ثورة تموز ١٩٥٨ فصلها الأخير ؟

كامل شياح

الحاضر يخبرنا عن الماضي أكثر مما يخبرنا الماضي عن الحاضر، والظاهرة الأكثر تعقيداً تكشف أسرار الظاهرة الأقل تعقيداً، وليس العكس. من هذا المنظور سأنقلث ثورة الرابع عشر من تموز التي احتفل العراقيون بذكرها الخامسة والأربعين. الفكرة المطروحة هنا أن الحقبة الجمهورية الأولى التي دشنها تلك الثورة قد طوت فصلها الأخير يوم سقوط بغداد في التاسع من نيسان الماضي. في ذلك اليوم، حانت نهاية حاكم مستبد، وتهاوت صروح نظام شرس جلبت سياساته كوارث للعراق والمنطقة.



إلا أن القصة لا تقف عند هذه الحدود، فإزالة الحاكم ونظامه لتطوت، برأينا، على إزاحة المشروع التاريخي للحقبة الجمهورية الأولى. للترامن بين هاتين النهائيتين يبدو إشكالياً. فهناك اختلافات بيئية، ليدولوجية وسياسية، تميز الأولى عن الثانية، وهناك أيضاً تشابهات عديدة بينهما لا يصح إغفالها. فالثورة التي هيمن على سنواتها الأولى اتجاه برجوازي ديمقراطي وطني مدعوم من اليسار، انتقلت قيادتها إلى تحالف قومي بعثي هش تصالمت لجنحته بعنف قبل أن يستقر الأمر للبعثيين منذ عام ١٩٦٨. في سياق الانتقال صعد رجال وغُيب آخرون، وبرزت رموز وطُمست أخرى. أما المحصلة الأخيرة، التي تتجاوز دوار الرجال وأفعالهم، فجاءت بجواب حاسم على الصراع المحتكم بين الخطاب القومي والوحدوي والخطاب الوطني العراقي لصالح الأول. وهذا وجه أساسي من وجوه الاختلاف. أما عن التشابه فمن علامات موقف جزري إزاء القطاعات الاقتصادية الرئيسية (النفط، الزراعة والصناعة). ومن علامته أيضاً أن غلبة الخطب والشعار ما كانت إلا مسألة شكلية، الغلبة الحقيقية كانت للاستحواذ على السلطة والافتراد بها؛ وأن الميل إلى حكم مركزي صارم وجد تجسده طيلة خمسة وأربعين عاماً في التعامل مع قضايا المجتمع ككل، والقضية الكردية، بشكل خاص.

هكذا نجد أنه رغم اختلاف الأولويات، فإن العديد من المقدمات السياسية التي أرسنها ثورة تموز ١٩٥٨، ألّت فعلياً إلى نتائج اقترنت بحكم البعث. هل كانت تلك المقدمات تسمح بنتائج مخالفة؟ نعم، ولكن فقط على صعيد التصورات النظرية والاحتمالات المجردة، حيث لا حاجة



هناك، لأن نضع في الحيزان الضرورات الملموسة والمصادفات المفاجئة، ولا الظروف المتغيرة، ولا أدوار الأفراد. على هذا المنوال يمكن أن ننسج حكايات وروايات، لكننا سوف لا ندرک أين بدأ التاريخ الفعلي وأين توقف، ولا نقرب من مآنته الصلبة التي صنعتها تلك العوامل مجتمعة.

احتلال أمريكا للعراق حدث فاصل حول كل «الثورات» والانتفاضات والزعزعات، التي شهدناها العراق طيلة السنوات الخمس والأربعين الماضية، إلى تفاصيل في مسار حقبة واحدة، نسميها الحقبة الجمهورية الأولى. لنبدأ من البداية، ولنتوقف أولاً عند الحدث المؤسس لتلك الحقبة. في كتابه «طبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق» أورد حنا بطاطو ملاحظة عيفة، تستوقتي دلماً، فحواها أن ما حصل في العراق عام ١٩٥٨ لم يكن مجرد تغيير شكلي في الحكم. فالسؤال لم تقتصر على إنهاء الملكية وإضعاف مواقع الهيمنة الغربية على المشرق العربي، بل جلبت تأثيراً عميقاً لمصائر جميع الطبقات. لذلك يستخلص بطاطو أن «الثورة بتلقيا لبنية السلطة القديمة، وللشكيلة الطبقة القديمة، قد أخذت بالتوازن القلق بين مختلف الجماعات الأثنية والطائفية في العراق، وبشكل أساسي بين العرب والكراد، والشيعية والسنة، وذلك نتيجة لتباين مستويات التطور الاجتماعي لهذه الجماعات. لهذه الأسباب، علاوة على الانتفاضات المتكررة، فإن الثورة ما زالت في طور صيرورة، ومن غير المؤكد أنها ستبلغ حالة توازن اجتماعي دائم في المدى المنظور». (عن الطبعة الإنكليزية ص ٨٠٧)

حقاً، إن ثورة تموز ١٩٥٨ دشنت سياقاً تاريخياً يختلف جذرياً عما سبقه من نواحي قضائياً التي تبنتها، القوى المحركة لها، والأفق التاريخي لمشروعها التحرري. لنصف أولاً، بخطوط عريضة، تلك المحددات الثلاثة للثورة. فقضاياها الأبرز تمثلت في إنهاء الحكم الملكي ومعه التبعية للاستعمار البريطاني، استكمال عناصر السيادة والاستقلال، تقليص العلاقات الإقطاعية وتحرير الثروة النفطية، بناء نظام سياسي تمثيلي يتبنى الديمقراطية وحل القضية الكردية. أما قوى الثورة - فضمت أحزاباً علمانية، من برجوازية وطنية وشيوعية وقومية. وكان الجيش ذراعها الضارب. فيما يخص أفقها التاريخي فقد توفر على خلطة من أهداف بدت مترابطة في وقتها، حيث اقترن إتباع سياسة الحياد الإيجابي مع تقارب مع الدول الاشتراكية، وإقامة حكومة وطنية مع تمهيد لوحدة عربية، وتشجيع تمردية سياسية مع مفهوم تقليدي «كاريزماتي» للرئاسة.

والآن، بعد سلسلة من المنطفات الحادة والمغامرات الممطرة، يبدو أن تلك المحددات قد استنفدت زخمها، وبلغ العراق طريقاً مسدوداً. مؤشرات لاحقة في غزو الكويت عام ١٩٩٠، ثم تفاقم خلال سنوات الحصار القاسي الذي فعل فعله في شل النشاط الاقتصادي، وخلخلة سطوة الدولة (باستثناء وظيفتي القمع والفساد) والإخلال بتوازن المجتمع نتيجة إحياء العشائرية والطائفية وبروز ظاهرتي الفقر والألمة. بعد سقوط نظام صدام الذي كان للثورة المرة لبنة طيبة، نسأل: أما زالت هناك إمكانية عودة، للاستئناف أو للتصحيح، باتجاه مرحلة ثورة ١٩٥٨ بقضاياها وقواها وأفاقها؟ وهل يسمح الاختلاف بين الزمنين، وهو أمر لا يمكن تغليب موضوعاً، بالإدعاء إن الحقبة التاريخية طور التأسيس قد طوت سابقتها نظرياً، وتستسخنها فعلياً بصورة تدريجية؟ على السؤال الأول نجيب بالنفي، فليست هناك مهمة مركزية ثابتة تنتظر استئنافها، بل هناك

صيرورة مترجحة ومعقدة تتضمن ترجعا وتقدما دافعين. ولا يكفي الإقرار بحتمية دخولنا التاريخ العالمي للرأسمالية كي نسبغ التماثل على المرحلتين، لأن تلك قضية مفروغ منها. المهم هو تشخيص الأشكال المتاحة والحالات للظرفية لعملية الدخول. وهنا تجتمع مصادفات ومفارقات من شتى الأنواع، منها أنه خلال عمرها القصير، أنزلت ثورة تموز ضربة قوية بالعلاقات ما قبل الرأسمالية، ومهدت لسيادة الوعي المدني على الوعي الريفي، وعززت عوامل التماسك الاجتماعي والوطني مقابل عوامل التفتت للطائفي والقومي والأثني. أما اليوم، حيث المطروح هو التحول الحاسم صوب العلاقات الرأسمالية في الإنتاج، فنلاحظ أن الأساس السياسي والاجتماعي لهذا التحول يقتضي الاعتراف بالعلاقات التقليدية ما قبل الرأسمالية، وربما تكريسها إلى حين يطول أو يقصر. ولكوني لا أعتقد بالمسار الخطي للتاريخ (رغم إيماني بالتطور)، أظن أنه سوف لا يترتب، بصورة مباشرة، على التحول الجاري في العراق تفتت منظومة الولاءات التقليدية - العشائرية والدينية - والقيم الأبوية التي تعزى إلى نمط الحياة ما قبل للرأسمالي. الأرجح أن هذا التحول سيقود، ضمن المدى المنظور، إلى نموذج هجين (بالمقارنة مع نظيره الغربي) لعلاقة الدولة بالمجتمع، للتقاليد المتوارثة بأنماط الحياة الحديثة، اللذين بالسياسة؛ نموذج يؤمن شروط التبعية للرأسمالية «الفعلية»، دون أن يستهدف صهر مكونات المجتمع، الأصلية أو المصطنعة، في قالب سياسية جاهزة مستمدة من تراث النزعة الإنسانية والقيم الليبرالية. ومن تعايش العناصر المتناقضة لهذا النموذج، تبتثق نسختنا الخاصة من مشروع الحداثة التاريخية.

وعلى الثاني نجيب بالإيجاب. فثمة بوادر تحول تاريخي من دولة تسلطية أخذت مدياتها الكاملة في زمن حكم البعث، إلى دولة «ديمقراطية» طور للتأسيس. الأمر يتعلق بقصيتي الوظيفة الاقتصادية للدولة، وطابعها التمثيلي وسلطانها الفعلية. وهذا، برأيي، هو الخط الفاصل بين عهدين تاريخيين. خلال السنوات الخمس والأربعين الماضية، لم تتقاطع القضيتان المذكورتان بهذه الحدة، ولم تطرح مراجعة شاملة لمضمون الدولة الوطنية، لغرض الانتقال بها من دولة الحزب الواحد والقائد الواحد والأبيولوجيا الواحدة إلى دولة للشعب أو الأمة القائمة على التعددية وضمان الحقوق السياسية للأفراد والجماعات والقوميات والأعراق والطوائف. ولئن ثبت لنا الصعوبات الفعلية الجمة التي تعترض عملية الانتقال، فإن صورته قد حلت في المخيلة الاجتماعية لقطاع واسع من العراقيين. وإلا كيف لنا أن نفسر قبول فئات واسعة من المجتمع العراقي بعلاقات السوق، وبالخطاب السياسي المروج لها. ما يحصل في العراق اليوم يعيد إلى الأذهان ما حصل في مصر على يد أنور السادات، أو في دول أوروبا الوسطى والشرقية بعد سقوط النظم الاشتراكية فيها. بطبيعة الحال، فإن الاعتراف بهذا التحول لا يعني السكوت عن النتائج الضارة، اجتماعياً واقتصادياً، المترتبة عليه. وهنا نقطة الاختراق بين قوى اليسار وسواها من القوى.

من بوادر التحول تشير إلى المعطيات التالية:

— إن الاحتلال الأمريكي للبريطاني لا يمثل عملية عابرة، لأنه يشي بسمات تحول في تاريخ العالم نحو نظام جديد للهيمنة الإمبراطورية المترابطة مع ظاهرة العولمة المتسارعة للشروط الاقتصادية والسياسية والثقافية. ويمكن اعتبار العراق حقل اختبار لقدرة الإمبراطورية الأمريكية

على بناء دول حديثة بمواصفات مفروضة من الخارج، أي بمواصفات تتعارض، جزئياً أو كلياً، مع مفهوم كان سائداً للإرادة الوطنية المستقلة.

— لا يوحى برنامج إعادة البناء السياسي والاقتصادي المقترح للعراق أن هناك اهتماماً خاصاً بالمسألة الاجتماعية التي كانت من أولويات حقبة ثورة تموز.

— دخول الإسلام السياسي، والخصوصية الثقافية إجمالاً، كطرف في معادلة الصراع لتأسيس الدولة العراقية الجديدة. في حقبة تموز الممتدة لخمس وأربعين سنة، كان التمثيل السياسي للدين ذا طابع ضمني غير معلن. ولم يحدث قبل اليوم أن وضع شعار الحكومة الإسلامية موضع اختبار، كما لم يحدث أن حظيت قضية الديمقراطية والتعددية بهذه الدرجة من الإجماع.

— انكسار ما يسمى بالمشروع القومي العراقي، وظهور تمايزات ملموسة وانفراق فعلي، قد يكون مؤشراً، بين الخيار الوطني والخيار القومي العربي.

— زوال خطر الشيوعية على الصعيدين المحلي والدولي.

باختصار، ما يحصل اليوم لا يوحى باستئناف مهمة تاريخية كان قد طرحها الماضي، أو بعودة نحو برنامج شؤفه التطبيقات العملية أو خائفته التفسيرات السياسية. ما يحصل هو طرق إمكانية جديدة للتطور ضمن شروط الرأسمالية المعاصرة، وذلك عقب رحلة خائبة قادت دولة ما بعد الاستقلال ذات الأغلبية الأيديولوجية المتبانية. في تمييزي لحقبة ثورة تموز ٥٨ عن الحقبة الحالية، انطلقت من محدثات ثلاثة هي: القضايا الرئيسية، للقوى السياسية والأفق التاريخي. والمحدد الأخير أهمها، برليني، فهو يحتوي المحدثين الآخرين ويكيف محتوَاهما وتجلياتهما.

هذه الصورة الأولية عن نهاية حقبة وبداية أخرى مختلفة عنها جزئياً، تتجاذبها لغتنا الوصف والحكم اللذين لا يمكن أن يكونا حياديين ومجردين من الأغراض تماماً. والغرض الذي أدركه تمام الإدراك أن ما ذهبت إليه لا يرمي إلى التسليم بالأمر الواقع على حساب فكرة للتغيير، ولا يدعو إلى نبذ المبادئ والأيديولوجيات للنخول في منطق للمساومات والطول العملية. في الوقت نفسه، ما عاد مجدداً تكرار المسلمات الجاهزة عن الخصوصية والهوية والتحرر، وما يصدر عنها من ترجمات سياسية متبانية. المهمة المطروحة حالياً تدعو إلى إنتاج تلك المسلمات في شروط تاريخية جديدة، وضمن صراع مفتوح الأفاق. لا القومي ولا الإسلامي ولا الليبرالي ولا الماركسي هو نفس من كان يوم لم تكن أمريكا قد وضعت يدها على العراق.

تأشير الخطوط الفاصلة مع إشكاليات الماضي وإمكانياته غير المتحققة وأفاقه المتخولة، لا يعني نهاية الصراع على الحاضر والمستقبل. والصراع يدور حول الحريات الخاصة والعامة، حول العقلانية والعدالة الاجتماعية. ؟

— نُشر جزء من هذا المقال في جريدة (الحياة) بتاريخ ٢٦/٥/٢٠٠٣.

## من وثائق الحزب الشيوعي العراقي

الحزب وثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨

من بين الأيام التي أرخت لنهاية حقبة في تاريخ العراق الحديث، وكان الشعب يتطلع إليها، يبرز يوم الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨، يوم الثورة على النظام الملكي الموالي للاستعمار، ويوم التاسع من نيسان هذا العام، يوم انهيار المافيا الصدامية. وكان من المفروض أن تكون الفرقة بالنيار للنظام الصدامي أكبر الفرقات، فالفرح بلوغ المشتهى والمبتغى، حسب «تعريفات» الجرجاني، وما كان في تاريخ العراق مبتغى أكبر من انهيار النظام الذي خرب البلاد والعباد، خرب البشر والنخل سيد الشجر. لكن الفرقة في نيسان لم تكتمل، وما كان لها وقد حلت في القلب فرقة بسبب الاحتلال، الذي كشف عجز المعارضة في تحقيق الوحدة، أساس للنصر. وكشفت السرعة التي تم فيها الانهيار عدم ضرورة الحرب. الفرقة بتموز ٥٨ كانت فرقة جنون لأن الشعب كان هو الذي حقق للثورة عبر الجيش وجبهة الاتحاد الوطني، لا بالدخول الإمبراطوري ذي المآرب الأخرى.

وكان للحزب الشيوعي العراقي دور بارز في تلك الثورة، في الأعداد لها وكذلك في مسيرتها التي ما أكملت عامها الخامس. إلا أن مواقف الحزب خلال تلك الفترة شوهت تشويهاً كبيراً، من حلفائه كما من خصومه وأعدائه، على السواء.

(الثقافة الجديدة) تعيد نشر بعضاً من وثائق الحزب الصادرة أيام ثورة ١٤ تموز، التي تبين مواقفه من بعض المسائل المثارة آنذاك كقضية الوحدة العربية، والديمقراطية والقضية الكردية.

## توجيهات حزبية

[ نشرة داخلية ]

من المعلوم أن سياسة حزبنا كانت ولما تزال موجهة نحو تحقيق أقصى التضامن بين الشعب العراقي والشعوب العربية الشقيقة، وكذلك العمل من أجل أعلى أشكال الروابط وأمنها مع الجمهورية العربية المتحدة للشقيقة، والسير قدما في طريق تحقيق أهداف وأمان الأمة العربية، وعلى الأخص العمل نحو تحرير باقي أجزاء الوطن العربي وجمع العرب في وطنهم للواحد.

وهذه السياسة تنطوي بداهة على إلزام كل عضو حزبي سياسيا وأدبيا بالتصدي لكل دعوة معاكسة، ولكل مسعى يرمي إلى النيل من السياسة التي تنتهجها الجمهورية العربية المتحدة، أو شخص رئيسها — تلك السياسة التي يعرف جميع أعضاء حزبنا و جماهيرنا أننا بالرغم من تحفظاتنا على بعض جوانب هذه السياسة فإننا نؤيد تأييدا تاما وجهتها للتحررية المعادية للاستعمار. إن كافة أعضاء حزبنا ملزمون بالتقيد تقيدا صارما بسياسة الحزب وهم يعملون وسط الجماهير ومن واجبهم مقاومة مثل هذه الدعوات أو للمواقف الضارة، كما أن من واجبهم مقاومة مثل هذه الدعوات أو المواقف الضارة، كما أن من واجبهم التصدي لكل ما من شأنه أن يؤدي إلى خلق أي نوع من الجفاء والنفرة بين الشعوب العربية الشقيقة ولا سيما بين شعبي الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة.

لقد أكدنا ذلك كله في جملة بيانات أصدرها حزبنا... وهانحن نؤكدها مرة أخرى ونطلب التقيد بها تقيدا صارما.

بغداد ٣٠ تشرين أول ١٩٥٨ المكتب السياسي

- ٢ -

من بيان الحزب الشيوعي العراقي

## في الذكرى الرابعة لثورة الرابع عشر من تموز

إن ثورة الرابع عشر من تموز جاءت نتيجة حتمية لتطور الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلادنا بالارتباط مع الظروف العربية والعالمية، إن النضال الوطني الذي خاضه شعبنا طوال عشرات السنين وقدم خلاله أركى الدماء التي أرخصها في سبيل الشعب والوطن آلاف الشهداء، ما كان من الممكن إلا أن يؤدي إلى نتيجة منطقية يفرض فيه الشعب إرادته

ويسحق أعداءه ويحقق أهدافه الوطنية الكبرى التي تبلورت خلال مجرى الكفاح. ولقد كانت ثورة الرابع عشر من تموز هي هذه النتيجة المنطقية. وحال انطلاق شرارة الثورة انتفع الشعب العراقي وجيشه بالمثل برمته بعربه وأكراده وسائر أقليته، بجميع طبقاته وقواه الوطنية برجاله ونسائه لتأجيج هذه الشرارة المباركة ولدفعها إلى أمام. لأن الطابع الجزري والحاسم للثورة في ساعتها الأولى هو الدليل المقنع على أن الثورة كان قد اكتمل نضجها على أفضل ما يكون عليه هذا النضج، ولقد كانت هذه الجزرية والحزم سر لتتصارها للخاطف الذي هد من الأساس ما كان يبدو أقوى قلعة للاستعمار والرجعية في هذه المنطقة من العالم. إن ثورة الرابع عشر من تموز جاءت نموذجاً مفعماً بالوعي والحيوية للثورات ضد الاستعمار والأحلاف العسكرية وضد الإقطاع والرجعية، ولقد قدمت خدمات مباشرة كبرى لحركة التحرر العربي ولقضية الحرية والسلام في العالم، وكان لا بد لمثل هذه الثورة أن تستمر كميل عاصف جارف لذلك للقلاع المعادية ولبلوغ أهداف الشعب. إن البيان الأول للثورة وكذلك تركيب الحكومة التي أعلنتها حينئذ يبرران إلى حد بعيد بأن الثورة في بدايتها لم تضع نصب أعينها سوى ذات الأهداف التي كانت تتبناها وتتاضل من أجلها الجماهير الشعبية بالاستناد إلى وحدة جميع القوى المعادية للاستعمار والإقطاع والرجعية، ولكن هذه الحقيقة لا تعني أن اتجاه الحكومة أو اتجاه بعض عناصرها وأفرادها كانت بمستوى اتجاه إرادة الشعب، إنها في الواقع كانت دون هذا المستوى بكثير وهذه الحقيقة هي التي تلقى الضوء على السبب الذي من أجله لم تستجب الحكومة لكثير من المطالبات الشعبية إلا بصورة متدرجة وتحت الضغط الشعبي المتصاعد، كما تفسر هذه الحقيقة سبب تخلف وارتداد بعض الأطراف أو العناصر التي ساهمت في الثورة.

إن الاستعمار وأعدائه الذين باغتهم الثورة كزلال صاعق سرعان ما أنزلوا جيوشهم في الأردن ولبنان، وسرعان ما حركوا أساطيلهم لتهديد جمهوريتنا الفتية الباسلة، ولكن انطلاق الشعب ويقلته وحزمه وتضامنه للشعوب العربية وسائر شعوب العالم وبوجه خاص الدور الحاسم الذي نهض به نصير شعبنا الاتحاد السوفييتي كل ذلك أحبط محاولات التدخل العسكري الاستعماري.

وبعد الضربة الماحقة التي وجهت لأعداء الاستعمار في الداخل وبعد خذلان تهديد العسكري الخارجي حاول أن يستفيد من التناقضات بين قوى الثورة ذاتها، كما علق آماله في صد اندفاع الثورة للكاسح على أولئك الذين عملوا بنشاط وسرعة من أجل تهريب شعارات وأساليب حكم دكتاتورية رجعية يشبث بها قيادة العربية المتحدة للتقصير والنظر، إن هذه المساعي مهما كانت دوافعها لعبت دورها في إظهار ما دعت له الدوائر الاستعمارية في حينه بأن «الثورة تآكل نفسها»، كما كان من شأنها تهديد الاستقلال الوطني للبلاد.

وعبر الكفاح لصد هذه المؤامرات للرجعية استطاعت الجماهير الشعبية أن تمارس عملياً القسط الكبير من حقوقها وحرّياتها الديمقراطية، كما شرع عدد من التشريعات الهامة التي تؤمن جانباً من حقوق الشعب أهمها تشريع قانون الإصلاح الزراعي وتشريعات للتنظيم النقابي والفلاحي... الخ. وفي مجرى هذا الكفاح الثوري كان لا بد للثورة أن تتقدم خطوات جديدة كبرى

إلى أمام. فأعلن خروج العراق رسمياً من حلف بغداد وألغيت الاتفاقية الثنائية مع بريطانيا وأعلن الانفكاك من مبدأ أيزنهاور زمن اتفاقية الإستراتيجي وعقدت اتفاقيات اقتصادية وتجارية وثقافية هامة مع الاتحاد السوفييتي وسائر البلدان الاشتراكية. وأعيد تسليح جيشنا بصورة كاملة على أسس هذه الاتفاقيات وزود بأحدث الأسلحة وأكثرها فعالية. واستناداً إلى تطور الأحداث بعنذ يمكننا أن نقول بأن الحكومة في تلك الفترة لم تطلق بعض الحقوق والحريات الشعبية بسبب من اقتناعها بمثل تلك الإجراءات أو بالديمقراطية باعتبارها أحد أهداف شعبنا في نضالاته الطويلة أو ثورته المباركة، بل أنها قد اضطرت على اتخاذ مثل تلك الخطوات لتقوية مركزها وسلطتها التي كانت تهددها المؤامرات الاستعمارية والرجعية. وعندما تصاعد المد الثوري الشعبي وانحسرت إمكانات القوى الرجعية والمغامرة على تهديد الاستقلال والحكم الوطني سرعان ما انحرف اتجاه الحكومة في سياستها الداخلية، فبدلاً من سياسة الاستناد إلى الشعب المتمتع بحرياته ضد التهديد والمؤامرات الرجعية اتجهت تدريجياً إلى سياسة الاستناد على القوى الرجعية لإخماد المد الشعبي ولقمع الحقوق والحريات الديمقراطية. وفي سبيل أن تبرز الحكومة هذا الانحراف في سياستها حاولت الحكومة تدريجياً أن تزور تاريخ نضال الشعب وأن تشوه أهداف ذلك النضال وأن تطلق ذات الكلاب السائبة التي اعتمد عليها النظام الملكي للمباد وميثاق بغداد لنهش القوى الوطنية المخلصه. وعندما يريد المرء أن يسلك سبيلاً سيئاً يستطيع دائماً أن يجد المبررات المتهافئة أو أن يفعل مثل هذه المبررات.

..... لقد دأبت السياسة الرسمية على إنكار نضالات الشعب البطولية وتضحياته الغالية طوال عشرات السنين والاستهانة بها وكذلك كان من الكفاح المجيد الذي خاضته جبهة الاتحاد الوطني وسائر قواها المخلصه ضد النظام الملكي الاستعماري الإقطاعي المباد. كما شوهدت أهداف الشعب، وبوجه خاص إرادته في تحقيق حقوقه وحرياته الديمقراطية وفي إقامة نظام حكم ديمقراطي وطني سليم.....

كما نفنت بصورة مستمرة سياسة اضطهاد وقمع للمنظمات والفعاليات والجمعيات المهنية الوطنية بمختلف سبل التزوير والتلاعب اللفظ والمهازيل المعروفة، رغم أن الحكومة قد ركزت قسماً وأساليبها البربرية منذ أكثر من ثلاث سنوات ضد الشيوعيين وضد سائر التقدميين، إلى أن نزوة احتدام التناقضات بين القوى المعادية للاستعمار تجد تعبيرها في المصالحات المسلحة الدائرة الآن بين الحكومة والقوميين الأكراد والتي تتحمل الحكومة للمسؤولية الأولى والتي هي أضعف وأخطر نقطة يعانيها الوضع في الطرف الراهن والتي يحاول الاستعمار استغلالها وتعميقها بغية إضعاف الحكم والقوى الوطنية مجتمعة، تمهيداً للوثوب إلى الحكم ولسلب الاستقلال ومكتسبات الثورة.

.....

ورغم أن الحكومة اتخذت بعض الإجراءات الصحيحة ضد شركات النفط الاحتكارية إلا أنها بسبب من وضعها الداخلي المضطرب وغير المعتمد على الشعب المتمتع بحقوقه وحرياته لم

تستطع أن تسير إلى مدى أبعد في انتزاع حقوقنا الوطنية المغتصبة وما زالت استيراداتنا الرئيسية وبنسب عالية تعتمد على السوق الاستعمارية العالمية بينما يجمد الكثير من اتفاقاتنا التجارية مع الدول الاشتراكية والمستقلة وسياستنا العربية لا تتجه لخدمة نضال الشعوب العربية ونضامنها ضد الاستعمار وحسب، بل تعرض كذلك للأهواء والمناورات للتصيرة النظر. لقد كان من المناسب لإثارة قضية التخلص من السيطرة الاستعمارية في الكويت وهي قضية عادلة ويمكن تعبئة التضامن العربي والعالمي على أفضل وجه في سبيلها، ولكن الحكومة التي أثارته ركزت على مسألة ضم الكويت للعراق قسراً من دون اعتبار لإرادة الشعب فيها والحكومة بذلك قد حجبت بفنار كثيف القضية الرئيسية العادلة في تحرير الكويت وغيره من بلدان الخليج من الاستعمار ومن حكامه الرجعيين عملاء الاستعمار ولم تساعد على تأمين التضامن العربي والعالمي على أفضل وجه، بل أساءت إلى هذا التضامن بإثارته وتأجيجه للمطامع الإقليمية.

.....

إننا ندعو الشعب بكافة قواه الوطنية، بكافة قومياته، بكافة طبقاته، برجاله ونسائه لكي يتخذ من الذكرى الرابعة للثورة منطلقاً جديداً وحافزاً كبيراً وتشديد نضاله والعمل على تأمين وحدته في هذا النضال من أجل صيانة الاستقلال الوطني وحل أزمة كردستان حلاً سلمياً ديمقراطياً عادلاً وإرساء الحكم الوطني على أسس ديمقراطية سليمة بإنهاء ما يدعى بالفترة الاستثنائية وإطلاق الحريات الديمقراطية. وبدعوة مجلس تأسيسي بانتخاب مباشر عام وسري لإقرار دستور دائم وبقيام مجلس وطني تنبثق عنه حكومة ديمقراطية.

المجد للذكرى الرابعة لثورة تموز الوطنية الكبرى، ثورة للشعب وجيشنا الوطني الباسل.

المجد والظفر لشعبنا العراقي العظيم، بعربه وأكراده ومناظر أقليته في نضاله الموحد من أجل تحقيق الأهداف الكامنة لثورة تموز الديمقراطية الوطنية.

بغداد ٨ تموز ١٩٦٢ الحزب الشيوعي العراقي

(نقلًا عن : سلام عادل سيرة مناضل الجزء ٢ / الفصل ٤٨)



## الحزب الشيوعي العراقي

## حزب للديمقراطية والتجديد

هادي محمود

من الناحية النظرية، يعتبر التجديد سمة ملازمة للحزب الشيوعي وتكوينه وسياساته، انطلاقاً من منهجه الفكري واسترشاده بالماركسية والمنهج المادي الجدلي الذي ينظر إلى المفاهيم والمقولات الفكرية بوصفها انعكاساً للواقع. ذلك يتطلب، بل ويفرض، الاحتكام إلى نبض الحياة بكل تعقيداتها وتناقضاتها ومستجداتها، ومعرفة القوى الحيوية المؤثرة فيها والفرز الاجتماعي الطبقي المستمر، والذي يعني أيضاً الابتعاد عن الأحكام الجاهزة والمبسطة والتحليل السطحي والأحادي للظواهر الاجتماعية الجديدة، وتجنب الأجوبة الجاهزة للأسئلة المعقدة التي تطرحها الحياة باستمرار. وإذا كان هذا الكلام يمتلك قدراً كبيراً من الصحة، في حدود النظرية، فإننا لو عدنا إلى التاريخ الفعلي للقضية داخل الحزب الشيوعي العراقي، نجد ثمة افتراقاً بين النظرية والممارسة التاريخية. فالتجديد ظل ولغاية نهاية الثمانينات بمثابة «هرطقة» عند الكثيرين. ولهذا السبب كانت هناك حاجة ملحة من أجل إزالة الفجوة بين الأفكار المجردة والتطبيق العملي، استناداً إلى الماركسية التي تتناقض مع الجمود ومع فكرة الوصفة الجاهزة الصالحة للتطبيق في كل زمان ومكان. والمنهج الماركسي يعني قراءة الواقع وتحليله كما هو، والابتعاد عن الرغبة الذاتية والإرادية في التعامل معه. وبخلاف ذلك يتحول المنهج إلى أداة لتبرير الواقع، عوضاً أن يكون دليلاً للتغيير الثوري.

كثيرة هي المقولات الواردة في أعمال المفكرين الماركسيين، والتي تؤكد على الاحتكام لسيرورة الحياة. فعلى سبيل المثال يشير أنجلز بوضوح في مقدمة الطبعة السادسة للبيان الشيوعي، بعد ٢٣ عاماً من إعلان البيان للشيوعي وعلى أثر تجربة كومونة باريس، إلى «أن جزءاً من هذا البيان قد شاخ»، وينوه لينين بمقولة لاسال «الحياة خضراء والنظرية رمادية».

والتجديد في سياسات الحزب الشيوعي العراقي وفي برنامجه وفي حياته لاداخلية ليس بدعة

جديدة في الماركسية، أو مجرد شكل من أشكال التكيف مع ما جرى في العالم بعد انهيار تجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي السابق ودول المنظومة الاشتراكية، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الانهيار أثار الكثير من التساؤلات، وتزامن الحديث عن التجديد مع فترة البيروسترويكا في الاتحاد السوفيتي.

لقد واكبت سياسات الحزب الشيوعي وبرامجه منذ تأسيسه بشكل أو آخر متغيرات الوضع العراقي والإقليمي والعالمي. وصاغ الحزب شعاراته وبرامجه ونظامه الداخلي وآليات عمله في أكثر الأحيان وفق هذا الواقع المتغير دون أن يطلق على هذه العملية والممارسة الحزبية سابقاً اسم التجديد، لأنها لم تجر ضمن عملية تتناسق منظم مستمر بشكل شامل ودائم.

وجرت في فترات تاريخية عديدة محاولات تجديدية في الطروحات السياسية وفي تقييم سياسات الحزب السابقة، أو في مجال تجديد الهياكل القيادية، حققت نجاحاً محدوداً لأنها افترضت إلى الاستمرارية والتواصل والشمولية، ولكونها جرت وفق آليات عمل بالية لم تستوعب توسيع وتمحيق الديمقراطية الحزبية الداخلية وتفعيل دور العضو الحزبي في كل شأن يتعلق بمشاركته في صياغة سياسات الحزب ونهجه. ومن تلك الإجراءات إلغاء المراتبية الحزبية بعد المؤتمر الرابع للحزب عام ١٩٨٥، والخطوات التي كان الهدف منها تجديد القيادة الحزبية.

والحديث عن التجديد بهذا المعنى لا يعني الرضا عن النفس وعدم وجود قراءات خاطئة للحزب كقوة اجتماعية في هذا المرقق أو ذلك على مدى تاريخه النضالي الطويل، وكان الحزب سابقاً في تقييم سياسته والإشارة إلى أخطائه. وأشار في أكثر من مناسبة بأن ليس لديه ما يخفيه عن الشعب.

لم يبق للتجديد في الحزب الشيوعي العراقي في الإطار السابق الذي أشرنا إليه. فقد اقترن اسم التجديد كضرورة وحاجة موضوعية أصيلة، بالديمقراطية، وهي العملية التي بدأت في الحزب منذ نهاية الثمانينات بصورة منظمة، لمواجهة الإشكاليات الجديدة التي واجهها سواء على الصعيد الداخلي الوطني أو تلك التي طرحها واقع الرأسمالية المتغير، ومن أجل معالجة الأزمة التي عانى منها على مختلف الأصعدة التنظيمية والسياسية والفكرية، ولكي يكون حزباً للمستقبل. وقبل أن تصبح هذه العملية نهجاً واضحاً في الحزب بعد إقراره في المؤتمر الوطني الخامس المنعقد في عام ١٩٩٣، والذي أطلق عليه مؤتمر الديمقراطية والتجديد، انغمس الحزب قبل ذلك التاريخ في نشاط تنظيمي وفكري وسياسي شامل، رغم صعوبات العمل المختلفة. فقد جرت لانتخابات لاختيار بعض الهيئات القيادية في الخارج، كما عمم مكتبته السياسي في أيلول ١٩٨٩ نشرة دعت منظمات الحزب والرفاق الممنعين إلى المساهمة مع قيادة الحزب في سعيها لإعادة صياغة الوثائق البرنامجية وتحقيق المفاهيم وتطوير استنتاجاتها وحصولها تجربتنا للنضالية.

كما أكدت اللجنة المركزية للحزب في تقريرها الصادر في آذار ١٩٩٠ بشكل ملموس على (أن إقرار حزبنا بالضرورة الموضوعية للتاريخية لعملية التجديد وطابعها الشمولي الخلاق، ينطوي على وعي بالمخاطر التي تحيط بها. وتلازمها، وتناقضاتها، والعوامل التي تتحكم بمجرها،

وتكبحها أو تغير وجهة جريتها، مما يستلزم التأكيد على قيم الاشتراكية وأفضليتها، والاسترشاد بالروح المبدعة والأسلوب الجدلي لمؤسسي الماركسية - اللينينية...).

وأقر اجتماع اللجنة المركزية للحزب في أيلول ١٩٩١ مشروعاً للوثيقة البرنامجية للحزب والنظام الداخلي، كما جرى تناول موضوعة التجديد في عام ١٩٩٢.

وبهذا المعنى كان نهج الديمقراطية والتجديد خياراً منظماً وموجهاً، استناداً إلى الماركسية، لا باعتبارها فكرة منجزاً ومعرفة نهائية تحيط بالواقع من كل جوانبه، ولكن كمبادئ عامة اغتنت بالممارسة الثورية. إلا أن ذلك لا يعني عدم خضوع مسارات هذه العملية داخل الحزب لمفردات الصراع الحزبي الداخلي على مستوى القيادة وفي إطار المنظمات، ولتأثيرات القوى السياسية المختلفة.

ضمن هذه الواجهة للصراعية حول عملية التجديد تبلورت اتجاهات أساسية، شخصها المؤتمر السادس للحزب عام ١٩٩٦ بالصراع بين التيارات الثلاثة (العممي، المحافظ، والتجديدي)، وقد اتسم هذا الصراع بشكل ديمقراطي للتيار التجديدي، من دون أن تترتب على ذلك إمكانية إغلاق الصراع وإيقافه حول هذه العملية مستقبلاً بأي شكل من الأشكال.

إن نهج الديمقراطية والتجديد الذي جرى العمل على ديمومته وإغنائه من المؤتمر الخامس وفي المؤتمرين السادس ١٩٩٦ والسابع ٢٠٠١ وفي الكونغرسات الحزبية جعلت من الوثيقة البرنامجية للحزب أكثر دقة في التعبير عن حركة الواقع، وأكثر عمقاً في التعرف على خصائصه الملموسة، وفهما لتاريخ وتراث شعبنا، واستيعاباً لفعل قوانين التطور الاجتماعي بعيداً عن الإرادية والنظرة الميكانيكية والجمود المقاتدي.

وتميز الخطاب السياسي للحزب بالواقعية والمرونة في التعامل مع الأحداث. ويستمر الحزب في مسعاه لمصياغة سياساته عبر التفاعل مع مزاج الجماهير ومطالبها واستعدادها للنضال، مع أخذ موازين القوى المحلية والإقليمية والدولية بنظر الاعتبار.

لم يتعامل الحزب في مسألة التجديد بشكل عفوي اعتباطي أو وفق منهج انتقائي. فبوصفه حزباً للتغيير الاجتماعي، اعتمد في هذه العملية على المنهج المادي الجدلي، وبذلك تجنب العشوائية والفوضى. ففي مجرى تقيمه للعملية، أشار تقرير المؤتمر الوطني السابع للحزب إلى ضرورة تجنب «كل ما يشيع الإرباك والجدل المعيق الذي لا يستند إلى الواقع الموضوعي وملموساته وحاجاته الفعلية». وأكد «أن هذه العملية ليست تهويمات وقفزاً في المجهول، أو تجارب على مصائر الناس، أو لهاثاً وراء صراعات لا تساندها وقائع. وإن أحد شروط نجاح العملية وضمان تواصلها هو التخلي عن تغليب الأثنية الذاتية والعزلية وضيق الصدر والعمل من أجل تطابق الأقوال مع الأفعال، واحترام حقوق الآخرين واعتباراتهم».

ووفق هذا المنهج جدد الحزب هويته الفكرية ليصوغ برنامجاً كما جاء في وثائق المؤتمر الوطني السابع «استناداً إلى دراسة الواقع الطبقي والقومي والديني والسياسي للمجتمع العراقي

المعاصر والتطورات الجارية فيه، مسترشداً بالماركسية، مستفيداً من سائر التراث الإنساني الاشتراكي، ومستهدفاً تحقيق المصالح الجذرية لشعبنا عمالاً وفلاحين وكسبة ومتقنين، وكل شغيلة اليد والفكر. ويجمع الحزب في صياغة برنامجه بين الخصائص الوطنية لشعبنا، والمسؤولية التاريخية إزاءه وبين التزاماته القومية إزاء حركة التحرر الوطني والديمقراطي والاجتماعي للشعوب العربية، والتزاماته إزاء الحركة الوطنية التحررية الكردستانية، ومسؤوليته تجاه حركة التقدم والديمقراطية والاشتراكية في العالم وتمسكه بالخيار الاشتراكي».

ويرى الحزب أن الاسترشاد بالماركسية في سياسته وتنظيمه ونشاطه، لدراسة الواقع والسعي إلى تغييره — كما هو وارد في نظامه الداخلي — لا يعني الاقتصار على ما أنجزه ماركس وإنجز فقط، بل يعني الاسترشاد والاستفادة من إسهامات كافة المفكرين الاشتراكيين وتجارب الحركة الاشتراكية العالمية، وكل الذين تبنا تلك المبادئ الموجهة، وعملوا على تطويرها وإغنائها عبر اندماجهم في الحركة الثورية للتقدمية لبلدانهم. كما يستقي الحزب ويغني ثروته الفكرية «من التراث والقيم الحضارية لشعوب ولادي الرافدين وتراث الشعبين العربي والكرد في القوميات والأقليات القومية الأخرى في وطننا، ومن منابع الحضارة الإنسانية، وكل ما هو نافع في أفكار وتجارب الأحزاب الشيوعية والعمالية، والحركات والتنظيمات الوطنية والديمقراطية والاشتراكية المختلفة».

كما تخلى الحزب عن المفاهيم النظرية التي لم تركبها الحياة. فجرى التخلي في برنامج الحزب منذ المؤتمر الوطني الخامس عن قوانين الانتقال إلى الاشتراكية ومفهوم ديكتاتورية البروليتاريا، دون أن يعني ذلك التخلي عن الخيار الاشتراكي في المستقبل وذلك إدراكاً منه لواقع أن التطور الرأسمالي الأخر بالتناقضات والاستغلال لن يحل أزمة المجتمع. وفي المقابل انخرط الحزب من خلال هباته المختصة للمساهمة في صياغة فهم الجديد للاشتراكية المبنية أساساً على إنهاء الاستغلال وتحقيق القيم الإنسانية وكرامة الفرد وإشاعة الديمقراطية وإيداع الجماهير ومساهمة المنتجين الأحرار فيها، انطلاقاً من القناعة بعدم وجود اشتراكية حقيقية بدون ديمقراطية حقيقية.

ولا يزال الحزب يعتبر الأبواب مفتوحة أمام مناقشة فكرة الاشتراكية، وهو يمتلك تاريخاً حافلاً بالنضال من أجلها، ويسنده في ذلك النضال شيوع فكرة العدالة الاجتماعية وتأسيسها في فكر شعوب المنطقة وطموحاتها بصورة عامة وشعوب بلاد الرافدين بصورة خاصة منذ آلاف السنين. ويبني الحزب تصوره حول الخيار الاشتراكي على أساس كون الاشتراكية عملية حياتية وتنموية مستقبلية (ذات طابع صيروري غير منجز ومتجدد. دوماً) ومتجددة بتجدد الحاجات البشرية وسبل توفيرها. ويتطلب الأمر مرحلة طويلة من البناء الديمقراطي في المناحي السياسية والاجتماعية واستمرارها في عملية ارتقاء دائم من خلال النضال ضد اللامساواة السياسية والاجتماعية وضد مظاهر اللاديمقراطية والتوزيع غير العادل للثروات وغيرها من عيوب الأنظمة المبنية على الجشع والاستغلال. كما إن الطابع العالمي لعولمة الرأسمالية المتوحشة

يتطلب تضامير النضال ضد شرورها على الصعيد العالمي وعلى صعيد كل بلد بشكل ملموس وينصب هذا النضال أساساً في خدمة للنضال من أجل الاشتراكية على الصعيد الوطني.

وجدد الحزب هويته الطبقية منذ المؤتمر الوطني الخامس لتصبح في المؤتمر الوطني السابع «اتحاداً طوعاً لمناضلين تجمعهم الماركسية ويكرسون طاقاتهم لقضية الطبقة العاملة وسائر فئات الشعب، وأهدافها في تأمين التطور الديمقراطي الحر والمستقل للبلاد، ولتحقيق التحولات الاجتماعية وصولاً إلى الاشتراكية فيها».

ومنذ المؤتمر الوطني الخامس للحزب يجرى العمل بآليات جديدة تضمن فهماً جديداً للمركزية الديمقراطية بنيد المركزية البرورقراطية. ويتجسد هذا الفهم الجديد في تأمين حقوق أعضاء الحزب وهياتها وتفعيل مساهمتهم في رسم وتنفيذ سياسته وصياغة توجهاته، مع التأكيد على المركزية والقيادة الجماعية، والتخلي عن المراتبية الحزبية، ونيد للفدية والأوامرية والأساليب البرورقراطية، مع ضمان حق الأقلية في مناقشة سياسة الحزب وشؤونه الداخلية، ولإدعاء اعتراضاتها عليها أمام المراجع الحزبية المسؤولة، بما فيها المؤتمر، والتعبير عن رأيها في الصحافة الحزبية. كما شجع الحزب بشكل عملي الحوارات والتفاسات الفكرية لدخل صفوفه وفي صحافته دون تحفظ وفق مبدأ علنية الفكر والسياسة، ودون اشتراط كون تلك الطروحات منسجمة مع السياسات الرسمية للحزب. وقد توسعت فعلياً دائرة المساهمين الفعليين في رسم وصياغة سياسة الحزب لتشمل جمهوره الحزبيين وأصدقاء الحزب والكفالات الفكرية الوطنية المختصة والمهتمة بمصير شعبنا وتقدمه وسعادته. ومارس الحزب أسلوب الاجتماعات الموسعة في قيادته، وجرى استشارة الكادر الحزبي، إضافة إلى الاستفتاءات الحزبية في القضايا الحيوية والمصيرية. وهيات هذه الآليات الأرضية المناسبة لإدارة سليمة للصراع الفكري لداخلي.

ترسخت خلال السنوات الماضية تقاليد سليمة وديمقراطية في جوانب حياتنا الحزبية، كانتظام عقد الكونفرنسات والاجتماعات الموسعة في عموم هيات الحزب (عدا المنظمات التي منعها ظروف للنشاط السري الناتجة عن القمع الفاسي للنظام السابق). كما تم إجراء الانتخابات الدورية على أساس الترشيحات الفردية، وممارسة النقد والنقد الذاتي الموضوعي والبناء، وانتظمت عملية تزويد منظمات الحزب بالمعلومات والتقارير عن نشاط الهيات القيادية وتيسير مهمة مراقبة أدائها، بما يعزز المصارحة والعلنية وفق ما كانت تسمح به ظروف عمل الحزب قبل سقوط الديكتاتورية. كما نشرت مشاريع لوثائق، وعقدت المؤتمرات الوطنية والكونفرنسات المركزية المنتظمة، استناداً للشرعية الحزبية وأحكام النظام لداخلي، وجرى انتخاب الهيات القيادية في كل تلك الفعاليات بأسلوب الترشيح الفردي وبمبدأ عن القائمة الحزبية. كما جرى اعتماد صيغة الاستفتاءات الحزبية لزاء قضايا سياسية ذات طابع عقدي وهام.

وفي سياق عملية الديمقراطية والتجديد جرى تنقيح سياسة الحزب من المسألة القومية، وتبنى الحزب موضوعية الفيدرالية للعلاقة بين كردستان العراق والمركز في عراق ديمقراطي تمديدي موحد. وإدراكاً لخصوصيات القومية جرى تطوير منظمة إقليم كردستان إلى الحزب الشيوعي

الكرديستاني - العراق والذي أبرز نضال الشيوعيين الكرديستانيين ومساهماتهم الفاعلة في قضية شعبهم.

إن مسيرة الديمقراطية والتجديد لم تنته في الحزب. ومتى ما وصلنا إلى القناعة بأننا بلغنا غاية التجديد، نكون قد توقعنا عنه. فهو عملية حياتية غير منجزة بمعناها الليككتيكي.

لقد قيم المؤتمر السادس الحزب بشكل ملموس حصيلة عملية الديمقراطية والتجديد، إذ وصفها بـ «أن حصيلة تجربتنا منذ المؤتمر الوطني الخامس حتى الآن تؤكد أن عملية التجديد وترسيخ الديمقراطية هي عملية عسيرة ومعقدة، بسبب بعض المفاهيم النظرية المشوهة، وقوة العادة وما تركته التقاليد والممارسات السابقة من آثار يصعب تجاوزها بسهولة وبفترة زمنية قصيرة. هذا إلى جانب التأثير السلبي للظروف الموضوعية في بلدنا، وعموم الأجواء المحيطة بعمل الحزب، والمتعلقة بنظام القمع والإرهاب، ومستوى التطور الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي». وجرى التأكيد في المؤتمر الوطني السابع بأن «الديمقراطية والتجديد عملية معقدة، شاملة، متواصلة، لا تقف عند حد. فهي مستمرة ما بقيت الحياة متغيرة متطورة. وإن من واجب حزب الشيوعيين أن يكون متفاعلاً مع الحياة ومعطيات تطورها الملموسة».

ولا تزال أمام الحزب مسيرة طويلة لتجديد فكره، وتطوير بنيته وطروحاته السياسية وأساليب عمله. ولا شك أن في الأجواء الحالية التي نتيج له تماساً مباشراً مع الجماهير، وحرية العمل العلني في كافة أنحاء الوطن، حوافز أساسية للمضي في نهج التجديد. وتطرح عليه الظروف المستجدة الاستفادة القصوى من طاقات مثقفي ومفكري شعبنا لمعالجة نواقص العمل الفكري، وبالأساس في ميدان البحوث والدراسات النظرية.

لقد حقق الحزب خلال السنوات التي أعقبت مؤتمره الوطني الخامس ما أمكن الاتفاق عليه بشكل ديمقراطي من خلال إرادة أعضائه باعتباره حزباً للعمل الثوري والتغيير الاجتماعي. وترك الباب مفتوحاً أمام الكثير من القضايا لدراستها مستقبلاً، وتم إيجاد الآليات اللازمة لمواصلة النقاش عبر تهيئة أوراق العمل والمشاريع الفكرية حول القضايا المعقدة والأمور التي تخص مستقبل الشيوعيين وخياراتهم الاشتراكي. ومن القضايا المطروحة للنقاش:

- سبل تعزيز الديمقراطية في المجتمع وكيفية إشراك الناس في السياسة من أجل تحقيق البديل الديمقراطي كمقدمة للبديل الاشتراكي.

- العلاقة مع اليسار الديمقراطي العراقي في الوضع الراهن وفي المستقبل؟

- تصور الحزب للاشتراكية، وتعميق مفهومها في ظل التطورات المعرفية والاجتماعية المتسارعة.

- كيفية مواصلة عملية الديمقراطية والتجديد، وطرق التعامل مع التنوع والاختلاف في الآراء بشأنها داخل الحزب.

- اسم الحزب وهويته الفكرية والطبقية وشعاراته.

— تجربة آلية العلاقة بين الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي الكرديستاني — العراق، وأفاقها المستقبلية.

— أفاق ومستقبل القضية الكردية وتأثيرها على المنطقة.

— العلاقات الأممية بين الأحزاب الشيوعية واليسارية وسبل النهوض باليتها على أسس سليمة.

— مستقبل التنمية وأفاق حركة التحرر والديمقراطية في العالم العربي، وآلية العلاقة بين ما هو وطني وما هو ديمقراطي، في ظل للتغيرات البيئية الحاصلة في العالم العربي.

إن المهام السياسية الآتية التي يشخصها الحزب في الوضع الراهن، وفي مقدمتها مهمة الإسراع في إنهاء الاحتلال، وتصفية مخلفات الديكتاتورية، وتشكيل الدولة العراقية وفق أسس النظام الديمقراطي التعددي الفيدرالي، من شأنها تعزيز وجهة الديمقراطية ولتجديد داخل الحزب. فثمة علاقة لا تنفصم بين تعزيز الديمقراطية السياسية في المجتمع وإشاعة الديمقراطية ولتجديد في الحزب.

إن تحقيق تلك المهام السياسية الآتية الملحة، يستوجب وجود حزب شيوعي عراقي متجدد في طروحاته، مستلهم لكل ما هو نير وتقدمي في تاريخ وتراث شعبه. حزب مرن في سياسته، واضح في برنامجه، ديمقراطي في علاقة أعضائه ببعضهم ومع الآخرين.

والحزب الشيوعي العراقي، بما يملكه من خبرة نضالية، جديرٌ بأن يكون حزباً للديمقراطية والتجديد. ؟

## البعد التاريخي والعقائدي للتعريب

### زهير الجزائري

منذ تأسيس الدولة العراقية حتى الآن تطرح التعددية القومية والدينية في العراق باعتبارها لجنة قديمة ونقطة خال في التكامل المجتمعي العراقي. وقد كانت التعددية مفاجأة قاسية لمؤسس الدولة العراقية الملك فيصل الأول: (أقول وقلبي ملأ أسى: إنه لا يوجد في اعتقادي شعب عراقي بعد، بل توجد تكتلات بشرية خالية من أي فكرة وطنية متشعبة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهما جامعة، فريد والحالة هذه شعباً نهضة وندره...<sup>(١)</sup>).

وعلى طول تاريخ العراق، الذي لعب حكمه ومولطنيه، كانت التعددية، ووجهها الأبرز القضية الكردية أخطر التحديات التي واجهت الدولة بسبب تعدد القضية وعمقها التاريخي. ودلماً كمنت نقطة الخلاف بالفرق بين اعتراف الحكومات لفظياً أو بالمواثيق المكتوبة بحقوق الكرد القومية وإكثارهم لها بالتطبيق.

كانت هذه المفارقة قائمة مع بداية الانتداب. فرعود حق تقرير المصير للشعوب التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية تبخرت بعد اقتصار الحلفاء وحلت محلها عملية تقاسم النفوذ في المنطقة التي يتوزع عليها الأكراد في الأناضول وبلاد فارس وسوريا والعراق.

وعلى عكس السياسة الفرنسية التي اعتمدت على الأقليات، قامت السياسة البريطانية على توطيد هيمنتها من خلال المركز والقومية السائدة، وتروحت علاقاتها مع بقية المجموعات سلباً وإيجاباً حسب العلاقة مع المركز: تستخدم المجموعات الأخرى والقبائل كقوة ضغط حين تحتاج لتأييد المركز، أو تستخدم طيراتها الجوي لضرب المجموعات والقبائل دعماً لموقع المركز. ولم يكن من مصلحة سلطات الانتداب طرح قضية الكرد التي تزعج الحكام الأتراك والعراقيين في وقت ما تزال فيه قضية الموصل بكاملها موضوع صراع. وساعد على إهمال القضية عدم وجود رابطة دينية بين الكرد المسلمين وبريطانيا المسيحية تنفع سلطات الانتداب لتكني قضيتهم مثل الأرمن والآشوريين. لذلك اكتفت سلطات الانتداب بوعود حول الحقوق الثقافية دون ضمانات.

الملك فيصل الأول الآتي من الحجاز، لم يستطع أن يتصور مجتمعاً من أصول وأديان مختلفة:



(إن البلاد العراقية هي من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية، ذلك هو الوحدة الفكرية والدينية، فهي والحالة هذه مبعثرة للقوى مقسمة على بعضها). وقد حاول الملك الأول حل المشكلة بالزوجة بين الحكمة والقوة:

الحكمة تقوم على ربط المجموعات بالدولة المركزية من خلال الاعتراف ببعض الحقوق القومية والدينية لهذه المجموعات وإسهام ممثلها في هياكل الدولة المركزية. والقوة تقوم على تكوين جيش قوي يمتلك قوة عسدية وتفوقا ناريا يفوقان قوة القبائل العربية أو الكردية.

أما الضباط الشريفيون، الذين حكموا العراق منذ تأسيسه حتى نهاية العهد الملكي، فقد تأثروا بمدرّبهم الألمان في المدارس العسكرية التركية وبالفكرة الكمالية القائمة على تأسيس دولة قومية عسكرية قومية عمادها الجيش، فقد عملوا بوتيرة متصاعدة على استخدام الجيش العراقي الحديث لغرض تجانس فوقي على الخليط الذي يتكون منه العراق.

وكانت هذه الفكرة متضمنة في طبيعة تكوين وتوزيع وتسليح الجيش العراقي. فموجب الاتفاقيات مع الدولة العراقية وافقت بريطانيا على تكوين الجيش كقوة أمنية داخلية، في حين تكون الحماية من المخاطر الخارجية مضمونة بالقوة الجوية البريطانية وأسطولها البحري في الخليج<sup>(١)</sup>. ومنذ بداية العشرينات كان التفوق الناري وسيلة لفرض الوحدة القسرية بضرب التمردات الكردية التي قادها الشيخ محمود الحفيد، بل استخدمت الطائرات البريطانية لأول مرة في ضرب مدينة السليمانية.

في عام ١٩٢٢ عقدت اتفاقيتي (المحمرة) و(العقير) مع الأخوين لوقف الهجمات السعودية. وفي عام ١٩٢٦ عقدت اتفاقية الموصل مع تركيا الكمالية. بعد الاتفاقيات خفت المخاطر الجدية الآتية من الغرب ومن الشمال، وبذلك تفرغ الجيش كليا للمهام الأمنية الدلالية التي سادت الثلاثينات.

تمخضت الفترة الهاشمية الثانية عن بروز ظاهرة متميزة في تاريخ العراق السياسي الحديث، هي دخول الجيش إلى المعترك السياسي من خلال الحكم نفسه، أو من خلال الانقلاب عليه. الأزمة الاقتصادية العالمية التي بدأت في نهاية العشرينات انعكست بحدة على العراق، الذي دخل السوق العالمية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بانخفاض الطلب على المنتج الزراعي حيث بدأت الثمر والحبوب تنكمس في الميناء، وأعلن كبار التجار إفلاسهم وترك المزارعون منتوجاتهم دون حصاد ليأكلها الدود. وقد عكست الصحف أبعادها: (الأزمة الاقتصادية تأتي إلا اشتدادا وعدد العاطلين والخاسرين والفاسلين والمفلسين يزداد ويضخم كل يوم وكل ساعة: العالم العربي ٢٧ حزيران ١٩٣١)<sup>(٢)</sup>. نتيجة للأزمة وعودة عدد من المثقفين الذين اطلعوا على التيارات الفكرية في أوروبا تاملت ثلاثة تيارات دخلت الحياة الفكرية والسياسية العراقية:

تيار الثورة الفرنسية ولتتاري الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي والتيار القومي الألماني الإيطالي. لتيار الأول مثله (جماعة الأهالي) ومثل لتيار الثاني الحزب الشيوعي العراقي، ومثل لتيار الثالث

حزب الاستقلال والضباط الشريفيون. وفيما كان تيارا الأماي والشيعي يريان إمكانية الإصلاح من خلال التوازن في الحقوق والواجبات بين الحكومة والمواطنين بإصلاح الأوضاع الداخلية للمواطنين وبالتحديد الشرائح الدنيا، يرى التيار القومي العسكري الذي يمثله القوميون والضباط الشريفيون بأن خلاص الأمة يأتي من بعث قومي عربي يعتمد الإعداد العسكري للشباب.

وقد ساعد على صعود التيار الثاني الميل العسكري عند الملك غازي الذي كان يقضي معظم وقته في كتائب الجيش وبنادي الضباط ويتمتع برصيد بين زملائه الضباط ويستخدمهم للعمل ضد وزارة الهاشمي. وقد تأثر الملك الشاب بنزعة العسكرية التي سادت أوروبا قبيل الحرب.. وفي عهده ارتفع الوزن العددي والنفاري للجيش عام ١٩٣٦ إلى ٨٠٠ ضابط و ١٩٥٠٠ جندي و ٣٧ طياراً. إضافة إلى نظام القوة والكشفة<sup>(٤)</sup>.

وبصعود وزن الجيش والقوى المدنية المسلحة انتقل مركز التأثير السياسي من العشائر، التي كانت تستخدم كقوة تهديد للسلطة المركزية، إلى الجيش، وما عاد اللجوء إلى قوة العشائر وسيلة فعالة لتحقيق الأهداف السياسية أمام القوة المدنية والنفارية التي امتلكتها الجيش.

وقد شهد عهد الملك غازي استخداماً نموذجياً للجيش في فرض هيمنة القومية الكبيرة من خلال قمع تمرد الآشوريين عام ١٩٣٣ وتمرد اليزيديين عام ١٩٣٥ وتمرد الإكراد في بارزان عام ١٩٣٥ وتمرد قبائل الفلوات الأوسط (الشيخ خوام في قرميه، عشائر سوق الشيوخ، عشيرة شعلان العطية) عامي ٣٥ و ٣٦. وتحت إشراف الخبراء الإنكليز بقي الجيش مستنفراً ومستنزفاً في المنطقة للكردية، وتحدد شكل تسليحه وتدريبه لمناطق كردستان الجبلية. وعموماً تحدد دور الجيش كقوة قمع داخلية لفرض قومية للدولة المركزية على الأطراف.. ونتيجة لذلك ارتفع دور الجيش في الحياة السياسية من خلال الضغط على الحكومة من دخلها أو إسقاط الحكومة عبر سلسلة الانقلابات العسكرية اللاحقة (بكر صدقي عام ١٩٣٦، انقلاب ١٩٣٧، انقلاب رشيد عالي عام ١٩٤١)<sup>(٥)</sup>.

اعتمد العهد الملكي الطريقة الكمالية في تركيا بإشراك الكرد في المناصب العليا المدنية والعسكرية كوسيلة لربط مصالحهم بالمركز، بل استخدم أحياناً جزائراً أكراداً، ومنهم قائد الانقلاب العسكري الأول بكر صدقي في قمع انتفاضات كردستان، ووصل بعضهم إلى أعلى مناصب الدولة، لكن اشتراكهم في سياسة المركز سارت على حساب قضيتهم في الجبل. وكانت النزعة السائدة هي تهنة الكرد في الجبل من خلال الاعتراف بحقوق إدارية وثقافية محدودة ثم استثمار أية فرصة لدفع الجيش إلى حسم القضية عسكرياً. وكانت خاتمة هذا المد والجزر هي حملة عام ١٩٤٥ التي شهدت أوسع هجوم للجيش العراقي في مرحلة ما بعد الحرب وأوسع استخدام للصراعات القبلية في كردستان. بعدها بدأ البارزاني هجرته الطويلة إلى الاتحاد السوفياتي وأعلنت الحكومة (الحل النهائي للتمرد).

استنشر الكرد، كما معظم العراقيين، بالعهد الجمهوري، بعد أن أخفق العهد الملكي في إيجاد حل لحقوقهم. على المستوى القيادي، أرسل الملا مصطفى البارزاني من منفاه في الاتحاد السوفياتي برقية يحيي فيها العهد الجديد وقادته ويسألهم العودة واحترام حقوق الكرد. واعترف

العهد الجمهوري في المادة الثالثة من الدستور الموقت بأن الوطن شراكة بين العرب والكرد وثبت ذلك في الشعار الجمهوري. ومثل الكرد في أعلى هيئات الدولة مثل مجلس الميادة والوزارات والمديريات، واندمجت النخب الكردية في الحياة السياسية في المركز وشهد العراق على المستوى الشعبي عرساً من الاخوة العربية الكردية.

لكن شهر العسل انتهى بتمركز السلطة عند العسكر وتمركزها ثانية في قيادة الزعيم بعد إزاحة القيادات والأحزاب إلى الوراء. وعادت الدورة التقليدية في المروحة بين الاعتراف الاسمي بحقوق الكرد الثقافية وشرارتهم في الوطن، ونقض ذلك بافتراض أن الحركة لتحررية الكردية هي امتداد لتدخل خارجي وجعل هذا التصور مبرراً لاستخدام الجيش كداة لفرض وحدة وطنية قصيرة واستخدام الصراعات العشائرية لتكريد الحرب بإيجاد جيش قبلي مساند للجيش النظامي.

### التعريب كعقيدة

أبدأ من هذه المقدمة التاريخية لأصل إلى أن حزب البعث الذي حكم العراق منذ حوالي الخمسة وثلاثين عاماً ورث تاريخاً من الفرق بين الوعود والتطبيقات في التعامل مع القضية الكردية، ولكنه لم يكن وريثاً تلقائياً، إنما أضاف للمعضلة بعداً من نظريته وممارسته الخاصة. فرغم إن مؤسسي البعث (عفلق ولاييطار والأرسوزي) درسوا في فرنسا، إلا أن دراستهم لم تعكس تأثيراً واضحاً بالمواثيق والنظريات التي طرحها الثورة الفرنسية التي ترسم علاقة المواطن، بغض النظر عن أصوله العرقية والدينية، بالدولة وعلاقة السلطة التشريعية بالتنفيذية. كانت أذهانهم متجهة إلى قومية الأمة الألمانية التي توحدت إماراتها فوقياً بتحالف الإقطاع والعسكر، وليس بفعل برجوازية قوية ذات مصلحة في التوحيد. وعلى خلاف القومية الفرنسية التي جمعت بين فكرة الأمة وحقوق المواطنة سارت القومية الألمانية خلال حروب التحرير نحو إلغاء مبادئ الديمقراطية والمواطنة وحقوق الفرد بالتركيز على الوحدة الروحية الفوقية للإمارات.

وقد كان الاستشهاد بالقومية الألمانية ملازماً للفكر القومي العربي منذ ساطع الحصري بسبب وجود دول عربية تتكلم بلغة واحدة ولها تاريخ مشترك عاشت قروناً تحت الاحتلال الأجنبي والتفكك القطري. وقد تصاعدت هذه الأنا القومية في سنوات الهجرة اليهودية واحتلال فلسطين. كل هذه العوامل — التجزئة لاحتلال فلسطين وتنامي الشيوعية — ألمت عليهم الاتجاه إلى الفكر القومي الألماني الساعي لإثبات الذات للقومية للأمة بدلاً من إعطاء هذه الوحدة شكلها المستوري التطبيقي.

وعلى عكس ساطع الحصري الذي انتقد الجانب الصوفي في قومية الرومانسيين أخذ ميشيل عفلق من العرقية (الأمة ذات الرسالة الخالدة) واعتبر هذه الرسالة (للهووس الروحي بالعالم) نوعاً من التفويض الإلهي. ليست الأمة في نظره واقعة سياسية تتألف من شعوب اتحدت تاريخياً على أرض بعينها وشكلت وحدة سياسية مقترحة للجميع وفق مبدأ المواطنة، إنما يعتمد الفهم العرقي الذي يربط وحدة الأمة بالدم واللغة.

وقد حكم الفارق الهائل بين مثاليات النظرية وتطبيقات الواقع نظرة البعث العراقي للشعب. فقد

تغيرت هذه النظرة حسب الرفاعة الطبقيّة التي اعتمدها والجمهور الذي خاطبه. في المؤتمر القطري الثامن (مرحلة التنمية والبناء الاشتراكي) إعتد البحث التقسيمات الطبقيّة (العمال والفلاحين المعدمين من جهة، والإقطاع، شبه الإقطاع، البرجوازية الريفيّة، البرجوازية الكبيرة والبرجوازية الليبروقراطية...) (٢).

مع تبلور فكرة الحزب الواحد وحزب كل العراقيين عاد إلى المنطلقات الأولى بتغليب الوحدة الروحية على التنوع الاجتماعي. وقد ظهر هذا الفهم في تقرير المؤتمر القطري التاسع: (إننا ننطلق من معرفة دقيقة بأن العراقيين أصبحوا متجانسين اجتماعياً ونفسياً ومتقاربين إلى حد كبير) (٣). وهنا تقوم للنظرة الإلحادية بنفي أي شكل من الصراع أو التناقض الاجتماعي أو القومي أو الديني أو السياسي، وحتى صراع الأجيال، وتصور الجميع في بوتقة (الوحدة الروحية). ويستتبع هذا التوافق القاطع بين الناس توافق أهم بينهم وبين الحكومة تحت قائد رمز واحد موحد.

وينسجم هذا الصهر القسري مع آلية للتطبيق العملي لنظرية الحزب القائد.. فالمركزية التي تشكل الهاجس الدائم للدولة الاستبدادية تقوم على صهر القومية الصغيرة بالقومية الكبيرة وقيادة الحزب الواحد للقومية الكبيرة وهيمنة القائد للفرد في أعلى الهرم.

ومعروف إن السلطات الاستبدادية، حتى وإن كانت وليدة العنف الخالص، تستند على مبررات تبدو منطقية عموماً:

المبرر الأول هو أن كل مجتمع لا تقوم له قائمة بدون سلطة سياسية تضمن تماسكه وتتخذ القرارات التي تهم الجميع. لكن السلطة الاستبدادية تعني بهذه الحقيقة العامة سلطتها هي بالذات وليست أية سلطة أخرى.

المبرر الثاني هو إن البشرية قائمة على أساس قوميات. لكن السلطة الاستبدادية تميد تكثيف هذه القاعدة، فتحول الواقعة للقومية إلى أيديولوجيا أحادية تقوم على إنكار حقوق القوميات الأخرى وتعتبر وجودها خلاً في الوحدة القومية. ورغم إن البحوث العلمية أثبتت بطلان وجود عرق صياف ونقي، إلا إن ميشيل عفلق يربط انحطاط الأمة باختلاط في النقاوة العرقية:

(هذه الفترة التي انتقل فيها العربي من الجاهلية إلى الإسلام كانت قصيرة جداً، لم يلبث العرب بعدها أن غرقوا في بحر لا نهاية له من الشعوب الغريبة المختلفة.. ومنذ أن فقدوا بعد سنوات معدودة شعورهم بوحدتهم القومية وغرقوا في اللجة المتباينة المتماوجة من الشعوب، عادوا إلى عصبيتهم الجاهلية.. ولقد تلت هذا عصور الضعف التي بدأت منذ فقد العرب لتجانس القومي) (٤).

ويحدث عادة توافق بين هذا الانغلاق والعصبية العرقية وبين كراهية الآخر، خارج الحدود كان أو داخلها، والنظر إليه وفق المفهوم للتأمر التاريخي باعتباره عدواً كامناً يترصد حالات الضعف. ولذلك تقوم لحمة الأمة على إلغاء الآخر الغريب بدلاً من إرادة الجيش المشتركة.

من الصعب القول إن كلاسيكيات النظرية وحدها حكمت موقف البحث من القوميات الأخرى والكردية بالتحديد. إنما سارت النظرية تبعاً لتغير الموقف السياسي العام مواقف من القضية

الكردية. ولكن الثابت في هذه المياسة هو إن التمرير هاجسها بينما كان الاعتراف بالحقوق القومية متغيراً وتكتيكياً.

### ثلاثية التمرير

اعتمدت فكرة التمرير على ثلاثة محاور: الأرض والهوية والوجود.

فحين يلغى حق المواطنة تصبح الأرض موضوعاً للصراع بين القومية الكبيرة والقوميات الأخرى. الأرض تتحول إلى القيمة القومية الأساسية عند الناس وأصل النزاعات. وقد استندت عملية إخلاء الأرض من سكانها الأكراد على تبرير نظري يرى للقوميات القاطنة في الدول العربية المعاصرة جاليات غريبة، لاحق لها في الأرض التي تقم عليها (فالأرض التي تعيش عليها هذه القوميات، كانت جزءاً من الدول العربية التي نشأت منذ آلاف السنين، والتي كان آخرها الدولة العباسية الكبرى. وهذه الأرض هي، في الوقت نفسه، موطن تلك القوميات، وعلى هذا الأساس فإن الهوية العربية للأرض التي تعيش عليها هذه الأقليات لم تأت عن طريق القهر والاستعمار أو الاستلاب، إنما نتيجة للواقع التاريخي الممتد عبر آلاف السنين. ولم يكن عبر تلك الحقبة التاريخية الطويلة أي جدال أو نزاع<sup>(٩)</sup>). وتكرر هذه النظرة على القوميات الأخرى حق تكوين كيان قومي، لأنها تنكر عليها الأرض التي تقم عليها. وطبق ذلك عليها بقرار مجلس قيادة الثورة في ١٩٨٧/٤/٢٥ المعنون بـ(حسم نشاط المخربين): إعادة إفراغ الشريط الحدودي مع إيران وتركيا وسوريا بعمق (٣٠) كيلومتراً من أية حياة إنسانية.. وبمضي ذلك بالأرقام إزالة أكثر من ٤٥٠٠ قرية وناحية ومدينة بينها ٢٤ قضاءً.. كما تنص الخطة على إفراغ المناطق السكنية المحاذية للطرق العامة وتحويل بيوتها إلى مساحات مسواة بالأرض. كان هدف الخطة كما اتضح لاحقاً هو إعادة رسم كردستان أرضاً وبشراً على أساس خارطة ما بعد ١٩٧٥ بشكل مساحات هائلة مفرغة من أية حياة، مزرعة بالريابا العسكرية والمصكرات وحقول الأنغام، تقطعها طرق مجدية تتحرك عليها الآليات والذبابات، وعلى جانبيها قرى مدمرة محروقة بلا بشر. والهدف الثاني اعتقال الشعب الكردي في قل من ٥٠ مدينة وبلدة يجري تحويلها إلى معقلات احترازية محاطة بالحواجز والسيطرات وحقول الأنغام. كما تهدف الخطة إلى تدمير الإنتاج الزراعي والحيواني في كردستان، وإقامة حياة اقتصادية جديدة تعتمد على هبات الحكم المركزي وما يتربح على ذلك سياسياً من خلق قاعدة للتمرير.

تدمير الأرض يعني بالتالي تدمير البيئة الاجتماعية والثقافية للمجموعة التي تعيش عليها. وهي الخطوة الضرورية لتدمير الهوية. فالأرض وعاء الوسط الاجتماعي. ودخل هذا الوسط يجد المواطن نفسه داخل عالم من التقاليد والعادات وقواعد الحقوق والآداب والمفاهيم الفكرية والجمالية التي تشكلت عبر التاريخ والتي تشكل هوية للفرد في هذه المجموعة ووعيه لذاته ومحيطه. وتشكل اللغة وسيلة اتصال ضمن الجماعة وحاملة ثقافتها.

وتقوم فكرة التمرير على إن المواطن سينسى قوميته وهويته القومية الأولى بمجرد نقله إلى

محيط آخر وإحاطته بتجمع بشري مختلف وفرض منظومة فكرية وتربوية تمت للقومية الكبيرة. وتعتبر التجربة الكمالية المستمرة في تركيا بتترك الكرد نمونجا في محاولات إلغاء الهوية الكردية للأجيال الجديدة ونمجهم بالهوية المركزية. وقد عمل البعث العراقي على اتباع قاعدة التهجير والتعريب من أجل تفكيك المجتمع الكردي ووحته للمكانية بنقل المجموعات إلى جنوب ووسط العراق، أو إلى مجمعات سكنية تشبه معسكرات الاعتقال. في المكانين يكون المهجر الكردي مقطوعاً عن إنتاجه. والإنتاج هنا ليس مجرد وسيلة للحصول على العيش. فهو بجانب ذلك تعاون وعلاقة بين البشر ويعطي للمنتج هوية وفاعلية. هدف التهجير هو حرمان المواطن من بينته الإنتاجية وبينته الثقافية معاً، أي جعل الهوية شيئاً يمت للماضي وليس للحاضر. وجعل المواطن مرتبطاً بمعيشاً ومصيرياً بهبات السلطة المركزية. مقابل ذلك نقل قبائل عربية وتوطينها في المناطق الكردية لتعريب الأرض التي كان يقيم عليها للکرد على أمل التحول إلى أمر واقع بمرور الزمن.

### الإبادة

ولكن الواقع وللآخرين وجودهما الموضوعي الذي يقاوم إرادة التكيف أو الإلغاء. فالقومية المعرضة للإبادة تؤكد هويتها الثقافية بإنكار ثقافة المركز. وحين يعجز المركز عن إلغاء هويتها يتحول الصراع إلى حرب وجود. يبدأ القمع فردياً، فإذا استحصت تلك القوة على الرضوخ ستحاول إلغاءها مع المحيط السكاني الذي فرضه الواقع الموضوعي. وتشكل عمليات الإبادة الشاملة (الأنفال) مثلاً صارخاً للمزج بين التعريب والإبادة. فلتحديد المجموعة البشرية المستهدفة ليست هناك مناسبة أفضل من عملية الإحصاء السكاني التي جرت في ١٧ تشرين الأول ١٩٨٧. كانت عمليات الإحصاء التي شهداها العراق منذ الاستقلال، مرة كل عشر سنوات، إحصائيات بحتة. في عهد البعث أخذت هذه العمليات طابعاً أمنياً مع تركيز المراقبة الأمنية على الناس وعمليات التهجير والتغيير السكاني، حيث تضمنت استمارة الإحصاء أسئلة لا تتعلق بمواطنة المواطن فقط، إنما أيضاً باعتقاداته واعتقادات قُربه لمعرفة مدى ولائه للسلطة. في كردستان كانت هذه العمليات تجري مع تغيير للطابع السكاني بوضع أكراد أمام خيارين: إما التسجيل كعرب، أو الخضوع لملاحقة للدولة ومعسكرات اعتقالها في المجمعات. وعلى الباقين، من تركمان وكردان وأشوريين ويزيديين الخيار بين قوميتين لا علاقة لهم بها (کرد أو عرب). وحرّم الذين رفضوا الخيارين من حق المواطنة العراقية. عمليات التطهير الريفي التي سبقت الإحصاء كونت حزاماً مفرغاً من أية حياة بين المناطق الخاضعة للسلطة والمناطق الخاضعة للبيشمركة. قبل الإحصاء عرض حاكم الشمال العسكري على سكان المناطق الخاضعة للبيشمركة إنذاراً نهائياً: (العودة للصف الوطني)! وكان معنى ذلك لمكان القرى ترك بيوتهم ومزارعهم والعودة للمجمعات المشؤومة الواقعة تحت سيطرة قوات الأمن، وما حدث لمدينة حلبجة وقبل ذلك مصائر البارزانيين الذين غابوا عن الوجود مثلاً أمامهم. وما لم يعودوا إلى (الصف الوطني) وشملهم الإحصاء لن يعتبروا موجودين. ولم تقتصر عملية الإلغاء بالأسلحة الكيميائية وبالمجازر الجماعية

على المجموعات الخارجة عن سيطرة السلطة، فقبل أن يبدأ الإحصاء جرت عمليات تهجير مئات من عوائل البيشمركة إلى المناطق التي ستشملها عمليات الإنفال<sup>(١٠)</sup>.

جريمة جينوسايد نموذجية: تبدأ بإفكار الحق القومي لمجموعة من الناس، ثم إنكار وجود هذه المجموعة عقائدياً، وينتهي الأمر ببلاتنتها جسدياً.

أرجع لنقطة البداية. هل التعددية هي قدر العراق السيئ؟

التعددية ليست قدراً سيئاً ولا خلاً مجتمعياً يخص بلادنا المنحومة الطالع، أو البلاد النامية عموماً، إنما هي موجودة في بلدان متقدمة أو متخلفة على السواء. الفارق يكمن في أسلوب التعامل مع هذه الظاهرة. فمن الممكن تحويل التعددية إلى ظاهرة إثراء حضاري وديمقراطي حين يتم الاعتراف بالتعددية والإقرار بشرعيتها واحترام الحقوق الثقافية والسياسية للمجموعات كمنخل للوحدة الطوعية. وعلى العكس، تتحول إلى تمارض وصراع، خاصة عندما تسعى جماعة للسيطرة على الجماعات الأخرى، دينية كانت أو قومية أو طائفية، وتذويبها بالقوة المعنوية والمادية. وتزداد حدة التوتر حين تفرز التمايزات القومية بتمييزات اقتصادية وسياسية، كأن تستحوذ القومية المسيطرة على السلطة واقتصادها حارمة للقوميات الأخرى من المشاركة السياسية والاقتصادية.. آنذاك تخرج القومية الأخرى من الإنغلاق إلى العنف للدفاع عن هويتها. ومن هنا فإن الاتجاه نحو المركزية القسرية يصبح خطراً على الدولة لأنه يجعل السلطة وليس حقوق المواطنة موضوع الصراع.

ولم يرنا التاريخ حالة واحدة من نجاح قومية ما في تذويب قومية أخرى بالعنف. على العكس، يرينا عالم القطب الواحد الحالي تفتت الكيانات الكبيرة إلى وحداتها القومية الصغيرة، كما يرينا بقطة الإثنيات والأديان في أكثر من ١٥٠ حرباً أهلية واستعادة تاريخ من الكراهية العرقية والدينية سببته عقود من محاولات لتذويب بالقوة وقد لكد تاريخنا العراقي للترابط الجذلي بين الديمقراطية للعراق ككل وبين والتوجه إلى حل القضية الكردية، فتدهور العلاقة بين الدولة المركزية والأكراد كان دائماً الحافز والنتيجة لصعود العسكر في الدولة وإعلان حالة الطوارئ العامة بتغيب مؤسسات المجتمع المدني من أحزاب ومنظمات وتركز الحكم في أضيق الحلقات العسكرية والعائلية. ويصح الحكم أيضاً بحيث يصعب التمييز بين العلة والمعلول، والسبب والنتيجة.

والمشكلة تكمن في أن الأهداف العامة المعترف بها من الطرفين (شراكة العرب والكرد) تصبح موضوع تساؤل كلما تبددت وسائل تحقيقها وسحل الحرية محل عقلانية التعامل كلما استطال تاريخ العنف.

والقومية الثانية كلما واجهت مزيداً من الضغوط وحروب الإبادة تلتف وتتعلق على نفسها وتحيط نفسها بقشرة صلبة فلا تعود قادرة على التفاعل في المحيط الأكبر. لخصوصيات المحلية تتحول إلى قاعدة عامة فينفصل نضالها السياسي من أجل حقوق الكرد القومية والسياسية عن

النضال من أجل الديمقراطية في البلد ككل. وللاتخلاق ديناميته الخاصة التي تأخذ نحو اتغلق الحزب داخل القومية، واتغلق الكتلة القبلية داخل الحزب.. آنذاك سيكون الحل في أفضل أحواله إتفاقاً قوياً وأتياً بين سلطتين مستبدتين، لأن من المستحيل أن يكون هناك تحالف دائم بين الديمقراطية والاستبداد.

النضال من أجل المواطنة هو الرقيق الدائم للنضال من أجل الحقوق القومية. هذه اللفة إن تحل فقط المشكله الألفية علاقه الطرف بالمركز، إما تحل كذلك المشكله في المركز والطرف معاً. □

### الهوامش

- (١) الملك فيصل الأول: رسالته السرية إلى صفوة من أعوانه عام ١٩٣٢.
- (٢) توزيع القوات إلى شمالية وشرقية وجنوبية استهدف السيطرة على مناطق الاضطرابات القبلية. وعندما كان مجلس الوزراء في ٢٤/٣/٣٦ يناقش أفضلية السفن الحربية الصغيرة أم الكبيرة، كان القرار هو اعتماد السفن الصغيرة الصالحة للعمل في الأنهار الصغيرة والأهوار لمواجهة تمردات قبائل الفرات الأوسط في حين تركت حماية المياه الخارجية للأسطول البريطاني في الخليج.
- (٣) د. كمال مظهر: صفحات من تاريخ العراق المعاصر ص ٨٧-١١٥.
- (٤) بطاطو: العراق — المطبقات الاجتماعية والحركات الثورية — الكتاب الأول، ص ١٤٧، ترجمة عفيف الرزاق، مؤسسة الأبحاث العربية.
- (٥) تحت تأثير حركة الشباب الهناري ومعسكرات للعمل الألمانية اتجه نحو عسكرة المجتمع فشهدت حركة الكشف في زمنه صعودا حادا حيث طلب من مدير التربية البدنية عام ١٩٣٤ رفع عدد الكشف في عمر ١٥-٢٥ إلى ٢٥ كشافاً مدربين تدريباً جيداً ومرتبطين رسمياً بالبلاط وإدارياً بوزارة المعارف. وفي عهده شرع نظام الفتوة رقم ٥٠ لسنة ١٩٣٥ الذي يقوم على شمول طلاب المدارس المتوسطة والثانوية ودور المعلمين والصنائع بتدريب عسكري قلبي واستخدام السلاح بإشراف وزارة الدفاع، كما تأسست (جمعية الجوال العربي) ونادي الفتوة.
- (٦) التقرير القطري الثامن: ص ٩٠-١١٤.
- (٧) التقرير القطري التاسع: ص ١٨٣.
- (٨) ميشيل علق: في سبيل البحث — حول الرسالة العربية، ص ١٨٣.
- (٩) مسألة الأكتيات في الوطن العربي — من مقررات المؤتمر القطري الحادي عشر لحزب البحث العربي الاشتراكي، مطابع دار للتورة، بغداد ١٩٧٩.
- (١٠) Iraqs crime of genocide-human right watch



# الرأسمالية المعولة

## وفعالية اليسار العربي

لطفي حاتم

حملت المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي الكثير من الظواهر الدولية المتناقضة بدءاً من التكتلات الاقتصادية والتقدم للتكنولوجي مروراً بـسكرة السياسة الدولية وتآكل مبدأ السيادة الوطنية وانتهاءً بخياب المنظومة الفكرية — السياسية المكافحة ضد البربرية للرأسمالية. وبسبب ذلك الخياب يحاول إيديولوجيو الرأسمالية المعولة إشاعة الأوهام الفكرية حول فعالية الليبرالية الجديدة وروحها (الديمقراطية) المرتبطة بقيم السوق المتحرر من أية رقابة اجتماعية أو دولية.



في مناخ لشك والضحج تواجه الباحث كثرة من الأسئلة منها: هل تشترط المعولة الرأسمالية ظهور نواتج لسلطة دولية تتخطى الكيفيات الوطنية؟ ولأن ظهرت مثل هذه السلطة، فهل تنشأ على أساس التوازنات الدولية/ الوطنية؟ وإن كان الجواب سلباً فهل تفترض تلك الاختلالات انبثاق حركة أممية متعددة الأطياف الاجتماعية/ السياسية مناهضة للوحشية الرأسمالية؟ وقبل هذا وذاك هل هناك ضرورة موضوعية لإغناء وتطوير المنظومة الفكرية لليسار الاشتراكي تمشياً ومتطلبات مرحلة الرأسمالية المعولة؟

اجتهادات كثيرة وهموم متباينة تتصارع في حبلاتها الآمال المشرقة والحلول للتشاؤمية. ورغم لكم الهائل من التحليلات المتقاتلة منها واليائسة تجرر الروى المطالبة بترصين الكفاح المعادي لبربرية رأس المال، على أسس فكرية معلة، تقدماً شعبياً.

بهنف مواصلة الحوار حول أفاق تطور كفاحنا للديمقراطي المناهض لوحشية رأس المال المعولم أحاول التعرض إلى موضوعتين مترابطتين أولهما، محاولة تضييق السمات والارتباطات الجديدة للتشكيكة الرأسمالية المعولة؛ وثانيهما، التعرض لأفكار وآراء محددة أزع أنها تساهم في تنشيط الفعالية الفكرية/ السياسية لليسار الديمقراطي العربي.

## الرأسمالية المعولمة وتناقض مسار تطورها

أفضى الطور الجديد من التوسع الرأسمالي إلى ظهور ما يمكن تسميته بالتشكيلة الرأسمالية المعولمة المتجلية بترابط وتناقض مستويات بنيتها الاقتصادية — للكونية التي يسير تطورها باتجاهات متباينة. ويعود ذلك إلى تعارض مصالح مكوناتها الدولية/ الوطنية الذي يتحكم في تطورها قانون الاستقطاب للرأسمالي ونوازعه الإدماجية — للتخريبية من جهة، واختكار المراكز الرأسمالية للتكنولوجيا المتقدمة المدنية منها والعسكرية وسيطرتها على مصادر الطاقة والمؤسسات المالية والمنظمات الدولية، من جهة أخرى.

استناداً إلى تلك الموضوعات يمكننا تحديد مستويات تطور التشكيلة الرأسمالية المعولمة بالمشورات التالية:

١. تواصل عمليات الاندماج والاتحاد في المراكز الرأسمالية بين الشركات الوطنية/ الدولية وما نتج عنها من ظهور بنية حقوقية — إدارية — دولية تغطي قوانين الدول القومية. وبالضد من تلك الاندماجات والترابطات تجري إعادة هيكلة الاقتصادات الوطنية لأطراف التشكيلة الرأسمالية وربطها باتجاهات تطور الاحتكارات الدولية.

٢. تحول الشركات العابرة للقارات بسبب عمليات الإدماج والتشابك إلى قاطرات اقتصادية لتوجيه وقيادة مستويات تطور الاقتصاد — العالمي، الإقليمي والوطني — وما نتج عن تلك القيادة من تأثيرات اجتماعية — سياسية يمكن رصدتها في مسارات عدة أهمها:

أ. نشوء وتطور اصطفاقات سياسية بين القوى الاجتماعية المناهضة للعولمة الرأسمالية التي فرضتها البنية الاقتصادية — الحقوقية — الإدارية — الثقافية للشركات العابرة للقارات على السوق الرأسمالية فضلاً عن تقارب القوانين العامة وآلية عمل المؤسسات الحكومية في المراكز الرأسمالية.

ب. تخريب التشكيلات الاجتماعية في الدول الوطنية الذي أفرز توترات عرقية — طائفية تهدد وحدة الأنسجة الاجتماعية والمكونات الطبقة في التشكيلات الوطنية.

٣. أدت تلك التنزيرات إلى تحجيم الوظائف الاقتصادية/ الخدمية للدولة الرأسمالية وما يعنيه ذلك من تضخيم وظائفها العسكرية/ المخابراتية على المستويين الوطني والدولي تمشياً وتطور المصالح الاستراتيجية لحركة رأس المال المعولم. وبهذا الاتجاه يمكن القول إن مسار تطور التناقضات الاجتماعية/ السياسية في الدول الوطنية والتدخل في شؤونها الداخلية باتت تشكل مضمون السياسة الخارجية للدولة الرأسمالية.

٤. تتراشق التحولات للمشار إليها في المراكز الرأسمالية وتطورات أخرى على مستوى أطراف التشكيلة الرأسمالية تتمثل بالعمل على تحويلها إلى دول كومبراندورية/ حارسة للمصالح الدولية. ويعني ذلك تضائل مساهمتها في التأثير على اتجاهات تطور السياسة الدولية من جهة، وتنامي فعاليتها للقمعية على النطاق الوطني، من جهة أخرى.

٥. رعد المساعي التي تبتلها المراكز الرأسمالية لصياغة سياسة نولية (موحدة) تعتمدها لبناء العلاقات النولية الجديدة، إلا أن تلك المساعي تحدها تعارضت التكتلات الاقتصادية الدولية ومصالحها الاستراتيجية حيث تتبدى تلك التناقضات في أشكال المنافسة المحتدمة والمتبلورة بثلاثة مستويات:

أ. منافسة بين الشركات الاحتكارية الوطنية/ الدولية الهانفة إلى الامتداد والهيمنة على أسواق المراكز الرأسمالية.

ب. صراع بين المراكز الرأسمالية واحتكاراتها النولية على مستوى صياغة التكتلات الاقتصادية الإقليمية والهيمنة على مسان تطورها.

ج. المنافسة بين الاحتكارات النولية على أسواق وثروات الدول الوطنية بهدف السيطرة عليها وإعادة بناء تشكيلتها الاجتماعية/ السياسية.

إن استعراض مستويات تطور التشكيلة الرأسمالية المعمولة والعلاقات التنافسية بين التكتلات الاقتصادية الكبرى يتربط والتغيرات الجديدة في العلاقات الدولية المتضلة بتحجيد دور المؤسسات الدولية الضامنة لوحدة المصالح الوطنية/ النولية، وتفكك مبدأ السيادة الوطنية الذي شكل الحجر الأساس لبناء العلاقات الدولية منذ ظهور الدولة القومية.

### حركة التحرر بين الركود والأزمة

منذ زمن وحركة التحرر الوطني العربية بتياراتها اليسارية الديمقراطية والقومية تعاني أزمة شاملة تعددت تأثيراتها السياسية/ الاجتماعية. لذا فإن تحليل المضامين الفعلية لتلك الركود، وتحري أسبابه الحقيقية يتمتع بأهمية فكرية وضرورة عملية، الأمر الذي يدعونا إلى معالجة المصاعب الحقيقية وأشكال تجلياتها والتي يمكن وضعها بمحاور ثلاثة:

أولاً: غياب البديل الفكري الناتج عن انهيار البناء الإيديولوجي للتجربة الاشتراكية (الفعلية) الذي تمخض عنه ضياع البدائل الفكرية المقاومة لإيديولوجية الليبرالية الجديدة المسلحة بشعرات جذابة، وشيوع الأوهام حول نهاية التاريخ وخلود الرأسمالية كخيار للتطور الاجتماعي.

ثانياً: تقادم الركفz البرنامجية حيث أدت الانهيارات الكبرى للركائز الأيديولوجية للأهمية الثالثة إلى غياب البرامج السياسية ذات الأطر الفكرية، الأمر الذي يتطلب صياغة رؤية واقعية ومواقف فكرية سياسية جديدة عن طبيعة الترابطات والتشابكات الدولية/ الوطنية التي أفرزتها الرأسمالية المعمولة.

ثالثاً: انحسار القاعدة الاجتماعية لحركة اليسار العربية التي أنتجت كثرة من العوامل الذاتية والموضوعية منها:

أ. عزوف الكتل الشعبية عن الانخراط في العمل السياسي النشيط بسبب الخيبات المتكررة التي أفرزتها البرامج المثالية التي كلفت في ظلها الجماهير العربية.

ب. القمع السلطوي المتواصل ضد اليسار العربي، فضلاعن دور السلطات العربية في تزييف وإفراغ النشاط الشعبي من مضامينه الفكرية/ السياسية بسبب احتكارها لمؤسساته الاجتماعية.

ج. الليبرالية الجديدة وما فرضته من وصفات اقتصادية على الدول الوطنية وما نتج عنها من إقصاء العديد من الشرائح الطبقيّة الناشطة اقتصادياً عن مراكز الإنتاج الفعلية وتحويلها إلى قوى هامشية.

لقد أدت عمليات التيميش الجارية للكثير من القوى الطبقيّة الفاعلة في التشكيلات العربية القطرية إلى بناء محيط اجتماعي واسع تتفاعل في حركته الاحتجاجية المشاعر السلفية والأفكار الغيبية.

### من التنمية الوطنية إلى التبعية الكولونيالية

تتزامن الإشارة إلى انحسار التأثير الفكري/ السياسي لقوى اليسار العربية على الكتل الشعبية وانهيار ركائز الفكر القومي المتمثل بـ(الوحدة القومية، الاشتراكية العربية، الشرعية الانتقالية، عصكرة الدولة القطرية.. الخ)، ورغم تأثر الفكر القومي وحوامله الاجتماعية بالخصائص القطرية إلا أن حركته السياسية وتجربته التاريخية في الحكم أنتجت وبنرجات متفاوتة منظومات سياسية تنقسم بالمؤشرات التالية:

١. أنظمة حكم شمولية ذات لون واحد تنمم باحتكار السلطة والحياة الاجتماعية.
  ٢. سيادة النزعة الإقصائية المناهضة للديمقراطية السياسية.
  ٣. تطوير النزعة العسكرية لستنادا إلى تغليب للتحديات الخارجية.
  ٤. اندماج العديد من التيارات القومية في البنية الإدارية/ الأمنية لسلطة (الشرعية الثورية).
- إن السمات السياسية/ الاجتماعية لأنظمة (الشرعية الانتقالية) المشار إليها أفرزت نتيجتين خطيرتين على تطور الحياة السياسية: أولهما، تفكك البنية الفكرية - السياسية لفصائل الحركة القومية بعد تحويلها إلى نزعة قطرية؛ وثانيهما، إفراغ دولة (التحرر الوطني) من توجهاتها الوطنية المستقلة بعد تحول بيروقراطيتها السياسية إلى قوى طبقية متحالفة مع الشرائح البرجوازية الداخلية والاحتكارات الدولية.
- تقديراً للفرضية الفكرية/ السياسية المشار إليها نحاول تفحص السمات الواقعية للقوى الطبقيّة الجديدة المناهضة في التشكيلة الوطنية لدولة (الشرعية الانتقالية) وتأثير أدوارها السياسية والتي يمكن حصر قواها بالشرائح الاجتماعية التالية:

— الطوائف البيروقراطية المدنية/ العسكرية المتنفذة في أجهزة الدولة القيادية التي تحولت إلى فئات طبقية تساهم بفعالية في إدارة وتوجيه الاقتصاد الوطني لطلاقاً من امتلاكها القرار السياسي/ الاقتصادي الذي تجسد أخيراً في تبني مبادئ الليبرالية الجديدة وسياسة الأبواب المفتوحة.

— البرجوازية الوطنية الناشطة في قطاع إنتاج الصناعات الاستهلاكية والذي يعيق نموها وتطورها تتفق البضائع الأجنبية الممثلة للمنتجات الوطنية التي حررت حركتها الانتفاضة التجريبية الدولية، الأمر الذي أجبر البرجوازية الوطنية على التنسيق والترابط مع أنشطة الاحتكارات الدولية وما يعنيه ذلك من تحجيم فعاليتها الوطنية.

— القوى البرجوازية المهيمنة على بقايا قطاع النولة (الاستراكي) والمتربطة مصالحها ومصالح قوى البرجوازية المحلية والرأسمال الدولي الوافد من خلال مشاركة الأخير في مؤسسات قطاعات الدولة الاقتصادية/الخدمية ومساهمة في الأنشطة الاقتصادية الخاصة.

— برجوازية قطاع الخدمات والفنارات التي اتسمت منيات انشطتها الخدمية من خلال مساهمة الرأسمال الدولي في تطوير المرافق السياحية/الخدمية. ومن الملاحظ أن هذه القوى الاجتماعية تتشابه مصالحها مع شريحة طبقية أخرى تتمثل بوكلاء الشركات التجارية الأجنبية/ومؤسسات الإعلان، الأمر الذي جعلها تقصير المشهد الاقتصادي وأضواء الزقاق.

— إن الإشارة إلى هذه الشرائح والفئات الاجتماعية تشترط تأثير مواقع البرجوازية الرفيعة التي اتسمت فعاليتها الإنتاجية/السياسية نتيجة لعاملين. أولهما: تحريك قوانين الأرض التي أعادت الأراضي المضاربة سابقاً نتيجة لقوانين الإصلاح الزراعي إلى ملكيتها الإقطاعيين وما نتج عن ذلك من إعادة الفعالية السياسية/الاجتماعية إلى أغنياء الريف؛ وثانيهما: القوانين الجديدة التي تسمح للشركات الأجنبية شراء وامتلاك الأراضي الأمر الذي أدى إلى تطور العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في الريف العربي على قاعدة تحالف ملكي الأرض الكبار مع الرأسمال الخارجي.

— إن تطور التشابك الوظيفي بين الرأسمال العربي والرأسمال الاحتكاري. من خلال الأنشطة المختلفة (وبالأخص منها: تلك المتمثلة بتوظيفات الأموال العربية في البنوك والمؤسسات المالية الأجنبية، شراء الأسهم في الشركات الاحتكارية، والمضاربة مع الرأسمال الأجنبي في الأسهم والسندات والعقار) يجعل البرجوازية المالية (الربعية) في العديد من البلدان العربية قاطرة لسياسة التحالفات مع الشركات الاحتكارية.

— تزامنت التغيرات الاجتماعية المشار إليها مع تحولات في أقسام القاعدة الاجتماعية للطبقات الوسطى — خاصة الأجزاء المثبتة منها — وذلك بسبب تلاحم فئاتها العليا مع الشرائح الطبقية السائدة اقتصادياً التي تعمل بدورها على توفير فرص للتشغيل لامتصاص كفاءة الفئات المتعلمة من الشرائح الطبقية الوسطى.

استناداً إلى طبيعة القوى الطبقية السائدة اقتصادياً في المجتمعات العربية تواجهنا الأسئلة التالية : هل تستطيع القوى الاجتماعية التي تنصدر المشهد الاقتصادي العربي إنجاز عملية التقارب الاقتصادي بين الأسواق العربية؟ وهل تستطيع البرجوازية في البلدان العربية بشرائحتها المتعددة تطوير تعاون اقتصادي بشكل منطلقاً للغيرالية سياسية عربية؟

الإجابة على الأسئلة المثارة نفترض التعرض إلى حركتين متناقضتين هما، حركة رأس المال للتوسعية/الإلحاقية، وحركة القوى الاجتماعية المناهضة للمسات التدميرية لرأس المال المنول.

### الاحتكارات الدولية والتكتلات الإقليمية

من المعروف أن لقانون الاستقطاب الرأسمالي باعتباره القانون الأبرز في التشكيلة الرأسمالية المعولمة آثارا تدميرية على النول الوطنية وتشكيلاتها الاجتماعية، وتتمثل سماته الإلحاقية في إعادة اندماج اقتصادات الدول الوطنية بما يتلاءم وتطور الاحتكارات الدولية التي تعمل بنورها على إقامة أشكال جديدة من التشبك والترابط مع الدول الوطنية خاصة في مجالات الهيمنة على الثروات الوطنية، وحرية حركة رأس المال المدول وفرص استثماره وصولا إلى بناء تكتلات اقتصادية إقليمية تابعة لها. وهنا لابد من الإشارة إلى أن الليبرالية الاقتصادية المفروضة بقوة المؤسسات المالية الدولية تلعب نورا في إحداث تغيرات هيكلية في مواقع ومكانة المكونات الطبقة للتشكيلة الوطنية. فبني، بمعنى آخر، تسرع عملية الحراك الاجتماعي لصالح القوى الطبقة الناهضة في هذه البلدان والمشاركة مصالحها الاقتصادية ومصالح الشركات الدولية.

إن الموضوعة المشار إليها تكتمل عند التعرض إلى آثارها التدميرية على مستقبل الدول الوطنية وشعوبها والتي يمكن تأشيرها بـ:

أولاً: رغم تقديمية عمليات التشابك والاندماج وتشكيل التكتلات الاقتصادية الإقليمية قياساً إلى الاقتصادات الوطنية المنعزلة، إلا أن ترابط تلك العمليات وحركة قوانين التمرکز والتركز والاستقطاب تشكل عودة إلى اقتسام العالم بين التكتلات الاقتصادية الدولية، حيث تنزامن محاولات الاقتسام مع إعادة هيكلة الجغرافية السياسية التي أفرزتها حقبة المعسكرين لصالح التكتلات الاقتصادية الدولية.

ثانياً: تفضي إعادة اقتسام العالم بين التكتلات الاقتصادية الدولية إلى إقامة التحالفات العسكرية التي تشكل بدورها عتبة أساسية نحو تسريع الترابطات الاقتصادية وما يفرزه ذلك من بناء أنظمة أمن إقليمية منمجة مع النظام الأمني/السياسي/الاقتصادي لهذا التكتل الدولي أو ذاك.

ثالثاً: يؤدي اقتسام العالم العربي بين التكتلات الاقتصادية الدولية إلى إجهاد مشروع التكامل الاقتصادي العربي الذي يشكل ركيزة أساسية نحو تحقيق الأمن العربي واستبداله بأمن إقليمي يرمي إلى تعزيز التحالف الاستراتيجي الأمريكي - الإسرائيلي - التركي وتطويرة إلى تكتل اقتصادي يشكل قاطرة إقليمية لسوق شرق أوسطية.

استناداً إلى التحليل المشار إليه يمكننا صياغة الاستنتاج التالي:

يشكل تفكيك وتركيب للتشكيلات الاجتماعية للدول الوطنية وإعادة بناء اقتصاداتها لغرض دمجها في اقتصادات إقليمية تابعة جوهر الكولونيالية الجديدة المتجاوية ومصالح المراكز المتقدمة من التشكيلة الرأسمالية المعولمة.

## حركة اليسار العربي ومضامينها الجديدة

تكتسب حركة اليسار العربي في ظروفنا التاريخية الملموسة مضامين جديدة تشرطها طبيعة التطورات التي أفزعتها المرحلة الحدية من التوسع الرأسمالي والمتنقلة لعاملين:

أولاً: تداخل المنظومة الفكرية - السياسية لقوى اليسار الأممي الماهض للمعولمة الرأسمالية. وثانياً: انفلات الرأسمالية المعولمة وتجلياتها المتوحشة الفكرية/ السياسية المتمثلة بالعسكرة والليبرالية الجديدة.

على أساس هذين العاملين فإن المصامين الجديدة لحركة اليسار العربي تتلخص في وحدة برامجه الوطنية - الديمقراطية مع مهامه القومية التحررية.

إن التشابك التاريخي الملموس بين البرامج الوطنية - الديمقراطية والمهام القومية - التحررية يستمد مشروعيته من موضوع أن الدولة القطرية باتت في دائرة التفكك والتهيميش التي تعمل على تسريع وتائرهما قوانين حركة رأس المال المعولم والمصالح الاستراتيجية للمراكز الرأسمالية.

إن إعادة بناء العلاقات الكفاحية بين فصائل اليسار الديمقراطي في البلدان العربية وإكسابها المضامين الوطنية الديمقراطية والقومية التحررية تتطلب البحث عن أشكال مؤسساتية ملموسة توظف وحدتها الكفاحية. وفي هذا الاتجاه أقدم رؤية تنظيمية/ فكرية/ سياسية تستند إلى ملاحظتين أساسيتين:

الملاحظة الأولى، أن الرؤية التي أطرحها تركز على دالات فكرية/ سياسية لم تكتمل بعد، بمعنى أنها قابلة للنقاش والإغناء والتطوير. والثانية، أن الدالات الفكرية/ السياسية التي أعتمدها تتطوّر من روح تجديدية تماشى والتطورات الجديدة (الروح العصر).

### أولاً: أشكال مؤسساتية

تشرط إعادة اللحمة الفعلية بين أحزاب اليسار الديمقراطي في الظروف التاريخية المعاشة بناء أشكال تنظيمية تشكل أطراً مؤسساتية دائمة تماشى ووحدة مهامها الوطنية/ القومية. وفي هذا الاتجاه يتمتع بأهمية استثنائية بناء المؤسسات التالية:

١. تشكيل مؤتمر إقليمي لتجمع الأحزاب الشيوعية واليسارية الديمقراطية في البلدان العربية يأخذ على عاتقه عقد جلسات دورية تكون بديلاً عن اللقاءات الموسمية التي اتسمت بالركود والتبعية للأحداث الكبرى.

٢. يتبنى المؤتمر الإقليمي تشكيل لجان تنسيق ومتابعة بين الأحزاب الأعضاء لغرض تطوير وديمومة النضالات المشتركة وإعطائها طابعاً إقليمياً يتلاءم وطبيعة المرحلة الجديدة من تطور العلاقات الدولية.

٣. تتحدد فعالية لجان التنسيق والمتابعة بمدى ترابطها والنيوج للسياسية — الوطنية لأحزاب اليسار الديمقراطي الرامية إلى استنهاض الكتل الشعبية المناهضة لسياسة التثبيت السلطوية والتبعية الكولونيالية. بـكـلام آخر، إن لجان التنسيق والمتابعة تركز على فعالية الكفاح الوطني — الديمقراطي الذي يشكل مصدراً أساسياً من مصادر تطوير التضامن الكفاحي على المستوى القومي.

٤. تشكيل معهد للدراسات الفكرية يعني بتوضيح رؤى فكرية/ سياسية نقدية لمواجهة ليولوجية الرأسمال المعولم واتجاهاته التدميرية ونزعاته المعادية لوحدة وتفاعل الحضارة الإنسانية.

باختصار، إن تشكيل مؤتمر إقليمي عام للأحزاب اليسارية الديمقراطية في البلدان العربية يمكن أن يشكل رداً سياسياً فاعلاً من قوى التغيير الديمقراطي على مساعي الليبرالية الجديدة الهادفة إلى حصر القوى الديمقراطية بإطارات وطنية منعزلة، والقبول بإنجازات اجتماعية/ سياسية ضيقة لا تلمس جوهر علاقات الهيمنة/ للتبعية.

#### ثانياً : فعاليات برنامجية مشتركة

إن تفعيل الأشكال التنظيمية لليسار الديمقراطي على المستوى القومي تشترطها وحدة النشاط المشترك ومضامينه الفكرية/ السياسية، المناهضة للعولمة للرأسمالية والتي تحدها الموضوعات الفكرية — السياسية التالية:

١. اعتبار الكفاح من أجل الديمقراطية السياسية بما تتضمنه من إلغاء احتكار السلطة وإشاعة التعددية الحزبية وسيادة الشرعية الانتخابية المسيجة بالقوانين والتشريعات الدستورية المهمة الرئيسية في الكفاح الوطني — الديمقراطي.

إن بناء الشرعية الوطنية على أسس الديمقراطية والتداول السلمي للسلطة تشكل عاملاً أساسياً للوحدة الوطنية التي تتعرض في الظروف التاريخية الملموسة إلى التفكك بسبب انبعاث الطائفية والمذهبية والعنصرية وسواها من الأشكال التضامنية للبدائية المتبلورة في أشكال وحركات سياسية.

٢. تطوير الرؤية المشتركة لإعادة بناء الدولة القطرية على أساس الديمقراطية والموازنة/ القومية وما ينتج عن ذلك من ضمان حق القوميات في تقرير مستقبلها وشكل وحدتها مع الدولة الوطنية.

٣. التركيز على دور الدولة في إحداث وتطوير التحولات الاجتماعية المعادية للتبعية والتميش. ولغرض تصليب النسيج الاجتماعي للتشكيلة الوطنية يجري الدفاع عن موضوعه التوازن الطبقي، والذي يعني في نهاية المطاف المسؤولية المشتركة للمكونات الطبقيّة في تعزيز وتطوير وحدتها للوطنية وتطورها الديمقراطي.



إن فكرة التوازن الطبقي التي يمكن اعتبارها شكلاً من أشكال التعاقد الاجتماعي تتبع بالدرجة الأولى من التخلي عن موضوع الضيقة/ النولة التي سار عليها اليسار العربي والانتقال إلى فكرة الأمة/ النولة. بعبارة أخرى، ينبغي اعتبار الدولة الضامن السياسي/ الديمقراطي للصراعات الطبقيّة السلمية المرتكزة على توازن المصالح الطبقيّة/ الاجتماعيّة.

إن استبدال موضوع إلغاء الطبقات بسياسة توازن المصالح الطبقيّة، سينتج تشكيل أداة سياسية فعالة في الكفاح الاجتماعي لحركة اليسار الديمقراطي في البلدان العربية.

٤. الفضل من أجل الاتحاد الفيدرالي بين البلدان العربية يشكل في نهاية المطاف العبء الأساسية نحو إقامة التكتل الاقتصادي/ السياسي العربي. وفي هذا الصدد، لابد من الإشارة إلى أن الكفاح من أجل الاتحاد الفيدرالي يتطلب البدء بتطوير العلاقات الاقتصادية بين أطراف عربية يشكل سوقها الاقتصادي المشترك أساساً لإنشاء السوق العربية المشتركة.

إن الدعوة إلى الاتحاد الفيدرالي المرتكز على الديمقراطية السياسية تستمد مشروعيتها من التجربة التاريخية المعاصرة التي أثبتت أن الدولة القطرية بنهجها المعادي للديمقراطية والتوازنات الطبقيّة/ القومية لم تعد قادرة على مواصلة احتكار السلطة بأساليب قمعية/ انفرادية. ويعني ذلك ضرورة البحث عن أشكال ديمقراطية للمصالحة الوطنية وسياسات اقتصادية قومية/ عربية تنفع باتجاه تطويرها إلى ترابطات إقليمية.

إن دعوة اليسار العربي إلى الاتحاد الفيدرالي ينفخ البرجوازية الوطنية التي تعاني الحصار والتبعية إلى تقوية مواقعها السياسية، الأمر الذي يدفعها للعمل على توسيع نشاطها الاقتصادي/ السياسي على قاعدة قومية.

٥. تتمتع إعادة الوحدة الكفاحية بين حركة اليسار العربي والتيارات القومية وتطورها إلى تحالف سياسي/ ديمقراطي بأهمية مستقبلية تميزها الرؤية السياسية المشتركة الهادفة إلى بناء فيدرالية عربية قائمة على أسس الديمقراطية السياسية والتعددية الحزبية وتوازنات الكتل الاجتماعيّة/ القومية.

إن أهمية بناء التحالف للديمقراطي اليساري/ القومي يبرره انهيار المشروع الإيديولوجي المطالب بالوحدة الانتمائية للمرتكزة على احتكار السلطة والقمع السياسي، من جهة، والسياسات الفاشلة للدولة القطرية التي أضاعت الاستقلال الوطني والثروة العربية، من جهة أخرى.

٦. التأكيد على عودة الأموال العربية المهاجرة وفتح الأبواب والضمانات التشريعية والسياسية لاستثمارها في البلدان العربية حيث أثبتت التجربة التاريخية المنصرمة أن الأموال العربية المستثمرة في البنوك الأجنبية معرضة لخسائر كبيرة ناجمة عن دورية الأزمات الاقتصادية والمضاربات المالية التي تتعرض لها المراكز والمؤسسات المالية الدولية، ناهيك عن تعجدها وضياها لأسباب سياسية.

إن الدعوة إلى تشييط المطالبة بعودة الأموال العربية المهاجرة ينطلق من تحقيق هدفين هما:

العمل على إضعاف علاقات اليمين/ للتبعية بين الرأسمال الدولي والرأسمال العربي وما يعنيه ذلك من تعزيز الفرعة الاستفدكية لدى البرجوازية العربية؛ وتطوير الروابط الاقتصادية بين القوى الطبقية المختلفة في الأقطار العربية.

٧. التركيز على تحجيم سياسة التسلح والعسكرة والعمل على تحويلها إلى سياسة تنمية تخدم تطور الاقتصادات الوطنية و توسيع الروابط الاقتصادية بين الأقطار العربية، الأمر الذي يؤدي إلى تعزيز الأواصر الاقتصادية/ السياسية بين القوى الطبقية العربية الناشطة في الدوائر الاقتصادية، الإنتاجية منها والخدمية.

٨. تشديد المطالبة بآلة القواعد العسكرية الأمريكية وتحريم التحالفات العسكرية لما تمثله من مخاطر على أمن المنطقة وسلامها، والتركيز على جعل الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل.

٩. يكتسب للدعم اللامحدود لقضية الشعب الفلسطيني وحقه في إقامة دولته الوطنية المستقلة ومواصله فضح وحشية التحالف الإسرائيلي - الأمريكي أهمية نضالية لقوى اليسار الديمقراطي العربي.

خلاصة القول، إن البرنامج الوطني الديمقراطي/ القومي التحرري لأحزاب اليسار الديمقراطي يتحدد بثلاثة مستويات مترابطة:

— المستوى الوطني الذي يسعى إلى بناء ش. عية وطنية توطر اليه عملها القوانين الدستورية والمناقسة الديمقراطية. وهنا لابد من الإشارة إلى أن للمطالبة بالديمقراطية والشرعية الوطنية لا يعني الأخذ بـ(القفزة الثورية)، بل يعني تصعيد الكفاح الشعبي لانتزاع المكاسب السياسية/ الاجتماعية بصورة تدريجية.

— المستوى القومي/ الإقليمي الذي تشترطه ضرورة توسيع دائرة العمل السياسي المشترك بين القوى والفصائل اليسارية/ للقومية وصولاً إلى بناء تحالف شعبي - ديمقراطي تحتل القوى اليسارية فيه المواقع المحركة والدافعة للكفاح الديمقراطي/ القومي.

— المستوى الأممي المتمثل بتوثيق صلات اليسار الديمقراطي العربي مع الحركة اليسارية/ الديمقراطية العالمية المناهضة للحركة التتيميرية لرأس المال المعولم وتجلياته العسكرية/ الإرهابية. ؟

## الإمبراطورية الأميركية، إلى أين؟

إريك هوبسبوم<sup>(\*)</sup> Eric HOBBSBAWM

يمرّ العالم اليوم في حال لم يشهد لها مثيلاً من قبل حيث لا كثير من القواسم المشتركة بين الإمبراطوريات العالمية البائدة، مثل الإمبراطورية الإسبانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر وبذووع خاص الإمبراطورية البريطانية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وبين الإمبراطورية الأميركية الحالية.

فالعولمة قد بلغت طوراً مستجداً على ثلاثة مستويات هي الترابط والتكنولوجيا والسياسة.

فيبدأً ذي بدء بتأ اليوم نعيش في عالم مترابط إلى درجة أن العمليات الجارية يتعلق بعضها ببعض وأن أي انقطاع قد يولد انعكاسات عالمية فورية. ولتأخذ مثلاً على ذلك وباء تزامن العواض الحادة للامتنطية في الجهاز التنفسي (سارس) الذي يبدو أن مصدره المجهول عملياً هو على الأرجح من مكان ما في الصين، هذا الوباء اتخذ أبعاد الظاهرة العالمية. فتأثيره الذي أوقع خللاً في الشبكات العالمية للنقل كما في السياحة وكل أنواع المؤتمرات والمؤسسات الدولية وفي الأسواق العالمية وحتى في مجمل اقتصاد بعض الدول انعكس بسرعة ما كلنت لتخطر في البال في أي من المصور السابقة.

ثم إن هناك هذه السلطة الفاتكة لتكنولوجيا في حالة ثورة مستمرة تفرض نفسها في المجال الاقتصادي كما في المجال العسكري بنوع خاص. وقد باتت السلطة السياسية على الصعيد العالمي تمسك بهذه التكنولوجيا على مستوى دولة واسعة الأرجاء جغرافياً. وهذا ما لم يكن في الحسبان من قبل. فبريطانيا العظمى التي سادت على الإمبراطورية الأكبر مساحة في زمنها لم تكن سوى دولة متوسطة الحجم حتى وفق معايير القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وفي القرن السابع عشر، كان في إمكان دولة مثل هولندا، ذات حجم شبيه بوضع سويسرا، أن تكون فاعلة على المستوى العالمي. لكن في العصر الحالي لا يمكن تصور دولة مهما كانت غنية ومتطورة تكنولوجياً تستطيع أن تصبح قوة عالمية إن لم تكن جبلة نسبياً.

وأخيراً، فإن السياسة في أيامنا هذه باتت تنسم بطابع على درجة من التقيد. فمصرنا هذا لا يزال

عصر الدول القومية، وهو العنصر الوحيد الذي يعوق سير نظام العولمة. لكن المقصود نولة ذات نمط خاص حيث الشعب العادي يلعب دوراً مهماً، وهذا، افتراضاً، وضع جميع الدول. ففي الماضي كان أصحاب القرار يحكمون من نون الائتلاف كثيراً إلى رأي غالبية السكان. ففي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كن في إمكان الحكومات أن تراهن على تجييش شعوبها، ولأياً يكن فإنها حالياً مضطرة إلى أن تأخذ في الاعتبار أكثر من ذي قبل برأي الشعب أو بما هو مستعد للقيام به.

وبخلاف المشروع الإمبراطوري الأميركي، وهو المستجد في طبيعته، فإن كل القوى العظمى وكل الإمبراطوريات كانت تترك أنها ليست معزولة وأن ما من أحد يسعى إلى السيطرة بمفرده على العالم. وما من أحد كان يرى نفسه في حناى عن للخطر، حتى حين كان لكل يعتبر نفسه مركز العالم، مثل الصين أو الإمبراطورية الرومانية في عز قوتها. ففي نظام العلاقات الدولية الذي ساد العالم حتى نهاية الحرب الباردة كانت الهيمنة الإقليمية هي التي تشكل للخطر الأقصى. ويجب عدم اللخط بين إمكان الوصول إلى مجمل للكرة الأرضية، التي تجسدت في العام ١٩٩٢، وبين السيطرة الشاملة عليها.

فالإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر كانت عملياً الدولة «الشمولية» الوحيدة، بمعنى أنها كانت تمارس نفوذها على مجمل للكرة الأرضية، ومن وجهة النظر هذه هي تعتبر على الأرجح سابقة للإمبراطورية الأميركية. وبالعكس، فإن الروس في العهد الشيوعي، الذي حلموا أيضاً بعالم جديد كانوا يتركون تماماً، وحتى عندما كان الاتحاد السوفييتي في أوج عظمتها، أن السيطرة على العالم ليست في متناولهم، وبالعكس الدعايات التي راجت إبان الحرب الباردة هم في الحقيقة لم يفكروا أبداً في تحقيق ذلك.

غير أن الطموحات الأميركية الحالية تختلف كلياً عن الطموحات التي كانت لبريطانيا العظمى من حوالي قرن أو يزيد. فالولايات المتحدة تمثل دولة شامسة الأطراف يعيش فيها الشعب الأكثر أهمية على الأرض حيث للنمو السكاني في تزايد مطرد (بعكس الاتحاد الأوروبي) وذلك بفعل هجرة لا محدودة تقريباً إليها.

أضف إلى ذلك أن هناك اختلافاً في الأسلوب. ففي عز ازدهارها كانت الإمبراطورية البريطانية تحتل ربع مساحة الكرة الأرضية وتديرها<sup>(١)</sup>، في حين أن الولايات المتحدة لم تمارس عملياً الاستعمار باستثناء حقبة قصيرة وذلك في فترة قيام نمط الإمبريالية الاستعمارية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إذ إنها اعتمدت بالأحرى على دول مرتبطة بها أو تدور في فلكها وخصوصاً في النصف الغربي من الكرة الأرضية حيث لم يكن عليها أن تخشى عملياً أي منافس لها. وبالعكس بريطانيا العظمى فإنها طورت في القرن العشرين سياستها القائمة على للتدخل العسكري في هذه الدول.

وبما أن النزاع العسكرية للإمبراطورية للعالمية كانت في تلك الأزمنة قائمة على البحرية فإن الإمبراطورية البريطانية عمدت إلى السيطرة على قواعد بحرية وعلى مراكز ارتباط ذات أهمية استراتيجية في العالم أجمع. ولذلك فإن أسطولها «اليونيون جاك» كان يطوف البحار، ولا يزال،

من مصيق جبل طارق إلى جزر الفوكلاند مروراً بسانت ليلان. بينما الأميركيون لم يحتاجوا هذا النوع من القواعد خارج المحيط الهندي إلا بعد العام ١٩٤١، وقد أمثوا ذلك لأنفسهم بالتوافق مع ما سُمي فعلاً في ذلك الوقت بـ«تحالف الإمبراطورية». لكن الوضع الآن بات مختلفاً بالنسبة إلى الولايات المتحدة، فهي تشر بحاجتها إلى أن تؤمن لنفسها مباشرة عدداً كبيراً من القواعد العسكرية، مواصلة في الوقت نفسه السيطرة على النول بطريقة غير مباشرة.

وأخيراً هناك بعض الفروقات المهمة في بنية الدولة على الصعيد الداخلي وعلى صعيد الإيديولوجيا. فهذه الإمبراطورية البريطانية كان محض بريطانيا وليس شمولياً بالرغم من أن دعايتها قد ابتدعوا لها طبعاً دوافع أكثر اهتماماً بالغير. وهكذا نجد أن القضاء على نظام الرق استخدم كمبرر للقوة البحرية البريطانية تماماً كما يستخدم مبدأ حقوق الإنسان في الغالب لتبرير القوة العسكرية الأميركية. وعلى غرار فرنسا وروسيا الثورة فإن الولايات المتحدة تمثل قوة عظمى قائمة على فكرة للثورة الشمولية تحركها، بحكم هذا الواقع، فكرتها القائلة بأن على سائر العالم أن يحتذى بها، وحتى أن عليها تحرير هذا العالم. وليس أخطر من إمبراطوريات تدافع عن مصالحها الخاصة معتقدة أنها تقدم خدمة للإنسانية جمعاء.

وفي أي حال، فإن الفرق الجوهري يكمن في أن الإمبراطورية البريطانية — وإن كانت اتخذت طابعاً شمولياً، أكثر حتى، في شكل ما، من الإمبراطورية الأميركية المعاصرة، كونها قد تمتعت وحدها بالسيطرة على البحار أكثر مما سيطرت أي دولة أخرى في الأجواء — لم تسع إلى الاستئثار بسلطة شاملة ولا حتى بسلطة عسكرية وسياسية على الأرض في مناطق مثل أوروبا أو أميركا. فلقد كانت الإمبراطورية تسعى لتأمين مصالح بريطانيا العظمى الأساسية، أي مصالحها الاقتصادية، عاملة قدر الإمكان على عدد لتدخل في شؤون الآخرين. وهي كانت على النول تترك حدودها في مجال الحجم الجغرافي ومصادر الثروة. وبعد العام ١٩١٨ أدركت الإمبراطورية إلى حد بعيد أن نجمها إلى أفول.

ومن جهة أخرى، فإن الإمبراطورية العالمية التي أقامتها الأمة للصناعية الأولى في العالم قد عرفت كيف تعدّ لعدة نظام عولمة كان لنهضة الاقتصاد الإنكليزي الفضل الكبير في تميمته. فهي مثلت نظام تجارة دولياً ارتبط بشكل أساسي، وبقدر ما كانت للصناعة تتطور في المركز، بتصدير الإنتاج الصناعي إلى النول المتخلفة، مما سمح للندن مقابل ذلك، بأن تصبح السوق الأهم للمواد الأولية في العالم<sup>(٦)</sup>. وبعد أن انكفأ دورها كمصنع للعالم أصبحت بريطانيا العظمى مركزاً للنظام المالي العالمي.

إلا أن هذا لا ينطبق على الاقتصاد الأميركي الذي يركز على حماية صناعات البلاد في وجه أي منافسة أجنبية في أسواقها الداخلية المتمتع ببطاقة ضخمة، هذا العامل الذي يبقى في أيامنا هذه عصباً مهماً في السياسة الأميركية. لكن تراجع هذا الاقتصاد عن احتلال ما كان له من موقع مهيمن في العالم الصناعي للمعاصر بات يشكل بالتحديد إحدى نقاط الضعف في الإمبراطورية الأميركية في القرن الحادي والعشرين<sup>(٧)</sup>. فالولايات المتحدة تستورد من سائر دول العالم كميات

كبيرة من البضائع المصنعة مما يولد لدى أصحاب المصالح التجزئية كما في أوساط الفخنيين الأميركيين رنة فعل مطالبة بنظام الحماية. فقد قام نوع من التقصص بين إيثولوجيا العالم الخاضع لنظام التبادل الحر تحت الرعاية الأميركية من جهة، وبين المصالح السياسية لأطراف فاعلة في الولايات المتحدة تعرض هذه الإيثولوجيا مصالحها للخطر، من جهة أخرى.

وأجدى وسائل حل هذه المشكلة تكمن في تنمية تجارة الأسلحة، وهي من الفوارق الأخرى بين الإمبراطوريتين البريطانية والأميركية. فمنذ الحرب العالمية الثانية بنوع خاص بلغت عملية مراكمة الأسلحة في زمن السلم في الولايات المتحدة مستوى غريبا لا سابق له في التاريخ الحديث وهذا ما يفسر السيطرة التي يمارسها «المركب الصناعي العسكري» الذي ندد به الرئيس دوايت أيزنهاور في عصره. فخلال أربعين عاما من الحرب الباردة كان المعسكران يتكلمان ويتصرفان وكأن الحرب قائمة فعلا أو أنها على وشك الانفلاع. في حين أن الإمبراطورية البريطانية كانت قد بلغت أوج ازدهارها خلال قرن من الزمن (١٨١٥ - ١٩١٤) لم يشهد أي حرب عالمية مهمة. وبالرغم من التفاوت الجلي بين القوتين الأميركية والسوفييتية فإن حركة النمو هذه التي وسمت صناعة التسلح الأميركية قد تزايدت بشكل ملموس حتى قبل نهاية الحرب الباردة واستمرت بعدها.

وحركة التسلح هذه قد حولت الولايات المتحدة قوة مهيمنة في العالم الغربي. ففي مطلق الأحوال كان هذا التفوق يمارس على رأس تحالف حيث لا أحد بالتأكيد كان يتوهم في شأن الأهمية النسبية للشركاء. فقد قامت السلطة في واشنطن وليس في أي مكان آخر. ونوعا ما كانت أوروبا تعترف وقتها بمنطق الإمبراطورية الأميركية العالمية، وهذا ما يجعل واشنطن حاليا تسخط لأن إمبراطوريتها وأهدافها لم تعد مقبولة فعلا، إذ لم يعد هناك وجود لـ «تحالف الإيرادات الطيبة» ذلك أن السياسة الأميركية الحالية هي الأقل شعبية بين كل السياسات التي مارسها أي حكومة أميركية وربما أي قوة عظمى أخرى.

وفي ما مضى كان الأميركيون يديرون هذه العلاقات وفق اللياقة التقليدية في العلاقات الدولية، مراعين الواقع الذي يضيء الأوروبيين على خط المواجهة في المعركة مع الجيش السوفييتي، وهذا لا يعني أن التحالف لم يكن مشهوداً إلى الولايات المتحدة إذ هو كان مرتعنا لتكنولوجياها العسكرية. وعلى الدوام ظلت واشنطن بشكل منتظم معارضة إنشاء قوة مسلحة مستقلة في أوروبا. والخلاف القديم بين الأميركيين والفرنسيين والذي يعود إلى عهد الجنرال ديغول، يعود في جذوره إلى رفض بلريرس الاكتفاء بتحالف جامد وإلى رغبته في الحفاظ على قدرات مستقلة بغية امتلاك تجهيزات عسكرية ذات تكنولوجيا عالية. وبالرغم من حالات التوتر إلا أن التحالف ظل في أي حال بشكل فعلاً «تحالف الإيرادات الطيبة».

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي أصبحت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة التي ليس لأي أمة كبرى أخرى أن تطمح إليها أو أن تتحداها. فاستمرارض القوة هذا المفاجئ والغريب الوحشي والعدائي يصعب فهمه، كونه لا يتقاطع لا مع السياسة الإمبراطورية المعهودة منذ زمن طويل

والتي نفدت خلال الحرب الباردة ولا مع المصالح الاقتصادية الأمريكية. فالسياسة التي سادت في واشنطن منذ زمن قريب تبدو خرقاء في نظر المراقبين الخارجيين إلى درجة يصعب فيها إدراك أهدافها الحقيقية. فالواضح أن الأمر بالنسبة إلى الذين يسيطرون كلياً أو ألقه نسبة النصف على مجرى القرارات في الولايات المتحدة يتعلق بتأكيد التفوق العالمي بواسطة القوة العسكرية غير أن الهدف من هذه الاستراتيجية يبقى غامضاً.

فهل لن أمام هذه السياسة فرصة للنجاح؟ يبدو أن العالم هو على درجة من التعقيد بما لا يسمح بسيطرة دولة واحدة. ولا ننس أن الولايات المتحدة، وباستثناء التفوق العسكري، مرتينة لملوارد تنقص أو في طريقها إلى النقصان. ومع أن اقتصادها عظيم إلا أن الحيز الذي يحتله في الاقتصاد العالمي يتضاءل. ولذلك هي معرضة على المدى القصير كما على المدى الطويل، لفتنخيل مثلاً أن منظمة الدول المصدرة للنفط قررت عدا أن تسعر يرميل النفط باليورو بدلاً من الدولار...

ولا بد من الاستنتاج أن الأمريكيين خلال السنة ونصف السنة الماضية قد ضحوا بمعظم أوراق قوتهم السياسية، حتى وإن ظلوا يسكون بالبعض منها. فبالثبات تستمر السيطرة الغالبة لثقافتهم وللتغهم الإنكليزية، غير أن الميزة الرئيسة التي يملكونها في مشروعهم الإمبراطوري تكمن في الناحية العسكرية. وعلى هذا الصعيد لا نظير للإمبراطورية الأمريكية ومن المحتمل أن تبقى هكذا في المدى المنظور. لكن هذه الميزة الحاسمة في الحروب المحصورة ليس بالضرورة أن تبقى كذلك في المطلق. لكن عملياً ما من دولة، ولا حتى الصين، تمتلك ما لدى الولايات المتحدة من هذا المستوى التكنولوجي، إلا أنه ينبت دائماً التفكير في حدود التفوق العسكري وحده وحسب.

ونظراً ليس في نية الأمريكيين طبعاً احتلال العالم أجمع، فهذه الولايات المتحدة أن تخوض الحرب لتتصّب حكومات صنيقة لها وتعود إلى ديارها. لكن الأمر لا ينجح بهذا الشكل. ففي القاموس العسكري شكلت حرب العراق نجاحاً باهراً. إلا أن إدارة بوش، المنشغلة بهذه الهدف وحسب، قد تغاضت عن الضرورات التي تفرض نفسها لدى احتلال دولة ما وإدارتها وتعهدها، كما فعل البريطانيون في حالة الهند، نموذج الاستعمار الكلاسيكي. فـ«نموذج الديموقراطية» الذي يريد الأمريكيون تقديمه للعالم أجمع عبر العراق ليس فيه في الواقع أي من موصفات النموذج. وإبه لمن باب الهلوسة الاعتقاد أن بإمكانهم تجاوز بعض الحلفاء الفعليين بين حائز الدول أو الاستغناء عن الدعم الحقيقي في الدول التي صارت بإمكانهم احتلالها عسكرياً (من دون أن يتمكنوا من إدارتها).

لقد قدمت الحرب على العراق مثلاً على نزق أصحاب القرار في واشنطن. فالعراق كان بمثابة دولة ساقطة عسكرياً لكنها رفضت أن تستسلم، ولقد كان هذا البك من الضعف بحيث أنه كان من السهل إلحاق الهزيمة به. وقد شاعت الأقدار أن النفط كان من بين أوراق القوة التي امتلكها غير أن الهدف الأساسي من العملية قام على استعراض القوة عالمياً، مما يعني أن السياسة التي تحدث عنها المنطرون في واشنطن، ومنها إعادة صياغة شاملة لمجمل الشرق الأوسط، لم

تكن ذات معنى. فإن كانوا ينوون قلب النظام الملكي في السعودية فماذا سينصبون مكانه؟ ونحن نترك أنهم إذا كانوا يخططون جدياً لتغيير المعطيات في المنطقة فليس أمامهم إلا أمر واحد يقومون به وهو ممارسة الضغط على إسرائيل. وهذا ما فعله والد الرئيس جورج دبليو بوش في العام ١٩٩١ بعد حرب الخليج الأولى وليس خلفته في البيت الأبيض. وبدلاً من ذلك فإن الإدارة الحالية قضت على نظام علماني من اثنين في الشرق الأوسط وهو ما تحلم بالحقه بالنظام الآخر.

والتبرير العلني لهذه المسيرة يتم عما فيها من خواء، فعبارات من نوع «محور الشر» أو «خريطة الطريق»، البعيدة كل البعد عن صياغة استراتيجيا، ليست سوى جمل جاهزة يفترض بها أن يكون لها تأثير في حد ذاتها. غير أن «اللغة المستحدثة» التي تتدفق على العالم منذ سنة ونصف سنة تكشف عن غياب السياسة الفعلية. فالسيد جورج دبليو بوش نفسه لا يمارس السياسة بل يلعب. ويقوم بعض السياسيين مثل السيناتور ريتشارد بيرل وبول وولفويتز بتقليد رامبو عندما يتحدثان سواء على الملأ أم في المجالس الخاصة. وكل ما يهم هو أمر واحد: إظهار القوة الأميركية المطلقة وحسب. وتوضيحا لذلك يجب أن نفهم أن في إمكان الولايات المتحدة أن تتجاثر أي دولة شرط ألا تكون كبيرة جداً وأن يتحقق النصر سريعاً. ولا يمكن اعتبار هذا استراتيجية ولا أن نتوقع نجاح هذه السياسة.

وهناك خطر في أن تكون الانعكاسات خطيرة على أميركا. فعلى الصعيد الداخلي يمكن القول أن التولية التي تسعى إلى السيطرة على العالم وخصوصاً بالوسائل العسكرية، تقوم بمجازفة السقوط في العسكرة وهذا ما لا يحسن تقديره جدياً حتى الآن.

والدليل على ذلك هو عدم الاستقرار المسيطر حالياً على الشرق الأوسط بما هو أسوأ مما كان عليه منذ عشر سنوات. أو حتى خمس. فالسياسة الأميركية تضعف جميع الجهود الرامية إلى إيجاد الحلول الممكنة، الرسمية منها وشبه الرسمية، من أجل الحفاظ على النظام. وهي قضت في أوروبا على منظمة حلف شمال الأطلسي، وإن كان هذا لا يشكل خسارة كبيرة، لكن المهزلة هي في محاولة تحويل الشرطة العسكرية العالمية إلى خدمة الولايات المتحدة. ولقد زُنت واشنطن ضرب الاتحاد الأوروبي كما تسعى بشكل منتظم إلى إلغاء أحد أهم إنجازات ما بعد الحرب العالمية الثانية أي «الدولة الراعية»، النيموقراطية والمزدهرة. وفي المقابل يبدو لي أن أزمة مصداقية الأمم المتحدة أقل خطورة، إذ إن هذه المنظمة لم تكن في يوم من الأيام قادرة على القيام بأي عمل غير هامشي كونها ترتهن كلياً لمجلس الأمن ولاستخدام الأميركيين حق النقض (الفيتو).

فكيف سيتمكن العالم من مواجهة الولايات المتحدة، أي بمعنى آخر استيعابها؟ طبعاً يرى البعض أنهم لا يملكون الوسائل للقيام بذلك ويفضلون بالتالي التحالف معها. والأكثر خطورة هم أولئك الذين يستهجنون الإيديولوجيا التي يعمل بها البنتاغون لكنهم يدعمون المشروع الأميركي بنزعة أنه سيؤدي في النهاية إلى القضاء على بعض المظالم المحلية والإقليمية. وهذا النوع من «إمبريالية حقوق الإنسان» قد استمد قوته من فشل أوروبا في دول البلقان خلال تسعينات القرن المنصرم. ففي النقاش العام حول حرب العراق، قلة من المفكرين النافذين، مثل مايكل إيجناتييف



أو برنار كوشنير، دعت إلى عدم التدخل الأميركي معتبرة أن من الضروري اللجوء إلى القوة من أجل تسوية ماضي العالم. وطبعاً إن بعض الحكومات هي من الخطورة بما يجعل في القضاء عليها منفعة للعالم أجمع. لكن هذا لا يمكن أن يبرر الخطر الذي تمثله على مجمل العالم، قوة عالمية لا تبتغى لمال لا تفهمه ويسهل عليها في أن واحد التدخل عسكرياً ضد أي طرف لا يعجبها.

وفي عمق الصورة نرى الضغط المتزايد على وسائل الإعلام، ففي عالم بنت الرأي العام على هذا القطر من الأهمية تصبح هذه الوسائل عرضة لتلاعبات كبيرة<sup>(١٠)</sup>. ففي حرب الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) ونقدنا لتكرار الوضع في فيتنام حاولت القوى التحالف أن تمنع وسائل الإعلام من الاقتراب من ساحة المعركة، ولكن ثون جنوى إذ انتشرت في بغداد وسائل إعلام مثل «سي.أن.أن» لتغطية الأحداث بشكل مختلف عما كانت تتمناه واشنطن. وبالعكس فخلال حرب العراق ألحق بعض الصحفيين بالقوات على الأرض بغية التأثير على زبديت للأموار بشكل أفضل. لكن شيئاً من ذلك لم ينجح فعلاً. وبالتالي ستكون هناك مستقبل محذرات أليح وسائل سيطرة أكثر فعالية، وربما مباشرة، وفقاً لأخر التطورات التكنولوجية. وهذا لا ينفي أن الفناطو بين الحكومات وأصحاب احتكارات الاتصالات يسعى إلى مزيد من الفعالية على غرار محطة «فوكس نيوز» في الولايات المتحدة<sup>(١١)</sup> أو إمبراطورية السيد سيلفيو برلوسكوني في إيطاليا.

ومن المستحيل التنبؤ كم من الوقت سينود التفوق الأميركي. لكن الأمر البوحيد الذي نحن متأكدون منه كليا هو أن في الأمر ظاهرة مؤقتة في التاريخ كما كانت جميع الإمبراطوريات. ففي مدى حياتنا فقط شهدنا سقوط جميع الإمبراطوريات الاستعمارية و«إمبراطورية الألف عام» المزعومة لدى هتلر والتي لم تد إلا لثني عشر عاماً وسقوط الحلم السوفييتي بالثورة الأممية.

والإمبراطورية الأميركية قد تسقط لأسباب داخلية، والأكثر إلحاحاً منها هو كون الإمبريالية، بمعنى السيطرة على العالم وإدارته، لا تثير اهتمام معظم الأميركيين الملتفتين للاحرى إلى ما يحدث داخل الولايات المتحدة. فالاقتصاد هو على نرجة من الوهن ما سيحمل الحكومة والناخبين الأميركيين يوماً على اتخاذ قرار بأن من الأهم الانكباب على هذا الأمر بدلاً من خوض المغامرات في الخارج<sup>(١٢)</sup>. أضف إلى ذلك أنه، وكما يحدث حالياً، سوف يكون على الأميركيين أنفسهم أن يمولوا جزءاً كبيراً من هذه التدخلات الخارجية، وهذا ما لم يحدث لا في حرب الخليج ولا إلى حد كبير إبان الحرب الباردة.

ومنذ العامين ١٩٩٧ - ١٩٩٨ يمر الاقتصاد الرأسمالي العالمي في أزمة. وهو بالتأكيد لن ينهار لكن ليس من المعقول أن تستقر الولايات المتحدة في خوض سياسة خارجية طموحة إذا ما طرحت بعض المسائل الخطيرة على الصعيد الداخلي. فسياسة السيد جورج دبليو بوش الاقتصادية الوطنية لا تستجيب حكماً للمصالح الداخلية أكثر، ولا سياسته الدولية تتميز حكماً بالعقلانية حتى من ناحية المصالح الإمبراطورية الأميركية ولا مصالح الرأسمالية الأميركية بالتأكيد. ومن هنا تباين وجهات النظر داخل حكومته.

والسؤال الأساسي الذي يطرح نفسه الآن هو معرفة ما سيفعله الأميركيون الآن وكيف ستكون

ردة فعل سائر الدول. فهل أن البعض، مثل بريطانيا، العضو الوحيد عملياً في التحالف المساند، متمسكي قداماً وتدعم أي مشروع تنهض به واشنطن؟ فيجب أن يصدر عن الدول ما يبين أن هناك حدوداً للنفوذ الأميركي. فحتى الآن، تركيا وحدها هي التي ساهمت في هذا الاتجاه بالشكل الأكثر إيجابية وذلك عندما أكلت بكل بساطة أنها غير مستعدة لاتخاذ بعض القرارات رغم علمها أن هذه القرارات كانت لتعود عليها بالقلادة.

والهدف الرئيس في الوقت الحالي، إن لم يكن استيعاب الولايات المتحدة، إنما هو تهذيبها أو إعادة تهذيبها. ففي زمن مضى كانت الولايات المتحدة تعرف حدودها، أو على الأقل كانت تترك ما تحقّقه من المصالح لو تصرفت وكأنها تعرف حدودها، وكان هذا عائداً في جزء كبير منه إلى الخوف من الآخر، مثل الاتحاد السوفييتي. أما الآن وقد زالت تلك المخاوف فإن إدراكها فعلاً مصلحتها وتهذيبها هما البديل الممكن.<sup>(\*)</sup>

(حديث أجرته فكتوريا برينتن)

(\*) مؤرخ من مؤلفاته بنوع خاص:

L'Âge des extrêmes. Le court XXe siècle, 1914-1991. Complexe-Le Monde diplomatique, Bruxelles-Paris, 1999

(١) راجع: Eric Hobsbawm, L'Ere des Empires, Hachette Littérature, Paris, 1999

(٢) المرجع السابق op. cit

(٣) راجع:

Blowback The costs and consequences of American Empire, Chalmers Johnson Owl Book, 2001

(٤) اقرأ:

"France protests US media 'plot'" in Le Monde, The International Herald Tribune, 16 mai 2003

(٥) راجع:

Eric Alterman, "Il paraît que les Américains sont de gauche" Le Monde diplomatique, mars 2003

(٦) راجع: "US unemployment hits an 8 year high" in The International Herald Tribune, 3 mai 2003

# المعبد والزقورة

## في عمارة وادي الرافدين

### صبيح الحمداني

بعد أن استقرت القبائل الرعوية في تجمعات سكانية وانتقلت، في سبيل الحصول على قوتها، من صيد الحيوانات إلى تدجينها ومن القاطع وجمع الأشجار والحبوب إلى زرعها، بدأت أولى التجمعات السكانية بالنشوء، ولأخذت تمارس أعمال الزراعة البدائية. صاحب هذا التحول النوعي في أسلوب المعيشة، تطور في المعتقدات الدينية. فقد ارتبطت الزراعة بالظروف الطبيعية المتقلبة، ولكنهم ربطوا هذه التقلبات بإرادة الآلهة ورغبتها. ومن أجل اتقاء غضبها، والحصول على ظروف مناخية ملائمة، أقاموا المعابد البدائية كحلقة وصل مع الآلهة لاسترضائها وكسب عطفها لإبعاد الكوارث الطبيعية، وتوفير المحاصيل الزراعية، وتكثير الماشية وحماية الإنسان من الأوبئة.

بدأت في أوائل الألف الرابع ق.م. أول دويلات المدن في النشوء جنوب وادي الرافدين، وهي المنطقة التي أصبحت تسمى (سومر)، وأصبح المعبد يمثل المركز الديني والسياسي والإداري لدويلات المدن.

اختلفت أشكال وأنواع المنشآت المعمارية، وفق متطلبات وظائفها وأهدافها. وفيما يخص العمارة الدينية، يمكن تأشير نمطين أساسيين من التجمع المقدس للمعبد والمذبح. شيد الأول مباشرة فوق أنقاض المعبد القديم، وشيد النمط الآخر المتطور، فوق مصطبة مرتفعة هبات لهذا الغرض. من أهم العوامل التي ساهمت في تطوير هذه المنشآت، هي المواد الإنشائية المستخدمة، فبسبب الطبيعة الجغرافية لجنوب ووسط وادي الرافدين وعدم وجود الجبال، أو الغابات لاستخدام الحجر الطبيعي، أو الأخشاب الجيدة، فقد استخدم المعمار الرافدي التراب، الذي يتوفر بشكل واسع، وصنع منه الطين لتكوين الآجر بنوعيه اللين (اللين) والمفخور، كما استخدمت عيدان القصب التي تنتشر بكثرة في مناطق الأهوار، وكذلك جنوع النخيل، لهذا فإن مادتي الطين وعيدان القصب أصبحتا تمثلان المواد الإنشائية الأساسية المستخدمة، والتي طبعت العمارة الرافدينية بطابعها الخاص لعدة آلاف من السنين. إلى جانب هذه المواد الإنشائية، استخدم الحجر



الطبيعي وبعض أنواع الأخشاب الجيدة في شمال وادي الرافدين، كما استلج المعمار الرافداني مواد إنشائية جديدة تتسم بالمتانة مثل الحجر الجيري، الذي شيدت به جدران معبد «أوروك»، وقد صنع هذا الحجر من خلط الجير مع مسحوق الأجر.

لا يعتبر برج بابل الصرح الشامخ الأول أو الوحيد من نوعه في العالم القديم، بل جاء حصيلة تطورات طويلة ومعقدة في فن العمارة الرافدينية، بدأت بشكلها البسيط المسطح والمستقر فوق مرتفع من الأرض، أو فوق مصطبة تتكون من طبقة واحدة، لترتفع بعدئذ، مع تحسن وتراكم الخبرة الإنشائية، وتطور المعتقدات الدينية. وبلغت أوجها في القرن السادس ق.م بإنشاء برج بابل المشيد من سبع طبقات، وبارتفاع ٩٠ متراً.

وصل مصطلح «الزقورة» إلينا عبر اللغة الأكديّة السامية وبلغظ Ziqurratu ويعني قمة الجبل أو المكان العالي، وقد ورد بهذه الصيغة في ملحمة (جلجامش)، في معرض إشارتها إلى رسو سفينة نوح البابلي (أوتونبشتم) فوق قمة الجبل وفي الأكدية فوق «الزقورة»، وقد نقلت هذه الأسطورة إلى الأكدية عن الملحمة السومرية، ولعل المواقع المرتفعة ترتبط في وعي السومريين، ربما بأماكنهم الأصلية التي تبحروا منها.

اكتشف المنقبون في مدينة (أريدو) السومرية منشآت دينية بدأ تشييدها في الألف الخامس ق.م. تتكون الطبقات السفلى منها من معابد بسيطة مجردة، شيدت بالطين اللبنّي (الطوف) مباشرة فوق سطح الأرض، ومع كل تجديد أو توسع في المدينة، ويصاحب ذلك عادة تطور في الفكر والطقوس الدينية، كانت المعابد القديمة تهدم وتُشيد على أنقاضها معابد جديدة، وخلال حقبة امتدت لمئات من السنين، ارتفعت كتلة مختارة، من مجمع المعبد المقدس، تتكون من طبقات عديدة، أصبحت تمثل صرحاً شاخساً يشرف بهيئة ووقار على كافة المباني في المدينة. قاد هذا التطور إلى أن تضاعف، في معظم الأحيان، إلى مخطط مجمع المعبد الجديد زقورة ملحقة به. يصعب تقدير الدوافع الحقيقية لإقامتها، فيما إذا كانت تمثل، أول الأمر، رغبة لاهوتية واعية من أجل إبراز معالم المعبد المقدس وربطها بالسماء موقع مجموعة الآلهة الرافدينية، أو أنها ارتفعت بسبب استخدام أنقاض المعبد القديم كأسس (مصطبة) للمعبد الجديد ولكن يمكننا الجزم بأن المصاطب المرتفعة أصبحت تمثل إحدى معالم عمارة مجمع المعبد المقدس في وادي الرافدين. أضيفت إلى المصاطب منحدرات مناسبة تحيط بها، وفي أحياناً كثيرة كانت هذه المنحدرات متباعدة أو متقطعة، كما أضيفت إليها سلام عدة أصبحت، في وقت لاحق، تمثل جزءاً أساسياً من مجمع المعبد.

مع تطور الفكر الديني وطقوسه المرافقة له، تطور المخطط الأساس لهذه المعابد، فشيدت نماذج من عمارة المعبد مستفيدة من تراكم وتطور الخبرة والمهارة المعمارية، أصبحت، ولعدة آلاف من السنين، تمثل بطلانها العام المخطط الأساس لعمارة المعبد في وادي الرافدين. وهي عبارة عن قاعة واسعة طويلة مستطيلة الشكل تقع في مركز المعبد، يوجد في أحد جوانبها القصيرة منصة شيدت جدرانها بالأجر، وفي الجانب المقابل توجد كتلة مكعبة الشكل شيدت جدرانها بالأجر كذلك، تعد بمثابة مذبح أو قاعدة للأضاحي. تحيط بالقاعة، من كافة جوانبها، غرفاً عديدة صغيرة تستخدم

بعضها لطقوس العبادة وأخرى كمخازن لهدايا المعبد والقرابين التي تقدم له يتم النخول إلى القاعة بواسطة سلم يقع في وسط الجانب العريض من القاعة، يحتوي مسار الجدران الخارجية للمعبد على مرتدات أو خضفات منتظمة تمتد إلى جميع الواجهات، وقد وجدت معالم النموذج المذكور في الطبقة السابعة من معبد «أريو» الذي شيد في الألف الرابع ق.م. كما اكتشفت في الطبقات العليا منه عدة مصاطب شيد المعبد فوقها، كان ذلك في أواخر الألف الثالث ق.م.

مع بداية الألف الثالث ق.م. تسارع تطور دويلات المدن في بلاد سومر جنوب وادي الرافدين، وارتبط هذا التطور بانتعاش الحياة الاقتصادية واستغلال الأرض، باعتبارها الوسيلة الأساسية في الإنتاج، كما تم إنشاء شبكة واسعة من الأنهار لري الأراضي، وانعكس هذا التطور على مختلف جوانب الحياة، وخاصة في مدينة (أوروك) التي أصبحت مركز الحياة السياسية والاقتصادية في بلاد (سومر)، وبدأت مختلف المواد الإنسانية، والتي لم يعرفها جنوب وادي الرافدين سابقاً، بالوصول من خلال التجارة، واستخدام مجاري الأنهار في نقلها، مثل الحجر الطبيعي والأخشاب الجيدة.

تطورت مهارة المعمار الرافديني في تشييد المعابد التي أصبحت تمثل المركز السياسي والاقتصادي، إضافة للديني، في دويلات المدن، فأصبحت المعابد تشيد على مصاطب عديدة ومدرجة. ظلت المعابد تشيد أو تجدد في نفس مواقعها القديمة، بدون أي تعديل جوهري في مخططها الأساس بسبب قسمة طقوس العبادة، لهذا يمكننا تتبع التطور المعماري لها منذ أن شيدت فوق الأرض البكر من خلال سبر المقطع العمودي لها.

شيد المعبد الرئيسي في (أوروك)، الذي كرس لعبادة كبير الآلهة السومرية (انر) وإلهة الخصب (إنانا)، على مصطبة بارتفاع ١٢ متراً فوق سطح الأرض، واستقر فوقها ما أصبح يعرف بالمعبد الأبيض، بسبب طلاء واجهته بالجبس. تبلغ أبعاد القاعة الوسطية ١٨,٥ متر × ٥ متر، تحف على جانبيها الطوليين غرف صغيرة متعددة الوظائف تشرف على القاعة. شيدت جدران القاعة بالأجر اللبني الذي يتطلب العناية والصيانة الدائمة، ربما يعود سبب استخدام هذا النوع من الأجر إلى مواقع أو طقوس دينية.

تبلغ معظم مقاسات أطوال الأجر اللبني المستخدم، ما بين الشبر ونصف المتر طولاً. ومن أجل تزيين معبد (إنانا)، غرست في جدران واجهاته ألقام إسفينية الشكل من الطين المسفخور، لونت هذه الألقام بالألوان عديمة ونسقت بأشكال هندسية جميلة، (يمكن مشاهدة بعض منها في متحف بركامون في برلين). استخدم هذا النمط من التزيين في معبد (أوروك) أول الأمر ثم انتشر استعماله في معظم معابد وادي الرافدين.

انتشرت مجمعات المعابد الكبيرة، التي تتوسطها الزقورة المدرجة، بشكل واسع في معظم مدن وادي الرافدين الرئيسية، حتى بلغ عددها ٣٦ زقورة تقريباً، سوف نتطرق بإيجاز إلى أكثرها شهرة.

معبد زقورة (خفاجي) في منطقة (ديالى) والذي يمثل نموذجاً معمارياً نادراً. شيد هذا المعبد البيصوي للشكل، والذي لم يبق من معلمه إلا القليل، في نهاية الألف الرابع ق.م. واستمرت أعمال

الصيانة والتجديد فيه حتى أواخر الألف الثالث، شيد المجمع فوق طبقات عديدة من الرمل النظيف، على مساحة تقارب ثمانية آلاف مترا مربعا، بعد أن أزيلت ما يقارب ٦٤٠٠٠ متر مكعب من طبقات الأرض الطبيعية، ولأن نجد تفسيراً إنسانياً لهذه العملية، ربما يتعلق الأمر ببعض طقوس العبادة. يتكون مجمع المعبد البيضوي من السور الأول نصب بوابته العالية، ثم سور ثان بيضوي للشكل أعلى من السور الأول. شيد داخل السور الثاني معبدا مستطيل الشكل، وفق المخطط الأساس السائد والذي أشرنا إليه سابقا على مصطبة بارتفاع ٦ أمتار، يوجد ضمن نطاق السور الأول بيت كبير ربما لسكن كبير للكهنة. شيدت الزقورة، باعتبارها المكان الأقدس في المجمع، في الجانب الخلفي من المعبد، تصل إليها كافة سلالم المعبد ومدخله مباشرة. شيد هذا النوع من المعابد البيضوية الشكل في مناطق أخرى، مثل المعبد المشيد في منطقة تل العبيد. استخدمت في تشييد جدران هذا المعبد أشكال أخرى من الأجر اللبني وهي محنية الشكل وملساء، كما أن جدرانه لم تشيد وفق نمط الترابط المتناهي بين الأجر بل رص الأجر جنب بعضه بشكل مائل وفق أسلوب ما يسمى (عظام السمك)، وظل هذا النوع من الأجر يستخدم طوال ٢٠٠ عام ثم اختفى.

### الزقورة السومرية

أما النموذج البارز الآخر لعمارة الزقورة فهو معبد وزقورة آلهة القمر (نانا) سين البابلية في (أور)، والذي مازالت بعض معالمه شاخصة لحد الآن، بالإضافة إلى آثار بعض القنوات والأنابيب داخل المعبد والتي ربما كانت تستخدم في المطبخ أو في بعض طقوس العبادة. شيد هذا المجمع في أوائل الألف الثالث ق.م. أبان حكم السلالة السومرية الأولى، ويبدو أنه بدأ بتشيدته على أنقاض معبد قديم، الذي حولت أنقاضه إلى مصطبة شيد عليها المعبد الجديد. شيدت جدران الزقورة من الأجر المحنّب للشكل، لهذا السبب تبدو للناظر عن قرب وكأن جدرانها الرشيقة العالية قد تحنّبت بشكل بسيط. من المعتقد أن استخدام هذا النوع من الأجر المحنّب في تشييد الجدران العالية، كان لتجميل اللوارجات فقط، وليس بهدف الترميم، حتى لا تبدو عن بعد، وكأنها شبه مقسرة، كما هو الحال في نمط الأعمدة الفرعونية واليونانية التي شيدت بتحنّب بسيط حتى تبدو للناظر عن بعد وكأنها مستقيمة وشاقولية، وكما أسلفنا، فإن هذا النمط من الأجر المحنّب الشكل لم يعد يستخدم في العمارة لرافدية بعد منتصف الألف الثالث ق.م.

ازدهرت الحياة الاقتصادية ومعالم الحضارة في مدينة «أور» خاصة أبان حكم الأمير (أور) — نامو عام ٢٠٥٠ ق.م. الذي أمر بتشيد مجتمعات المعابد الفخمة ليس في (أور) فقط بل في مدن (أوروك، نمر ونيبور واريبو)، معتلها خطى الإمبراطورية الأكديّة، ومن خلال الوثائق المسجلة على ألواح الطين يمكننا إعادة رسم معالم المعبد الرئيسي والطقوس الدينية التي كانت تقام فيه.

في هذه الحقبة التاريخية اكتملت معالم المخطط الأساس للمعبد والزقورة وفق متطلبات طقوس العبادة، حيث أحيطت الزقورة بباحة واسعة، ولا تقام فيها الطقوس إلا في المناسبات الدينية الخاصة. شيد في اللواعة الجنوبية من باحة الزقورة نصب لبوابة كبيرة تعتبر بمثابة مقر لإقامة

المحاكم وسماع الدعاوى كما إنها كانت مكانا لاجتماع وجهاء المدينة للتشاور واتخاذ القرارات، كان الملك يعتبر، وباسم الآلهة، الحاكم الأول، ويطلق على نفسه أسم «راعي الرؤوس السود»، وكانت الاحتفالات السنوية تقام في باحة كبيرة تقع في الجانب الشمال الشرقي من المجموع.

ترتفع زقورة (أور)، المشيدة من ثلاث طبقات، عن الأبنية المحيطة بها، وتبلغ أبعاد قاعدة المصطبة الأولى ٦٢,٥م × ٤٣ م وبارتفاع ١١ مترا فوق مستوى الباحة، ويبلغ ارتفاع الطبقة الثانية ٦ أمتار، أما الطبقة الثالثة والمعبد للمشيد فوقها فقد اندثرت تماما ولم يبق من معالمها سوى ثلاثة أمتار، وهناك اختلاف في تقدير ارتفاع الطبقة الثالثة والمعبد المقدس، وعلى هذا فإن ارتفاع المعالم الشاخصة في الوقت الراهن يبلغ حوالي ٢٠ مترا.

شيدت القاعدة من الأجر اللبني الصلد، في حين غلفت جدرانها المنحنية بالأجر المفخور، تتخلل القاعدة مرتدت منظمة، وشيدت الطبقة لثانية بمساحة أقل من الأولى. فقيم في الجانب الشرقي من الزقورة سلم خارجي كبير يستند إلى جدارين في جانب الزقورة، ولا يرتفع هذا السلم إلى مستوى الطابق الأول للزقورة. غلفت جميع جدران الزقورة بالأجر المفخور وبمسك يبلغ المتران، وهي طريقة نادرة في تاريخ العمارة الرافدينية بسبب المجهود الكبير الذي يتطلبه تنفيذ أصال التغليف والذي يستوجب تشغيل أعداد كبيرة من عمال البناء. شيد الملوك السومريون زقورات عديدة في مدن مثل «لوروك» بدون أن تغلف جميع جدرانها بالأجر المفخور، ولهذا السبب اندثرت معظم معالمها.

### الزقورة في بلاد آشور

بدأ الملوك الآشوريون أبان ازدهار الإمبراطورية الآشورية في بداية الألف الثاني ق.م، بتشيد المعابد والزقورات في المدن الآشورية، وهي لا تختلف في مخططها الأساس عن المعابد والزقورات السومرية، سوى أن الزقورة الآشورية شيدت بجانب المعبد تماما بدون أن تحاط بباحة، كما هو الحال في سومر، كما أن كبير الآلهة الآشورية «آشور» حل مكان الآلهة السومرية والبابلية. أستخدم الحجر الطبيعي والأخشاب الجيدة في تشيد المعابد والقصور، لوفرتها في المنطقة الشمالية من وادي الرافدين.

شيد المعامل الآشوري (شمشي - ادد)، المعاصر للعامل البابلي (حمورابي)، في الزاوية الشمالية من مدينة آشور (قلعة الشرقاط حاليا) وعلى تل مرتفع، معبدا لآله آشور ألحقه بجانب الزقورة مباشرة والتي شيدت في عهود سابقة، ومن خلال الأكوام المسمارية التي عثر عليها في منطقة آشور، يبدو أن الزقورة شيدت أول الأمر من أجل كبير الآلهة السومرية (أفليل)، ثم حولت بمنزلة إلى عبادة الآلهة (آشور) بعد أن رسخت للدولة الآشورية قدامها. استمر الملوك الآشوريون في القيام بأعمال الإضافة والتجديد في الزقورة في الأزمنة المتعاقبة، لهذا يتعذر متابعة الأصول الأولى للزقورة وطابعها المعماري أو المخطط الأساس للمعبد.

شيدت زقورة أخرى في معبد مدينة «كارنا» في منطقة «تل الرماح»، على قاعدة بأبعاد ٣١,٥ متر × ١٩ متر ملتصقة بالمعبد تماما، لهذا كان الدخول إليها يتم عبر المعبد، وقد أبدع

المعمار الآشوري ليس في تزيين الواجهات الخارجية فحسب، بل وفي توزيع كتل الفضاءات بشكل مدروس يعكس مهارة فنية فائقة. أهتم المعمار الآشوري بالجدران الخارجية للمعبد وزينها، وخاصة بواباتها الخارجية، بأنواع من التماثيل الضخمة الحارسة، بالإضافة إلى النحوت البارزة التي تستمد موضوعاتها من الأفكار والطقوس الدينية والحياة اليومية، كما إنها سجلت مآثر وانتصارات الملوك الآشوريين، بالإضافة إلى الاهتمام بتشييد المردفات المتتابعة والمنظمة في الجدران الخارجية وتزيين واجهاتها بالأجر المزجج الملون وزخرفة لفاريها. في أبان ازدهار الإمبراطورية الآشورية وسيطرتها على نويات وادي الرافدين وتوسعها باتجاه البحر المتوسط وحتى أولسط هضبة الأناضول، شيد الملوك الآشوريون العديد من الزقورات الملحقة بالمعابد، كما شيدوا بعض الأحيان زقورتين متجاورتين في موقع واحد كما هو الحال في معبد «أنو - اند» في مدينة آشور، كما قام هؤلاء الملوك بتجديد وصيانة الزقورات التي شيدت سابقا مع إجراء بعض الإضافات والتحويلات عليها.

من المنشآت المعمارية الهامة التي شيدت أبان العصر الآشوري، هو مجمع الملك سرجون الثاني في (دور - شركين) بالقرب من نينوى، والذي شيده عام ٧١٣ - ٧٠٧ ق.م. يقع القصر الملكي المهيّب في مركز المجمع تحف به قصور كبار موظفي الدولة وكنهة المعبد، عزل المجمع، المستطيل الشكل، تماما عن المساكن العامة بسياج، طول أضلاعه ما يقارب ١٦٨٣ متر  $1750 \times$  متر، شيد القصر الرئيسي على مصطبة ترتفع ١٢ مترا عن مستوى الأرض الطبيعية، واستخدمت في تشييدها مكعبات ضخمة من الحجر الطبيعي. ألحقت بالقصر عدة معابد مقسمة وزقورة شامخة، بحيث لا يمكن الدخول إلى هذه الأماكن المقدمة إلا عبر القصر الملكي. شيدت في الجانب الجنوبي من القصر عدة معابد للألهة «سين» إله القمر وللإله «شمش» إله الشمس. زينت جدران المعابد بالإضافة إلى النحوت البارزة التي تصور انتصار العاهل الآشوري على أعدائه، زينت كذلك بالأجر المزجج الذي أضفى رونقا جماليا على هذا المجمع. يرتفع ضمن المجمع برج الزقورة بتناسق معماري فريد مع فضاءات الكتل المعمارية الأخرى. شيدت الزقورة على قاعدة مربعة طول ضلعها ٤٢ مترا. ترتفع الطبقات المتعاقبة والمتساوية الارتفاعات، بمقدار ٦,١ متر لكل طبقة، كما أن مساحاتها تتناقص كلما ارتفعت، ومازالت معالم أربع طبقات ماثلة لحد الآن، أما الطبقات الثلاث الأخرى فقد اندثرت تماما. وبهذا فإن ارتفاع الزقورة الكلي يبلغ ٤٢,٧ متر، وعندما يحسب ارتفاع القاعدة التي شيدت عليها الزقورة، وهي نفس قاعدة القصر المرتفعة، يصبح هذا النصب المعماري بحق المركز المميز في مجمع الموقع. طليت ولجهة الزقورة الخارجية وخسفتها بطبقاتها المتعاقبة بالجبس الملون، ويبدو أن لكل طبقة كان لونها الخاص، فلا زال لون الطبقة الأولى وهو الأبيض واضح المعالم كذلك لون الطبقة الثانية وهو الأسود ثم اللون الوردي فاللون الأزرق للطبقتين الثالثة والرابعة، ومن العسير تقدير لون الطبقات الثلاث الأخرى التي اندثرت، وهناك تقديرات متفاوتة لها تبدأ باللون الذهبي للقاعة العليا المقدسة.

### للزقورة في العمارة البابلية



تعتبر زقورة «عركوف» والتي لا زالت معالمها شاخصة لحد الآن، أحد الأمثلة البارزة على تطور فن عمارة الزقورة الرافدينية، فقد شيد للمعبد والزقورة في أواسط الألف الثاني ق.م. اعتقد الكثير من الرحالة الغربيين بأنها تمثل بقايا برج بابل الشهير. شيد للمجمع المقدس في زمن السلالة الكشية بعد أن سيطرت على الإمبراطورية البابلية نين لفل سلالة (حمورابي). سيطرت الإمبراطورية الحثية عام ١٥٣٠ ق.م. على «بابل» أول الأمر ودمرت الكثير من معالمها الحضارية، وقد استغلت الأقوام (الكشية) الفوضى والتدخل العسكري ليشنوا هجوما واسعا قادم إلى السيطرة على «بابل» وطرد (الحثيين) منها. تقرب الكشيون، وهم من الأقوام الآرية، إلى المعتقدات الدينية البابلية، كما استخدموا اللغة البابلية في مخاطبتهم الرسمية وجعلوا من مدينة بابل عاصمة لهم أول الأمر، ولكنهم قاموا أخيرا بتشييد عاصمة جديدة لهم أطلق عليها أسم (دور - كوريكالزو) في الموقع الذي يسمى الآن (عركوف) بالقرب من بغداد.

ترتفع أثار زقورة (عركوف) في الوقت الراهن حوالي ٥٧ مترا. شيدت الزقورة بالأجر اللبنى، وقد أجريت عليها أعمال الصيانة من قبل مديرية الآثار العراقية، فخلقت قاعدتها بالأجر المفخور. من خلال التفحص الدقيق لمعالم الزقورة الشاخصة، يمكننا التعرف على أسلوب بناء الزقورة الرافدية، فقد وضعت بين الطبقات الألفية للأجر اللبنى عدة طبقات متعكسة من أعواد القصب المنغمسة بالإسفلت، وهي بمثابة التسليح، لشد طبقات الأجر مع بعضها ولإبعاد مخاطر سقوطها، وهو نفس الأسلوب الذي استخدم في تشييد زقورة «أور». يتم الصعود إلى الزقورة من خلال سلم رئيسي شيد في وسطها، بالإضافة إلى سلمين على الجانبين. يبدأ السلطان الجنتيل بالصعود من الجانبين الأيسر والأيمن لجدران زقورة ثم يلتفان حول زوايتي الزقورة وبعدها يلتقيان سوية مع السلم الوسطي. شيدت السلام بواسطة الأجر المفخور ولستخدم الإسفلت كمادة ربط حيث سكب بين مفصل الأجر، وقد حملت قطع الأجر ختم الملك (كوريكالزو) الثاني الذي حكم وادي الرافدين من عام ١٣٤٥ - ١٣٢٤ ق.م.

شيد في الأصل معبد صغير بجانب السلم الوسطي، كما شيدت ثلاثة معابد قرب الزقورة لعبادة الآلهة (انليل) وقرينته (نينليل) والثالث مكرس لعبادة آله الحرب (نينورتا).

### برج بابل

يثير برج بابل، واسمه البابلي (أتمناكي)، في مخيلة الكثير من الغربيين، ويتأثير الكتاب المقدس بعهد القديم، ذكريات تاريخية غابرة نسجت من الشواهد التاريخية الرافدينية، التي أضفيت إليها مسحة أسطورية لخدمة الأهداف اللاهوتية، بالإضافة إلى ما كتبه (هيرودوت) عندما زار بابل عام ٤٦٠ ق.م. وشاهد برج بابل شاخصا، ولهذا السبب حاول العديد من الرحالة والبعثات الببلماسية والتبشيرية، منذ مئات السنين، عبثا العثور على موقع برج بابل الحقيقي. فقد اعتقد العديد منهم، كما أسلفنا، بأن زقورة «عركوف» أو زقورة «يرس - نمرود» هو برج بابل، بالرغم أن موقع مدينة بابل أو بالأصح بقاياها، كان معروفًا منذ زمن طويل.

بدأت في مطلع القرن التاسع عشر حتى انتهاء الآثار والمعالم الحضارية، وخاصة للضخمة منها،

التي تعود للحضارات القديمة وخاصة في مصر، كما بدأت البعثات الإنكليزية والفرنسية تنقب وبشكل محموم من أجل الحصول على تماثيل ضخمة في المواقع الأثرية في وادي الرافدين. وعندما اكتشفت إحدى البعثات الإنكليزية مكتبة العاهل الآشوري (أشوربانيبال) في نينوى ومن جملتها بعض الألواح الطينية المدونة فيها أجزاء من ملحمة «جلجامش» وإشارتها إلى أسطورة طوفان السومرية الشهيرة المثبتة في التوراة، ارتفعت وبشدة حمى التنقيب والصراع بين المنقبين مصحوبة بأعمال النهب المكشوف والولسع وحتى التخريب والتدمير. قلعت إحدى البعثات الإنكليزية بالتنقيب في مدينة بابل، وبشكل سطحي وغير علمي، في أواخر القرن التاسع عشر، وسرعان ما تركت الموقع. وضمن هذا التوجه المحموم أرسل قصر ألمانيا بعثة تنقيب إلى العراق برئاسة المهندس المعماري (كولوي).

بدأت البعثة الألمانية بالتنقيب في مدينة بابل في ١٨٩٩/٣/٢٦ وخلال أسبوعين من العمل، اكتشفت أجزاء من بوابة عشتار، وبدأت (بابل)، وبشكل متسارع، تكشف عن نقائسها الفخمة، والتي ظلت مطمورة تحت التراب لأكثر من ألفي عام. كان الكثير من الأجر المستخدم قد اصطبغ باللون الأحمر جراء الحرائق التي أشعلها الأعداء.

أرسى لير فسور (كولوي) تقاليد علمية جديدة في علم التنقيب هدفها الدقة وتثبيت واقع الحال المكتشف وتسجيل أو رسم وأرفقه كل شيء، وأصبحت هذه التقاليد العلمية الرصينة مدرسة احتذى بها كافة المنقبين في وقت لاحق.

ساهمت بعثة التنقيب الألمانية كذلك، أسوة بباقي البعثات، بعملية النهب والسطو على آثار وشواخص حضارة وادي الرافدين، حيث نهبت، وبسرعة بالغة، أجمل وأعظم نصب معماري أنجزته الحضارة الرافدية، ألا وهو بوابة «عشتار» التي ترتفع ١٤ متراً بأجرها الرائع المزجج والملون، يتخلل واجهها نحتات بارزة تصور أنواع الحيوانات الأسطورية التي ترمز إلى كبير الآلهة البابلية «مردوك». استغلت البعثة الألمانية غباء سلطات الاحتلال التركي وفسادها، وقامت بنقل البوابة وشارع الموكب إلى برلين خلسة، على شكل طرود بريدية قبل الحرب العالمية الأولى. (وهي معروضة الآن في متحف بركامون في العاصمة الألمانية).

برزت إحدى الصعوبات التي واجهتها البعثة الألمانية في مناسيب المياه الجوفية المرتفعة، وعندما تعطلت سدة الهندية في بداية عام ١٩١٣، والتي شيدت أكثر جدرانها من الأجر البابلي، استغلت البعثة هبوط منسوب المياه الجوفية بحدود ٣,٥ متراً للتنقيب المحموم عن أسس برج بابل التي كانت بحق ثلاثة أمتار أسفل مستوى المياه الجوفية.

تبلغ أبعاد قاعدة زقورة (برج) بابل ٩١,٦٦ متراً × ٩١,٤٨ متراً، وتتوجه أضلاع قاعدتها باتجاه الجهات الأربعة تقريباً، وقد شيدت بالأجر اللبني على طبقة من الطين اللقي الذي لا يسمح للماء بالاندفاع، كما عثر على خفافات من الخشب ترتبط لدخل القاعدة من خلال تجويف من جهة، وبطبقة طين لثقي من جهة أخرى، ومن الواضح أن هدفها شد القاعدة بإحكام إلى الأسس. غلفت القاعدة، التي ترتفع عمودياً، بالأجر المفخور الذي يمسر بشكل متعرج وفق مرتداتها المنتظمة. ترتبط القاعدة بسلم في الجهة الجنوبية بعرض ٨,٢ متر يحتوي على ٥٦ درجة، ولا زالت ١٨ درجة منها واضحة المعالم، كما

توجد آثار جدران لقاعدة سلم في الجانب الجنوبي بعرض ١٠ أمتار وطول ٥٠ مترا.

يتكون البرج من سبع طبقات، تقل مساحة الطابق كلما ارتفع، وتتكون الطبقة السابعة من المعبّد المقدس وبأبعاد  $24 \times 22,5$  مترا. تقام فيه، إثناء عيد السنة البابلية في نيسان من كل عام، طقوس الزواج المقدس الذي يشارك فيه كبير الكهنة، الذي يكون الملك في معظم الأحيان، مع كبيرة الكاهنات، وعلى ضوء إحدى الوثائق والتي تسمى لوح (أي — ساكلا)، التي عثر عليها في (أور)، وهي المصدر الأساس للمعلومات الدقيقة عن برج بابل، فإن المعبّد المقدس يحتوي على غرف عديدة خصصت أكبرها لكبير الآلهة البابلية (مردوك) وغرف أخرى أصغر خصصت لبعض الآلهة الأكل شانا، كما أشار اللوح «طيني» إلى «بيت السرير» وحدد أبعاده بطول ٤,٥ متر وبعرض متران، كما يوجد عرش للملك بالقرب من السرير.

تباين ارتفاعات طبقات برج بابل، وعلى ضوء الوثيقة المذكورة والتي ثبتت الأبعاد وفق المقاسات السومرية، وهي على شكل وحدات ثابتة من المقاسات تبلغ كل وحدة ٦,١ متر، بهذا يكون ارتفاع كل طابق كالآتي:

الطبقة الأولى ٣٣,٥٥ مترا، الطبقة الثانية ١٨,٣٠ مترا، الطبقة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، كل منها على ارتفاع ٦,١٠ مترا، الطبقة السابعة ١٥,٢٥ مترا، وعلى هذا يصبح المجموع الكلي لارتفاع الزقورة ٩١,٥ مترا. وفي ضوء ذلك يكون الارتفاع الكلي للزقورة مساويا لطول ضلع القاعدة المربعة.

شيد في الجزء الوسط من الزقورة، كما هو الحال في زقورة (أور)، سلم رئيسي يرتفع إلى ٤٠ مترا، بطول ٦٠ مترا وعرض ٩ أمتار، كما يوجد سلمان على الجانبين، يبلغ ارتفاع كل منهما ٣٠ مترا وبعرض ٩ أمتار كذلك. شيدت طبقات البرج من كتلة صلبة من الحجر اللبني، وغلقت قاعدته بالأجر المفخور، ويبلغ سمك التغليف ١٥ مترا. لم يتبق الأكرين، إلى اليوم، لتفقا كاملا على تفاصيل السلام العليا أو مسارها، فهناك العديد من النماذج المختلفة بهذا الشأن.

نستعير هنا النص الذي يصف فيه المعامل البابلي (نبوخذنصر) البرج، الذي له كامل الحق بالافتخار والاعتزاز به:

«أكلت قمحتي (برج بابل المدرج)، واستخدمت في تشييده الإسفلت والأجر المزجج باللون الأزرق للفتح، وجعلته ميرا كالنهر، كما استخدمت، وبكثرة، أضخم أخشاب الأرض لتشييد سقف غرفة».

عندما زار المؤرخ اليوناني (هيرودوت) بابل عبر في كتابه «تأريخ» عن إعجابه ودهشته لفخامة برجها، كان قد عد ٨ طبقات له، وهذا يتناقض مع وثيقة (لوح أي — ساكلا) التي أوردت تفاصيل دقيقة عن مساحات الطبقات وارتفاعاتها، ويقتد الكثيرون بأنه خطأ وعد المعبّد المقدس في الطابق السابع بطبقتين، بسبب ارتفاعه الكبير عن الطوابق التي تحته. كما توجد وثيقة أخرى للمعامل الآشوري (السرحدون) يتحدث فيها عن بناء قاعدة لبرج بليعد تطابق تماما أبعاد قاعدة برج بابل، وذلك إثناء سيطرة الإمبراطورية الآشورية على بابل، قبل أن يحتلها المعامل الكلداني (نبوبلادصر)، والذي كان أميرا المنطقة

البحرية في جنوب منطقة بابل، أبان السيطرة الآشورية، وتوج فيها عام ٦٢٦ ق.م. الذي يأسر بنشيد للبرج، أو ربما الاستمرار في تشييده، ومن المعروف أن فيه الملك (نبوخذ نصر) الثاني ٦٠٤ - ٥٥٢ ق.م. قد أنجز بنقله. هناك تفاق بين معظم الأثريين على ملاحظة البروفيسور (كولوي) مكتشف البرج، بأن قاعدته قد شيدت في مرحلة أقدم من مرحلة طبقة الأجر المفخور التي غطت به القاعدة.

بدلت عمارة الزقورة بالتطور، مرتفعة من مصطبة واحدة إلى ثلاث وخمس طبقات وأخيرا سبع طبقات كما في برج بابل. إن مجمل النواحي الكائنة وراء هذا النزوح نحو الأعلى، ربما كان الاعتقاد اللاهوتي الرافدي، الذي كان يحول الاكتراب لكثير نحو مجمع الآلهة في السماء، لإيجاد رابطة مباشرة بين الأرض والسماء، بين الإله ونائبه الملك، وهنا يكمن اختلاف جوهرى مع المعتقدات المصرية القديمة، حيث كان المصريون يشيّدون الأهرامات ويحظون الموتى لتخليد موتاهم لاعتقادهم بعودة الروح (كا) إلى الميت ليحيى مرة ثانية ويمارس حياة تشبه حياته الأرضية. وهي عكس المعتقدات الدينية الرافدية، التي تؤمن بحتمية الموت وعدم خلود الإنسان، كما تعتقد بأن العودة من مملكة الأموات غير ممكنة لغير الآلهة. هذه المعتقدات وجدت طريقها في نمط وهدف المعابد أو الزقورات، التي لم تشيّد كقبور، أو لتهيئة الإنسان للحياة الأخرى، وإنما كوسيلة لقترب من الآلهة. شيدت الزقورات لشاهدة إلى جانب المعابد الواطنة، وهنا أيضا يوجد اختلاف جوهرى في المعتقدات والأهداف بين المجمع المقدس الرافديني، وبين مجمع المسجد والمنارة الإسلامي، رغم بعض الأراء التي تدعي وجود علاقة لاهوتية، ربما هناك تأثير معماري بحت للزقورة على الشكل المعماري للمنارة، ويمكن مشاهدة هذا التأثير بوضوح في ملوية «سامراء»، وهناك أمثلة عديدة في هذا المجال. شيدت المنارة الإسلامية بجانب المسجد بهدف دعوة المؤمنين، ومن مكان عال، إلى الصلاة والعبادة للإله الواحد وهذا يختلف تماما عن الأهداف المتوخاة من تشييد الزقورة الرافدية.

استخدمت الزقورة في وقت متأخر كمرصد لمراقبة النجوم وتسجيل التغيرات الحاصلة في مساراتها مع محاولة للتنبؤ بالحوادث وخاصة تلك التي نهم الملك.

وأخيرا لابد لنا من الإشارة إلى أن (الامسكندر المقدوني) عندما سيطر على عموم وادي الرافدين زار (بابل) في عام ٣٣١ ق.م. أي بعد مرور ١٣٠ عاما على زيارة (هيروdot) والتي كانت آنذاك شائعة وتعمق بالحياة، في حين وجدها (الامسكندر) وقد اندثرت معالمها الأساسية وتحولت إلى كتل من الأنقاض. وحسب مؤرخي سيرته، حاول جاهدا إعادة الحياة لها و تشييد برجها، فجد لها عشرة آلاف عامل لإزالة الأنقاض وتجميعها في الجوار (ويمكن اليوم مشاهدة تلال هذه الأنقاض التي تحيط بالمدينة القديمة)، ولكنهم عجزوا عن إتمام المشروع وبخاصة بعد موت (الامسكندر) المبكر، حيث وضع خلفائه حدا لهذه المحاولة. مات (الامسكندر) عام ٣٢٣ ق.م. في (بابل) ودفن فيها. ؟

المصادر: طه باقر: الموجز في تاريخ حضارة وادي الرافدين

E.Klengel-Brandt: Der Turm von Babylon.

Petra Eisele: Babylon

# أدب وفن



## سقوط بغداد..

## أم سقوط الطاغية ؟!

لا أدري كيف يستمرى «امروء» عبارة «سقوط بغداد» تعبيراً عن سقوط نظام صدام حسين!



كيف يستمرى «امروء» عبارة «سقوط بغداد»، بينما اسم (بغداد) هو اسم منزلة وبريء... بل هي (مدينة السلام) ورمز حضارة!

وكيف يستمرى امروء أن ينكر بأن هذا السقوط هو الحادي والعشرون في تاريخها.. معترفاً، وإحدى وعشرين مرة، بسقوط «اللزامة» و«البراءة».. معترفاً بسقوط المعنى، معنى (مدينة السلام).. معنى كودها رمز حضارة!؟

بغداد معنى، والمعنى لا يسقط.. وكل سقوط مرء بها لا يعني سقوطها ولا سقوط أبنائها، أو سقوط إنجازها الإنساني والحضاري.. بل هو سقوط طغاتها للحكام، وغزاتها الطغاة.. الساقطين في أوج انتصارهم!

قد يقول قائل: إنه تعبير سائد ومعروف ومألوف، مثل سقوط موسكو أمام نابليون، وسقوط باريس أمام هتلر، وسقوط برلين أمام ستالين.. و.. و.. إلخ.. ولكنني أقول له: لقد جائت صواب الروح، فحتى هذه للتعبير التي سادت فُحِرتْ وألفتْ أجدها موجعة ومنحرفة، وتحمل للتشفي أكثر مما تحمل الإخبار أو المواساة.

هل سقطت بغداد بعد هولاكو.. أم سقط هولاكو بعد سقوط الخليفة الذي كان يُطعمُ حميرَ «البرينة» الفسق المقر، بينما سود شعبه لا يحظى بكسرة خبز شعيراً هل سقطت بغداد، حينما سقط نوري السعيد والحكم الملكي!؟

هل سقطت بغداد، بعد مقتل عبد الكريم قاسم في ٨ شباط ١٩٦٣!؟ فهل يمكن أن تسقط بغداد، وقد سقط طاغيته.. وكان سقوطه هو أمل أهل العراق من (زاخو) حتى (صفوان) ومن (خالقين) حتى (H3)!؟

فكيف — إذن — يستمرى «امروء» في صحافتنا الحالية عبارة «سقوط بغداد» تعبيراً عن سقوط نظام للطاغية!؟

مهدي محمد علي

## حق الرفقة العجيب

سعدي يوسف



لأبي محمد، أحمد، المتنبّي، ولـ«مُعْجَز» أعذر، وبه لؤذ، مُترعاً حقّ رفقة  
مُدعاة، مُترعاً بحبّ أكتّمه لم يَنزِ جسدي، بل لقد زلّه بُرماً وبراءة.

أقولُ هذا، وأنا أقرأ قصيدة أبي محمد ذات المطلع اللّبي، شأنٍ مطالمة:

أيسري الريح أيّ دم أراقا      وأيّ قلوب هذا أركب شاقا؟  
حتى إذا بلغت البيت:

تركنا من وراء العيس نجداً      ونكبنا السماوة والعراقا  
وجئتني في حيرة من أمر، ذلك لأني لروي البيت رولتي الفريدة:

تركنا في مهبّ الريح نجداً      ويممنا السماوة والعراقا  
وأحياناً لرويه كالآتي:

تركنا من وراء العيس نجداً      ويممنا السماوة والعراقا

• • •

لكأنني لم أَرِد لأبي الطيّب أن يحيد عن السماوة والعراق، مُصنّداً إلى حلب وسيف الدولة، أو  
كأنني ضللت به، فوددت لو تلبّث شيئاً، قبل أن يكون على قلبي كان الريح...

للاستعادة منطقها،

وللتجريب منطقها أيضاً.

وهاأنذا أتغنّي بالسماوة والعراق، في حضرة أبي الطيّب، بطريقة خاصة. لقد قُتل المتنبّي في  
ما بعد، ببادية السماوة التي نكبها يوماً، مُصنّداً إلى حلب، لئلا أنا قد نجوت من القتل ببادية  
للسماوة، في مصادفة محض لم تُنَحّ للمتنبّي.

• • •

كان العام ١٩٦٣.

ومنذ أوّل ذلك العام، أي منذ مؤامرة الخونة، ظلت تُقتل بين السجون العراقية، جنوباً حتى  
ملتقى شط العرب بالخليج، ووسطاً حتى بعقوبة، مروراً ببغداد في انتقالات عيشية بقطارات

حمولة، وسيارات سجون ذوات قضبان، وحافلات مستأجرة؛ كأن الكون ليس غير سجون وسجناء وشرطة وضحايا (أنا بين الضحايا على أي حال).

في مرحلة من المئاماة الكافوكية، بلغ بي المقام نفرة السلطان، وهي قلعة في أقاصي بلدية السماوة عند التخم العراقي - السعودية، بناها أبو حنيفة (الجنرال غلوب باشا في ما بعد) لأغراض أولها أن يصد مخبري الوهابية (كان الواحد من جمالهم يحمل مغيرين اثنين) الذين ظلوا يحاولون أن يجعلوا العتبات المقدسة نوارس (وهي خير القبور في رأيهم)، لكن بين الأغراض الأخرى أن تكون القلعة مأوى السجناء الخطرين...

إذا، صرت، بقدرة قادر طبيعياً سجيناً خطراً.

الوصول إلى نفرة السلطان ليس يسيراً، بل أنه لفرط صعوبته، صار حلماً أو كالحلم... أنت، حكم عليك، وجاء، بعد ضرب ومهينة وسفارية إعدام عشوائي... وهكذا صرت تفكر بأن الأمور بلغت حداً معيناً، نقطة توقف في الأقل، وبأنك سوف تتكيف لظروف جديدة، قد تطول أو تقصر، لكنها مرحلة محددة على أي حال. كم أنت واهم.

إن بينك وبين نفرة السلطان لبرزخا، وهي تتراءى لك الآن جنة في البعد، جنة للأمان والتقاط الأنفاس، والنوم إلى آخر الدهر...

أما البرزخ فهو شرطة التفسيرات التي تتوَلَّى نقل المحكوم عليهم، من أمثالك، إلى ماويهم المتناثرة على طول العراق وعرضه، وما العراق بإبلد الصغير...

إذا، ستكون في موقف السراي اللصيق بسجن بغداد المركزي، أسطورة السجون ومجازرها. هناك تنتظر دورك في التفسير.

زوايا الموقف احتلها العتاة من السجناء للعابدين، وعليك أن تجد لك مرتعاً تغرش عليه بطانيتك التي اعتدت حملها من موى إلى آخر (كانت لي حشية وثيرة سماها المحكومون «فندق بغداد»، إكباراً لها، وسخرية، واضطرت إلى التخلي عنها لفرط ثقلها)، ولأن تتدبر مأكلك، ومشربك، والشاي؛ وأن تتأمل العتاة أثناء شرهم، إذ كانوا يستخدمون لإيذاء السجناء السياسيين. الحياة، بإطلاق، على غير ما يُرام.

ونفرة السلطان تتراءى في البعد، حلماً!

...

ليس من يوم موعود...

الأسياء تبدأ فجأة، وتنتهي فجأة، مثل يوم الحشر. مثل الولادة المباعثة والموت العنيف. النور الذي في آخر النفق (كما يقول التعبير المزدرع في صحافتنا)، يهل في حياة شرطي يجلب الأرزاق (طعام الحكومة)، وهو أساساً ما جادت به مخيلة المتعهد من قوت. هذا الشرطي ذو المعاش المرت، قد يبدو المنفذ:



حين يسلّمك رزقك (رغيف خبز وكوكاكولا مثلاً)، تعطيه بالسرّ دينارين وعوناً لقریب أو صديق، كي يذهب حين يحلّو له، ويخبر القريب أو الصديق بأمرك ومستقرّك.

المحظوظون منا سيأتهم الأهل والصديق بالثوب النظيف، وبالمأكّل اللطيف صواني عامرة ندعى إليها فلتاتهم الأخضر واليابس، وتمصص أصابعنا مثلذتين...

لكن الفضل العميم لشرطي الأرزلق سيكون يوم يقال لك:

الآن تسفرون إلى النفرة (النفرة اسم تحبيب لنفرة للمسلمان!)

إذ يتعيّن عليك أن تخبر أحداً بأنك ستكون هناك، وأنك سالك اليوم درب من صدّ ما رُدّ (بالتعبير الشعبي غير المزدرع)، بمعنى أن رحلتك قد تكون رحلة اللاعودة، مثل مجنّد القيصر الروسي.

ملحوظة:

جاء في الرواية الروسية الكلاسيكية أن الفتى المجنّد الذي ما نبت عارضاه بعد، تباح له للقرية سبعة أيام بليلاتها، غزافاً متبعاً، فيفعل الفتى ما يشاء، يعبّ الفودكا لينطرح في أي درب أو أي بيت، ويعاشر من فتيات القرية من استحلى، عابثاً أو مُعابثاً... يكسر الأبواب، ويدخل من الشيابيك. ذلك لأنّه سالك بعد سبعة أيام درب من صدّ ما رُدّ. سيظلّ في جيش القيصر جندياً حتى لو طالّت لحيتّه الشائبة لتبغّل قنميه!

\*\*\*

أنا لم أبلغ أحداً أمري.

كنتُ وفقاً لأنّي لن أكون وحدي في الرحلة الطويلة من بغداد إلى مركز السماوة (بالبطاري)، ومن مركز السماوة (بالحافلة العتيقة) عبر المفازة الخطرة اللامتناهية حتى التحوّم العراقية — السعودية حيث النفرة.

نقول الأغنية الشعبية:

نخل السماوة يقول...

وبعد عشر سنين من ١٩٦٣:

توهّمَت نخل السماوة نخل السماوات...

وأبو الطيّب المتنبّي، وفكك الأسدي، وبداية السماوة!

في رحلة القطار ذي المقاعد الخشب، وطول المسافة الشنيعة (القطار بطيء) من بغداد إلى محطة السماوة كنا مكبلين، اثنين اثنين؛ ينك لشمال موقفة — (الكليجة) إلى يد رفيقك اليمين، والشرطي ذو البندقية هو الجليس لثالث على المقعد الخشب.

أترضى لنا هذا العذاب يا أبا إسماعيل؟

الحق أنها لم تكن رحلتي الأولى بالتكبير المزدوج، إذ بعد أن أصدرت المحكمة العسكرية بمعسكر الوشاش في بغداد حكمها عليّ، نُقلتُ أولاً إلى البصرة بالطريقة إياها، وعبر الطريق إياه.

أتذكر الآن أننا بلغنا محطة السماوة في الضحى.

والموقف في مركز شرطة السماوة كان مكتظاً...

كان معظم المعتقلين في المركز من أبناء البلدة، باستثنائنا نحن القادمين من قطار بغداد، المنتظرين متابعة الرحلة لخرافية عبر تلك البيداء التي لم يعرف بها ساكنٌ رسماً...

انتبهتُ، أنا القادم من مائة الهول، إلى جوّ المرح الشائع؛ واستمعتُ إلى أغنية خفيفة في ركن، وتذكرتُ أن أهل البلدة مشهورون بالغناء، والكرم، والبسمة الدائمة. هانح أولاء وراء القضبان جميعاً... لكن أهل السماوة يرحون!

نحن، الذين ألقانا القطارُ هنا، لم نُطل للمكث. خُسرنا في الحافلة المتداعية، ظهراً، في الطريق الرهيب إلى نقرة السلمون.

أعتقد أن الحافلة كانت تحمل ركاباً عابيين أيضاً، شرطة وموظفين في تلك الناحية الملعونة حقاً. لا أتذكر الآن، إن كنا، نحن السياسيين، مكثين أم لا داخل الحافلة، والأرجح أننا لم نكن... إذ أن الحافلة هي، فعلاً، قاربٌ للنجاة الوحيد، والغفر من القارب يعني الهلاك الأكيد، ظمأ أو لغترساً بأنياب الذئاب في هذه المغارة (والحكايات عن مصير التائهين هنا ليست نادرة).

كم ساعة كانت المسافة بين السماوة والنقرة؟

لمستُ أعرف. لكن الطريق لم يكن ذا معالم، أو هكذا بدا لنا، نحن الحاضر. توقفت الحافلة مرتين، مرة لإصلاح خلل ماء، وأخرى لتزويد «الراديوتر» ماء.

فجأة لمحنا شجراً.

وقال قائل: النقرة!

لقد «بزغت» نقرة السلمون، مباغتة، من القفر المحيط. إنها لفي خيبت من الأرض، تتلج رأسها، فعل الأفعى، لتبتدى بكامل شرها وزينتها. نقرة السلمون التي أعلنت عن نفسها وسط هذه المغارة، بشجر متناثر، بدا فائق الخضرة، سوف تطبق علينا بأسوارها العالية نواب الأبراج العشرين، كما تطبق الأفعى للفتنة.

توقفت الحافلة في الظل. هبط «العاديون» مسرعين إلى الهواء الطلق الساخن، أما نحن، فعليناً أن نمرّ بمرحلة التسليم والتسليم في مكتب خارج الأسوار، قبل أن تُفتح للبوابة الكبرى لتلتهمنا.

هل بمستطاعنا الآن، وبعد مضي أربعة عقود، أن نستعيد بدقة ماء، إحصائي حين بلغت قلعة النخوم هذه؟

أتراني فكّرتُ بما ينتظرني فيها، وبما سألتني هناك، ومن ألقى؟

هل فكرت بالزمن المطلق؟

لو بمعنى أن أكون، أنا، في هذا الموقع من خرافة العقاب؟

أظن الأمر في غاية الصعوبة الآن...

لكني متأكد من إحساس واحد: أنا لم أكن خائفاً!

ربما كان هذا بسبب من طيش ظل يلازمي...

لست في ما لكتب الآن رواية أيام ولحادث مرت علي في نفرة المسلمين، ولا مؤرخ تفاصيل؛ لم أسع إلا إلى مقارنة معينة بين سبرتين فصلت بينهما قرون وقرون، أما مقصدي فهو تبيان أن حالنا لم يتبدل كثيراً، وأن بداية السماوة ظلت، كمهدا، منذ زمان أبي الطيب، مقلة كامنة للشاعر كما لسواه.

لقد أشاع الانقلابيون، أوائل السبعينيات، أنهم سيهثون «نفرة المسلمين» هذا، فكتبت نصاً عنوانه قصيدة وفاء إلى نفرة المسلمين أتنبأ فيه بأن القلعة سوف تبني من جديد بأيدينا حتى لو هُتت هذا. والواقع أن القلعة لم تهد، بل غدت بعد قمع الانتفاضة، مرتكز المدافع السرية للشهداء...

\*\*\*

ما أبعدني هذه اللحظة، يا أبا الطيب، عن السماوة والعراق!

أنا في القرية الإنجليزية نكبت، مقلداً إياك، السماوة والعراق...

لن أفرح عليك أمرا يتصل بنصك، فأنت الدليل. ولأحسن رواية بيتك تلك الرواية للفريدة!

إني لأغنى ببيتك:

تركنا من وراء العيس نجداً ونكبتا السماوة والعراقا

\*\*\*

لماذا نتذكر؟

لماذا أتذكر، مثلاً، أنني كنت الأقرب إلى بوابة القلعة، حين فُتحت ليدخل معتقلو المجن العسكري رقم واحد، الذين نجوا، في ما يشبه المعجزة، من موت مخطط له، داخل العربات الحديد لقطار الموت؟

في الصباح الذي أعقب وصول المعتقلين، نُقلت إلى سجن بعقوبة.

لكن لهذا السجن الجديد قصة أخرى طويلة.

ولنا امرؤ تريدني الذكرى رهاً... □

لندن ٢٠٠٢/١٢/٩

## قيلَ عنا في الغرب (\*)

د. محمد صادق رحيم

اعتبر خبراء الفن في الغرب أن ما أُنتج عندهم من فنون متفوق على أشكال الفنون المنتجة عند الشعوب الأخرى والطبقات «الدنيا»، فبوتوها تحت عناوين مثل الفن البدائي، أو الآخر، أو الواطن، أو المضلل.. الخ. وكأن على الفنان أن يقرن فنه بالرياضيات العالية والعلم واللغة والفلسفة، لأجل أن يبرز، أو أن يرتفع بفنه إلى مستوى لائق. وكان للتمالي العنصري والجنسي وجود مؤثر في الكتابة عن تاريخ الفن ونقده، لكنهما يظهران مشدّين مزوَّقين لكي يكون تأثيرهما «متحضراً». فعنما يذكر (هربرت ريد)، مثلاً، عبارة «وشم» فهو يعني تقاليد غريبة خطيرة من بقاع نائية. فكان التزيين في الفن عنده، كتزيين الوجه، شكلاً من أشكال التشويه الذاتي، والتخلف المذل، وزخرفة الإنسان بيده. وإذا ما وصف الناقد الغربي أي فن بأنه «غريب» فالعنصرية هي الدافع لذلك، وهي تجد تعبيرها في الخوف من العناصر «الهيجية» المتجمعة على أبواب الحضارة كأنها مستعدة للانقباض عليها؛ للخوف الشديد من تسرب «العفن» إلى «الطهر والنقاوة».

في أوروبا القرن التاسع عشر، ظهرت أعمال زخرفية من ثقافات غير أوروبية كانت متفوقة بوضوح على الأعمال الفنية الممكنة المنتجة في الغرب، فكيف استطاع الغرب الحفاظ على تفوقه المزعوم في وجه انتشار هذه الأعمال؟ يجيب (لوس) كما سنرى بإعلانه أن الزخرفة هي وحشية وتخلف، والنقاد أو الفنانون الذين يعملون نحو الزخرفة والتزيين ما هم إلا عجزة متفسخون.

مع كل تلك الطروحات العنصرية التي قللت من قيمة فنون الآخرين، كان هناك تثبيت مقصود لفنون الإغريق كمثال راقٍ ونموذج أري للنظام. فكل فن حافظ على تقاليد الإغريق والروم كان فناً فائقاً ذا قيم عالية. ولم تكن المتعة والتأمل والارتقاء عند الفنانين والشعوب الأخرى مفهومة لدى نقاد الفن في الغرب، دعاء الذاتية والسمو والحركية والنقاوة المطلقة. فاستعمل (مالرو) مثلاً كلمة «بربري»، واستعمل (فراي) كلمة وحشي لوصف الفن والفنانين

(\*) اعتمدنا على مقالة جوزيف ماشيك (Masheck) عن السجاد وورق الجدران the carpet paradigm المنشورة في Arts Magazine أيلول ١٩٧٦ والبحوث التي أقيمت عن الموضوع في التيت غاليري بلندن، وتجربتنا الخاصة.

غير الغربيين.

لقد طُرحت النقاوة كمبدأ جمالي أيضاً، فترى مروّجي الفن الحديث والفنانين أشبه بصليبيين جند، يملكون قيمة دينية في الفن يدعون سرميتها، وموضوعهم المفضل هو تطهير الفن. واستعاروا كلمة «التمعيد» المسيحية، بمعنى السمو من خلال التنقية والتطهير من أجل المحافظة على التقاليد الإغريقية والمسيحية. وقرّنت التنقية بالنظرة المترفعة للفنان كإله، كما سنرى في مقولة (أبولونير) وتعظيمه للشخصية والذات، إذ لم تكن النقاوة أعلى الجودة فحسب، بل علت الاختزال أيضاً، فكلما اختزل الفن كلما زادت نقاوته. وقد ساوى (غرينبرغ) الاختزال بالانزاع والفاعلية، لكنه لم يفسر أبداً لماذا ولمن يجب أن يكون الفن فعالاً. أو لماذا تعتبر الاختزالية أترافاً. كما سجد استعارة جنسية في أقوال الفنانين (ديكونين) و(صوليغان) و(أوزنيفان) أردوا تعرية الفن والعمارة حتى النقاوة. فتصوروا الفنان رجلاً والفن «الشيء» مرأة.

احتوت كثير من البيانات الفنية التي صدرت عن مجاميع أو أفراد على إعزاز للفنانين أن يكونوا ثواراً والفن أن يكون عفيفاً ثورياً. لكنهم اعتبروا للتريزية «الغريبة» عدوهم لتنقي الأول. كذلك تحول كفاح (مارينيتي) منظر المستقبلين والنحات (غابو) والمعماري (لي كوربوزيه) إلى توجه نحو الجماليات المكنية، فالمكنة عندهم هي رمز التقدم، والوسيلة النموذجية التي جمعت التقدم للتكنولوجيا مع الاختزال في الفن، وإنسيابية الخط في الرسم. هذا «التطهير» حقق نظاماً لا نعرف كيف نصفه، إذ لا وصف له، وشتم للخبطة التي لم يشرحها أبداً.

#### • أدولف لوس Loos (الزخرفة والجريمة — ١٩٠٨)

«لا يمكن لأي شخص يعيش بمستوانا الثقافي أن يصنع زخرفة اليوم، لكن المسألة تختلف بالنسبة للأشخاص والجماعات التي لم تبلغ هذا المستوى. أستطيع تحمل زخرفة الكيريين<sup>(١)</sup> والفرس والفلاحات السلافيات، وزخرفة صانع لحيتي، لأنهم جميعاً لا يملكون سيلاً آخر يوصلهم إلى الدرجة السامية لوجودهم. لقد استغنى فننا عن الزخرفة، فبعد الكدح والمتاعب اليومية نعود إلى بتهوفن أو ترستان».

#### • هيريت ريد Read (الفن والصناعة — ١٩٥٣)

«يجب التمسك عند التعامل مع أية زخرفة. أشعر عندما يضع شخص متحضر حقاً الوشم على جسده أنه يغطي عملاً فنياً جيداً بزخرفة لا معنى لها. الزخرفة «المشروعة» هي، كما أعتقد، مثل الكحل والحرمة المستخدمين بحذر لجعل حدود الجمال — المكتمل أصلاً — أبرز وأشد».

(\*) قبيلة من جنوب إفريقيا.

## • أدولف لوس Loos (الزخرفة والجريمة — ١٩٠٨)

«لقد اكتشفت ما يلي وقدمته للعالم: تطور الثقافة مرادف لإزالة الزخرفة عن الأشياء النافعة. اعتقدت أنني بهذا الاكتشاف قد جلبت المسرة للعالم، لكنه لم يشكرني. كان الناس حزانى مطأطئي الرؤوس، لقد اكتأبوا لإدراكهم أنهم لا يستطيعون التجديد في الزخرفة، فقد أمهلوا ما ابتدعت الإنسانية خلال آلاف السنين، دونما زخرفة، إهمالاً لا ينم عن الحكمة فبات الإبداع حطاماً. نحن لا نملك مصطبة نجار حتى من القرن العاشر، لكن الأبنية للفخمة قد شيدت لاحتضان كل التفاهات التي تتم عن أقل زخرفة».

## • ريتشارد وستماكوت Westmacott أستاذ النحت في الأكاديمية الملكية — لندن (بعض مكونات الذوق، للمودة وجمع التحف في إنجلترا وفرنسا — ١٩٧٧)

«أعتقد أنه من المستحيل أن يعتبر أي فنان منحوتات نينوى المرمية أعمالاً ندرسها فهي بالتأكيد لا تصلح لذلك. إنها نتاجات فن وصفي، كما هو الحال في الفن المصري القديم. لا يمكن لأي إنسان أن يفكر بدراسة الفن المصري».

## • أنثريه مالرو Malraux (أصوات الصمت — ١٩٥٣)

«يمكن لفن المتوحشين أن يبقى حياً في المحيط البربري الذي يميز عنه. والأسلوب البيزنطي، حسب نظرة الغرب إليه لم يَعرَ عن قيمة عليا، بل كان مقارباً لشكل من أشكال التزيين».

## • كاسيمير ماليفتش Malevich (Suprematist manifesto unovis — ١٩٢٤)

«نحن لا نريد أن نكون مثل هؤلاء الزنوج الذين وضعت للثقافة الإنجليزية المظلة والقبعة على رؤوسهم، ولا نريد أن نركض زوجاتنا حولنا عرايات مثل وحوش يرتدين زياً من مدينة البندقية».

## • تولستوي Tolstoy (ما هو الفن — ١٨٩٨)

«الفن الحقيقي هو كزوجة الرجل للمحب، لا تحتاج إلى زخرفة، لكن الفن المزيف هو الكعاهرة يجب أن تزخرف على اللوام».

## • لي كوربوزيه Le Corbusier وأميدي أوزنفان Amédée Ozenfant (عن التكعيبية — ١٩١٨)

«هناك طبقة في الفنون نخبوية راقية خاصة، أما لفن التزييني فهو في أدنى مرتبة. والشكل البشري في لقمة... لأننا رجال».

## • ماير شابيرو Meyer Schapiro (الأسس الاجتماعية للفن — ١٩٣٦)

«امرأة الطبقة العليا» «فنانة» بالضرورة، فهي مثل الرسام قد تسترضي حياتها اليومية غارقة في الاختيارات الجمالية. إنها تشتري ملابس، زحرفة، أثاث، زينة البيت، فهي تعيد ترتيب نفسها دائماً كأنها شيء جمالي».

• بارنت نيومان Newman (اللوحة الرمزية - ١٩٤٧ عن كل فن كولاكتيل)

«الأشكال التجريدية التي استعملها، وكل لغته التشكيلية، كانت موجهة برغبة طفوسية نحو فهم الغيبي (الميتافيزيقي). الواقعية اليومية تركها لصانعي اللعب، ولتلاعب اللطيف بواسطة عناصر الزخرفة تركه للنساء حائكات السلال».

• أندريه مالرو Malraux (الصوت الصمت - ١٩٥٣)

«تصميم السجاد هو تجريد على العموم، لكن ألوانه ليست كذلك، قد نكتشف قريباً أن السبب الوحيد لتسميته «فنّاً تزيينياً» هو عدم امتلاكه تاريخاً نقرّه نحن، لا طبقة عليا، لا معنى. الاستساخ الملون قد يقودنا إلى إعادة للنظر في هذا الموضوع، لأجل إقناذ المنتجات الجيدة من أسواق شمال إفريقيا، كما أنقذت نحوت الزنوج من مكان بيع للتخف. وبكلمة أخرى، تحرير الإسلام من عار التخلف، لكي يأخذ مكانه المناسب (وهو مكان غير مهم، لأن السجاد لا يعبر عن الإنسان، وليس لأنه لا يحتوي صورة الإنسان) وسيكون ذلك آخر ظهور لشرق لا يعوت».

• رادولف آرنهايم Arnheim (الفن والإحساس البصري - ١٩٥٤)

«الرسم والنحت يحتويان تمييزاً ذاتياً عن طبيعة الوجود الإنساني بكل جوانبها الأساسية. الزخرفة التي قُدمت كعمل فني أُممت جنة الأغنياء اليوم، لأنها تجاهلت المساواة والتغاير، وتحكم فيها سلام سهل».

• كليمنت غرينبرغ Clement Greenberg (ملاحظات مفصلة - ١٩٧٦)

«الفائدة المثلى من الفن قد حُكمت بتقديمه ممارسات لقيم جمالية، ولهذا يجب أن يُعرى الفن باتجاه هذا الهدف».

• آميدي أوزينفان Ozenfant (أسس في الفن الحديث - ١٩٣١)

«التزيين قد يكون باعثاً للقيء، لكن الجسم العاري يحركنا بالنسق الموجود في شكله».

• روجر فراي Fry (فن رجال الأذغال - ١٩١٠)

«ليكن ملاحظاً أن جميع الشعوب التي تظهر رسومهم تلك المقدرة الغامضة على الرؤية الحسية (وغير المفاهيمية) تنتسب إلى ما نسميه نحن الأقصى وحشية، فإن إمكانية إيصالهم

للحضارة هي أضعف بالتأكيد».

• هنري فان دوفيلد (van de Velde) (برنامج — ١٩٠٣)

«في لحظة انتهاء عملية التطهير والكنس، يخرج إلى الضوء مرة أخرى الشكل الحقيقي للأشياء. عندها يمسى الكفاح بكل صبر الإغريق وروحهم ومنطقهم موجهاً لاستكمال هذا الشكل».

• إيل ليزيتسكي (El Lissitzky) (البنائية الإيديولوجية الفلقة — ١٩٢٩)

«ليهدم التقليدي... لقد أعلنت الحرب على جماليات الهرج والمرج، المطلوب الآن هو ذلك النظام الذي سيحل كليا في الضمير».

• غيوم أبولينير (Guillaume Apollinaire) (الرسامون التكعيبيون — ١٩١٣)

«الإصرار على اللقاة هو تعمد للموهبة الفريزية، هو جعل الفن إنسانيا، وهو تعظيم لشخصية الفرد».

• ديفد هوم (Hume) (عن الشخصية الوطنية — عن الأفارقة — ١٧٤٨)

«لم يكونوا قوماً متحضرين بطبيعتهم، ولم يكن هناك ولو شخص واحد بارز الفعل بينهم، أو من المتوقع أن يبرز، لا صناعات متميزون، لا علم ولا قانون».

• روجر فراي (Roger Fry) (معرض الفن المحمدي في ميونخ — ١٩١٠)

«لا يمكن التفاضل عن كون «الفن الإسلامي» قد سمر حتى اللغوية على مر الزمان بأخطاء المستشرق الحرفي. بأناته التي لا تحتمل، وصناعاته التي لا فكر فيها».

• غوستاف فون غرونباوم (von Grunbaum) (إسلام القرون الوسطى — ١٩٤٥)

«لا يمكن اعتبار الإسلام مبدعاً كما كان الإغريق مبدعين في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، أو عالم الغرب منذ عصر النهضة. لكن ميزة مذاقه لا تقبل الخطأ».

• فليبو نوماسو مارينيتي (Marinetti) وأنتونيو سانت إيليا (Sant Elia) (العمارة المستقبلية — ١٩١٤)

«التزيني يجب أن يلغى... نتخلص من النصب والأرصفة، الأقواس والمدرجات. دعنا نغرق الساحات في الأرض، أرفع مستوى المدينة».

• من (بيان الرسامين المستقبلين — ١٩١٠)



«سوف يدفن الميت في أعرق تجنوب الأرض، عتبة المستقبل ستحرر من أي مومياء، الفصح المجال للعنف للشباب للجرى».

• لي كوريوزيه Le Corbusier (الدليل المبدئي لتخطيط المدن — ١٩٢٥)

«الفن التزييني قد مات... تطور هائل مروّع قلل حرق الجسور التي تربطنا بالماضي».

• لويس صوليفان Louis Sullivan (الزخرفة في العصور — ١٨٩٢)

«سيكون عظيماً لجماليتنا إذا امتنعنا عن استعمال الزخرفة لمدة سنوات، لأجل الأمل في أن يتركز تفكيرنا بشكل خاص على إنتاج أبنية جيدة الشكل، يستساغ عريها».

• هلتون كرامر Kramer (فخامة وبرود الفن الإسلامي — ١٩٧٥)

«لبعضنا الذي يبحث عن شيء مقارب لحمام من الأحاسيس السارة، يجدها في متحف المتروبوليتان — الجناح الإسلامي. بصراحة، إنها غريبة جداً على تأملات ورهافة الحس الغربي. ربما سيدو لنا الفن الإسلامي بمرور الزمن أقل غريبة مما هو عليه اليوم. بصراحة، أنا أشك في ذلك. هناك كثير من الفوارق الروحية الأساسية التي يجب التغلب عليها، إذ لا نجد فيه إلا حيزاً ضيقاً بالتأكيد لذاتية الخبرة المتألفة الواسعة التي تميز الخيال الغربي».

• ألبرت غليزيس Gleizes (رأي في التكعيبية — ١٩١٣)

«هناك معامل تقليدي، يمكننا بواسطته تأكيد شرعية اكتشافاتنا: نحاشي اختزال اللوحة إلى قيمة من قيم الزخرفة في أسلوب الأرابيسك أو السجاد الشرقي. بذلك نحصل على التنوع اللانهائي الذي يكون محالاً بطريقة أخرى».

• وليم ديكوننغ Dekooning (ماذا يعني فن التجريد لي — ١٩٥١)

«واحد من أكثر مظاهر فنون التجريد تأثيراً هو عريه. فن جرد حتى العري».

• توماس أرنولد Arnold (الرسم في الإسلام — ١٩٢٨)

«الرسم كما يبدو يقضي ساعات في العمل ليضع العروق الدقيقة على ورق الشجرة. لا يبدو أنه خطر على باله تخصيص نفس السعي والتعب على سيماء شخصه الإنساني.. يظهر أنه راض عن تأثير جمال زخرفي حقه».

• نعم غابو Naum Gabo وأنطوان بفسنر Antoine Pevsner (المبادئ الأساسية للبناية —

(١٩٢٠)

«نحن نرفض الخط التزييني، نحن نريد من كل خط في العمل الفني أن يعمل ببطء من أجل تفسير نوازع القوى الكامنة داخل الإنسان كي ترسم بجلاء».

هكذا نرى أن الغرب قد اعتمد على مسلسل تاريخي منظم من المعتقدات المتهافة المعتمدة على الأخلاقيات الروحية لكي يميز ويفضل الحضارة الغربية على غيرها. ويجعل الفنون الجميلة في منزلة سامية والتزيينية ولطئة. وقد انتقل هذا الإرث إلى الفنانين المحدثين. نرى بعضهم يُعرب عن رغبة في سلطة شخصية غير محدودة. جماليات الحدثة هي جنون الفنان بذاته، عنفه وفبركته للنقاوة وغلقه جميع الطرق الأخرى نحو الحقيقة. إنها سلطوية احتكارية محكمة، وفكر وجماليات يؤكدان البقاء للأصلح والأقوى كما في (نظرية دارون). لقد استنتجنا من أقوال الفنانين والكتابات التي أوردناها وغيرها أنهم استعملوا المفردات التالية عند الحديث عن «الفن الوطني»:

دخيل، التزيين، وشم، زينة الوجه، الزخرفة، السجاد، المتعة، مصطنع، العفن، الحياكة، عنصر زخرفي، قماش، المنزلية، الطبقات السفلى، الوحوش، الوثنيون، النساء، الحسية، العبيثة، المعجز، هرج ومرج، فلاحي، سلافي، فارسي، الاستشراق، إفريقي، إثارة جنسية.

بالمقابل استعملوا المفردات التالية عند الحديث عن «الفن الغربي»:

التطور، للتقدم، الحرية، الإبداع، الحركية، العظمة، السمو، للروحانية، المسيحية، الدين، الطبيعية، العلم، ثقافة، حضارة، المنطق، النقاوة، الحقيقة، السلطة، الرجولة، الحرب، التعسف، العنف، الإغريق، الروم، الإنجليز، الإنسانية، جسم الإنسان، الرجل الفرد، التفرد، التفوق، الشكل الحقيقي.

لم يكن العرض من اختيار هذه الأحوال تسعيه كتابها من فنلاند ونقاد، لكننا نعتقد بأن قراءة ما كتبوه يجب أن تتم بروح نقدية، وإلا فإن تحيزهم سيمر على الناس، وخاصة عندما نرى أن هذا التحيز ما زال فعالاً في كتابات نقاد الفن في الغرب اليوم. يقول بيكاسو في تصريح حول الفنان كوجود سياسي - ١٩٤٥: «لا توجد لوحة تُسمت لتزيين منزلاً. إنها أداة حرب لأجل الهجوم والدفاع ضد العدو». علماً بأن بيكاسو اعتبر التزيينية عدواً أيضاً.

إن وضع علامات الاستفهام على الآراء التي قبلت كحقيقة مُسلم بها في الغرب يعطينا أملاً نحن الفنانين، في التغيير والحل □

حوار مع الفنان علي عسّاف:

## ما زال الطريق مفتوحاً لفهم التجارب الجديدة وتذوقها

كامل شياع

قبل عشرين سنة، حين كانت حماسة (علي عسّاف) للتعبير بالرسم قد فترت إلى حد كبير، أجريت معه حواراً ظهر بعد سنوات في نشرة «الرابطة» التي كانت تصدر



لقطة عامة للمعرض — ٢٠٠٣

عن فرع (رابطة الكتاب والمصحفين والفنانين الديمقراطيين العراقيين) في إيطاليا. في ذلك الحوار أخبرني أنه لا يتوانى عن استخدام جميع المواد المتاحة، وأنه «يكشف عبر البحث، ويبحث في الاكتشاف». أدركت حينها أنه اختط لنفسه مساراً يميزه عن أقرانه الفنانين العراقيين في الخارج، وخسّمت أن بحثه واكتشافه يقودانه نحو لغة بصرية جديدة، لم أكن أفقه منها، ولو بالحدس، شيئاً.

مرت السنوات وأنا أتابع المنحى التجريبي لهذا الفنان يبسط نفسه في نقلات متتابعة من الاشتغال على الصورة الفوتوغرافية إلى المواد الجاهزة، ومن العروض الحية والفيديو إلى الأعمال المركبة. لقد خدعت سيرته الفنية شاهداً على حسلية معصرة سواء بمصنفها وتأثيراتها الثقافية، أو برؤيتها ل ماهية الفن ووظيفته.

يبين حوارنا الأول في (ميلانو)،

وحوارنا هذا الذي سبق معرضه الشخصي الأخير في (روما)، ثمة هاجس لا يفارق علي

عساف، هو هاجس العمل التشكيلي بوصفه حلقة اتصال وتواصل مع الجمهور. الأمر هنا يخص الروح المعاصرة للعمل، أي شرطه التاريخي والثقافي السريع التغير والشديد التناقض. والاستجابة لهذا الشرط، من زاوية نقدية، أعمق بكثير من اختلاف التقنيات وتنوع وسائل التعبير:

□ منذ عقدين من السنوات وأنت توظف في أعمالك الفنية تقنيات جديدة كالصور الفوتوغرافية والعمل المركب والأداء الحي... من خلال تجربتك هذه كيف تنظر إلى التغيرات الحاصلة في موضوع الفن وبتقنيات التعبير؟

● إن الفنانين المعاصرين، وفي كل أنحاء العالم تقريباً، وبالأخص الشباب ذكوراً وإناثاً (إذ ازداد عدد النساء الفنانات بشكل ملحوظ في الآونة الأخيرة)، يعملون على تعميق فكرة إزالة الحدود الفاصلة بين مختلف الأجناس الفنية. وتلك فكرة بدأها الفنان (مارسيل دوشا) و(الدادائية) مروراً (بجوزيف بويز) و(مانزوني) و(حركة فلوكس) و(الفن الفقير) وغيرها، ووجدت تجسيدات في بيثالة فينيسيا منذ المبعينات حتى يومنا هذا. إن الفنان المعاصر يجد نفسه على تماس مباشر ويومي مع الإنترنت والفيديو والتلفزيون والموسيقى وما تعرضه الأسواق التجارية من سلع متطورة من كل صنف، إضافة إلى التنقل والسفر. زخم المعلومات المتنوعة (سياسية، اجتماعية، علمية وتكنولوجية) الذي تحمله هذه الوسائط يؤثر، بشكل أو بآخر، على رؤى هذا «الجيل» الفنية والمعرفية، بدرجة تفوق بكثير ما كان يحصل في حالة الأجيال السابقة. بفضل هذه المعلومات والبيئة الجديدة تتبلور مواقف الفنانين للمعاصرين، وهو ما ينعكس بالضرورة على مواضيع أعمالهم وتقنياتها، وكثني بهم يرددون مقولة «لا شيء يسمو على الحاضر». لا الماضي ولا المستقبل عدا يشغلان هؤلاء الفنانين. فمواضيع أعمالهم، في أغلبها، نقدية هجائية ذات طابع أدبي، ومنها اللاذع والسخر والكثي والمأساوي. وسواء تجلت هذه الأعمال في خلق فضاء أو حدث، كما هو الحال في العمل المركب، أو الأداء الحي أو العمل المنفرد، فإنها تتطوي على روح نقدية لكل ما يعتقد الفنان أنه يعيق أو يفرقل الوضع الإنساني.

□ لم يستغن بحثك في الشكل عن اللوحة ذات المواصفات التقليدية، كيف تفسر لجوءك بين حين وآخر إلى اللوحة ذات السطح الولد والإطار؟ السؤال يخص أساساً استخدامك للحرف والرمز في اللوحة.

● اعتبر لجوئي من وقت لآخر، إلى اللوحة محطة استراحة في سفر مضن، واكتشافاً تطبيقياً، وليس نظرياً فقط، لأسباب إبتعادي عنها بعد فترة تسيان جزئي، واختباراً للإمكانية المتوفرة فيها للتعبير عن أفكارتي المركبة والمتحولة باستمرار. إن حالتي معها كحالة زوجين مطلقيين أو عشيقتين مفترقتين مازالا يكتان لود والاحترام لبعضهما رغم الطلاق أو فشل علاقة الحب. يمكن لأحدهما أن يلجأ إلى الآخر، في وقت من الأوقات، للقيام بسفرة سياحية لبضعة أيام



علي عساف بفن أدائه الخاص

مثلاً، وقد يأخذهما الحديث إلى الأسباب الخفية والعميقة التي أدت إلى افتراضهما، وإلى إمكانية إعادة علاقتهما كما كانت في بدليتها، رغم تصدعها.

إن استخدامي للحرف (وتوخيا للنقّة أقول الكلمة أو الجملة لأنني لست تشكلياً حرفياً) يتعلق فقط بإعادة كتابة أقوال لمفكرين وكتّاب وشعراء، أجد فيها تطابقاً مع ما أؤمن به من أفكار، واقترباً من مواقف أميل إليها لبراء الحياة والمجتمع والفن.

□ تعكس أعمالك حساسية خاصة لكل ما هو جديد ومتغير في وسائل التعبير الفني، هل تعتقد أن الإمكانية الوحيدة المتبقية للفنان التشكيلي المعاصر تنحصر في افتتاحه على فنون

العرض والصورة؟ أقصد هنا مسألة اعتبار اللوحة التقليدية جزءاً من ماضي الفن المودع في أرشيف مؤسسة المتحف أو المعروضة في الغاليريات لإشباع ذوق كلاسيكي وليس لإنتاج فن يقيم في عالم متناقض، ويتزامن مع كل ما هو متجدد فيه.

● هناك عدد محدود جداً من الفنانين في مختلف البلدان ممن ينتج فناً يتزامن مع عالمنا المتناقض والمتجدد عبر اللوحة التقليدية، ومنهم (محمود صبري) والأمريكي (دافيد سال) والبلجيكي (فرانسوا أوكتاف) إضافة إلى فنانين من الستغال والصين وجنوب أفريقيا وغيرها. وهؤلاء الفنانين (وهنا أحصر حديثي على المقدين الأخيرين) تقدّم أعمالهم في العديد من التظاهرات المهمة في العالم جنباً إلى جنب المحاولات التجريبية في الفن التشكيلي غير الخاضعة لقواعد اللوحة التقليدية. وذلك ما تعكسه بينالات فينسيا، دوكومنتا في كاسل، وبينالات إسطنبول وداكار ولوين وسيدني وشيكاغو. بعض هؤلاء للفنانين يبحث في المشاكل البصرية والشكل مستعيناً بأخر التطورات العلمية والتكنولوجية، وبعضهم الآخر يبحث في المشاكل الوجدية والاجتماعية الآتية والمستجدة. وكلاهما قد يحوز شيئاً من قواعد اللوحة المتعارف عليها منذ عصر النهضة الإيطالية إلى التكعيبية، أو يضيف إليها أو يلغي منها. وراء ذلك البحث الذي لا ينقطع دافع أساسي هو إيصال أفكارهم بطريقة أفضل. رغم ذلك فإنهم بقوا مخلصين للعديد من قواعد اللوحة. وأعتقد أن لبعضهم القدرة على التأثير في المشاهد الجاذب المعني بالشأن الفني

والثقافي، وليس المشاهد الذي يلاحق الموضمة والصراعات المتغيرة باستمرار. وهذا هو المهم، أما اختلاف التقنيات ووسائل التعبير فقصية ثانوية. إن لفنانين كهؤلاء مكانة محترف بها في تاريخ الفن المعاصر، جنباً إلى جنب العديد مع نظرائهم ممن قدموا إبداعاً متميزاً باستخدام الفيديو أو الفوتوغراف أو الأشياء للجأزة والأعمال المركبة.

□ كيف تردّ على من يقول بأن التجارب الفنية المعاصرة التي تعمل في سياقها تتعارض مع جوهر الفن، لأنها تبحث في الشكل، وأحياناً تلعب به، حد العبث، إرضاء لغايات شكلية بحتة، وضمن سياسة محددة للعرض؟

● ليس هناك عبث على الإطلاق في أشكال أعمالي. ما هو جوهر الفن عند من يقول إن التجارب الفنية التي أعمل في سياقها تتعارض مع جوهر الفن؟ إن جوهر الفن هو شيء نسبي يختلف معناه وتفسيره باختلاف الأمكنة والأزمنة. ثم ألم يتنوع تاريخ الفن التشكيلي في مسيرة الإنسانية نتيجة للبحث ولتأمل المتواصلين. لابتكار أشكال جديدة. هل إن الاختلاف والابتعاد عن حقائق المتحيزين أو المتكبرين أو المتعصبين، والابتعاد عن جمهور المستهلكين وهواة الموضات العابرة تعتبر جريمة بحق الإنسانية كجريمة إشعال حرب مثلاً؟ دعنا نذكر، دون تفكير طويل أسماء نخبة من الفنانين والأبناء كيكاسو وموندريان وجواد سليم وجاكوميتي وفيلليني ومحمود صبري وأندريه برتون وكلفا وستغلي كوبريك وبازوليني وبرخت. هؤلاء جميعاً قد ابتكروا أشكالاً إبداعية مميزة وجديدة ومختلفة عن الأشكال التي كان يعمل عليها معاصروهم. وهي أشكال لم تنشأ عبثاً، وإنما كنتاج حتمية ومنطقية لظروف موضوعية وذقية أحاطت بهم.

□ تتصف الاتجاهات الفنية التي تعمل ضمنها بتقديم ترجمات بصرية غير مباشرة (بحكم الوسائط التقنية والتكنولوجية) لما يدور في ذهن الفنان من أفكار وتأملات. ما هي طبيعة العلاقة بين الفكرة والأسلوب في تجربتك؟ هل تتفصل فكرة العمل عن تقنية تنفيذه أم أنهما متلازمان منذ البداية؟

● عندي لا تتفصل فكرة العمل عن تقنية تنفيذه، لأنهما متلازمان بالضرورة. فكل فكرة أكثر من تقنية واحدة لتنفيذها. ويجب عليّ أن أختار التقنية الأصوب للفكرة التي أشتغل عليها، تماماً كما يفعل الرسّام قبل شروعه في رسم لوحة مهمة (غورنيكا مثلاً) في تحضير المسودات (الاسكيتشات) واختيار الأجزاء الأفضل منها لتنفيذها على قماش الرسم. قد أنجح هذا، أو أخفق هناك، لكن هذه هي المتعة الكبرى والعذاب اللذيذ، بالنسبة لي. في بعض الأحيان تومض فكرة ما في ذهني، بعد تراكم عاطفي وحشي إزاء موضوع معين تمليه عليّ الأحداث المعاصرة، ومن ثم تأتي تقنية تنفيذه. وهنا أبدأ بالتفكير والسؤال وجمع المعلومات والبحث في ما قررته من صلاحية مادة بعينها دون أخرى. ويمكن أن يحدث العكس في بعض الأحيان، إذ يصّدف أن أجد مادة

تفريتي وتحفر ذهني على تنفيذ فكرة ما بالاستعانة بها. إن البحث الدائم عن أفضل الطرق لتنفيذ عمل جديد من أعمالي، هو تحفيز للذهن والبدن، وإضافة المعرفة المكتسبة.

□ تخاطب أعمالك عادة جمهوراً غريباً، هل تتخيل صعوبة ما في استجابة الجمهور العربي لأعمالك نظراً لتباين الخلفية الثقافية والاجتماعية. ماذا عن الجمهور الشاب الذي هو أقرب بحكم الواقع إلى نمط الحياة المعاصرة؟

● لا أستطيع البتَ حالياً فيما إذا كانت هناك صعوبة في استجابة الجمهور العربي لأعمالي، إذ أنني لم ألقَ، حتى الآن، أيَّ معرض فردي في البلدان العربية. لكن تجربتي في المعارض الجماعية التي شاركت فيها، كذلك التي نظمت في دمشق والجزائر والقاهرة وبيروت، قد أثبتت أن هناك استجابة ما. ففي دمشق عام ١٩٨٢ قُتِمَت عملين كبيرين الحجم، الأول يتكوّن من عشر صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود ألصقتها على شرف أببيض بعد أن سحوت أجزاء منها، ولوتت أجزاء أخرى صغيرة. أما العمل الثاني فكان عبارة عن قطعتين، الأولى غطتها صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود، والثانية احتلتها صورة مكبرة لمقطع من قاموس المورد. وقد تمَّ إلصاق القطعتين على لوح خشبي، وتغطيتهما بلاصق شفاف أصفر اللون. هذان العملان اللذان كانا من باكورة أعمالي المتخطية للوحة التقليدية، استطاعا أن يجذبا انتباه مجموعة من زوار المعرض السوريين الشباب الذين لم يخفوا إعجابهم بهما. ربما أعجبهم موضوعهما السياسي!! أما المناسبة الثانية فكانت مشاركتي في بيئالة مدينة الجزائر عام ١٩٨٩، وقُتِمَت فيها عملين صغيرين الحجم من الأشياء الجاهزة (Ready made) منقذة بمواد رقيقة: قدح من الزجاج، ومطبوعات على ورق خفيف ملصقة على ورق قديم نسبياً. وقد رُشِعَ العملان للجائزة الأولى، لكن عضويتي في لجنة التحكيم في البيئالة منعتني من الحصول عليها. وقد حصل عليها فنان جزائري شاب قُتِمَ عملاً مركباً كبير الحجم من مواد مختلفة، رافقه فن أداء طقوسي. عُرض العمل على امتداد ممرٍ طويل وعريض، وكان على الجمهور أن يمرَّ به للوصول إلى القاعة الأساسية حيث توزعت بقية اللوحات والتماثيل المشاركة. للجمهور المتحرك عبر العمل كان، في الحقيقة، جزءاً منه. وقد لاحظت أن هذا العمل استثار فضول الجمهور، أكثر من غالبية الأعمال الأخرى. لجنة التحكيم المتخصصة اتفقت على منحه الجائزة، بعد ترشيحي له ونفاخي عنه.

وفي القاهرة عام ١٩٩٥ وجه لي غاليري المشريّة دعوة للمشاركة في معرض عن الفانيلاات فقط... قُتِمَت فيه أربعة أعمال ذات أشكال لاختزالية تحتوي على عبارات لبورخس وشاوتوريان وآخرين. بعد الافتتاح كتبت لي صاحبة الغاليري بأن الجمهور والصحافة اهتمتا بفكرة المعرض، وأن أحد مصانع الأقصر المتخصصة بصناعة وتسويق الفانيلاات كان راغباً بطباعة أعمالي وعرضها للبيع. إلا أن الأحداث النعوية التي جرت في الأقصر إثر هجوم مجموعة من الأصوليين على حافلة سياحية، حالت دون تحقيق تلك الفكرة، فقد انتكست حركة السياحة بشدة بعد ذلك الحادث.

أخيراً، في معرض «الفن التشكيلي العربي في القرن العشرين» الذي استضافته مدينة بيروت عام ١٩٩٩ عرضت عملاً واحداً مركباً يتكوّن من كتابة (معطيات إحصائية عن النمو السكاني) بالطباشير على ستّورة سوداء واسعة وطويلة وضعت على الأرض، وأمامها حدود لمربع من الشريط اللاصق أحمر

اللون. بعض الأصدقاء

الفنانين المشاركين في

ذلك المعرض

والحاضرين فيه، ذكروا

لي بأن عملي لفت انتباه

الجمهور. وأبلغني

صديق آخر أن صحيفة

لبنانية تصدر باللغة

الإنكليزية قد نشرت

مقالاً عن المعرض،

توقف عند عملي وأشاد

به.

أعتقد أن هذه

الأمثلة واضحة وكافية

إلى حدّ ما للتعويل على

مناسبات قادمة للمعرض

في البلدان العربية،

والطريق مازال مفتوحاً

أمام التجارب التشكيلية

الجديدة لفهمها وتذوقها

والتفكير فيها. وينبغي

ألا ننسى أن العقد

الأخير من السنوات

شهد تزايد عدد

التشكيليين العرب الذين

يعملون بالأساليب والتقنيات التي اشتهل عليها، خاصة في القاهرة وبيروت والإمارات العربية

وشمال أفريقيا (تونس والمغرب). أذكر على سبيل المثال لا الحصر، استضافة ببنالة القاهرة لرائد

الفن المفاهيمي جوزيف كوست، ومنى حاطوم (التي نظّم لها معرض كبير في بيروت)، والإيطالي

فابريسيو بليستي، أحد رواد النحت بالفيديو، ومنح عباس عبد الكاظم جائزة على عمله المركّب.



أقدام من رمل ١٩٩٦



أضف إلى ذلك ظهور مقالات، قد تتزايد مع مرور الزمن، في الصحف والمجلات العربية والكراسات الفنية بأقلام عربية أو مترجمة تتحدث عن الفن المفاهيمي وحركة فلوكنس وفن الفيديو وما شاكلها. وهذا سيساعد، بالتأكيد على خلق حالة استجابة أوسع وتوق أعق من قبل الجمهور، وخاصة جيل الشباب. وأظن أن عدده سيزداد، ولو ببطء، كما حصل لحركة التشعر الحر في البلدان العربية.

□ يسير عالم اليوم باتجاه التوحد أو العولمة على مستوى الاقتصاد وأنماط الحياة والنوع، لكنه أيضا يطرح تناقضات حادة على المستويات الاجتماعية والثقافية. وفي الحالتين يبدو أنه لا يهتدي بنموذج تحرري إنساني كما كان متصوراً، بل إنه يبدو، رغم مظاهره الإيجابية، دون مثل شاملة. كيف نرى دور كفن في سياق الحداثة المتأخرة القائمة على تسطيح المعنى والقيم وانتزاع بعدها النقدي وتحويلها إلى بضاعة في سوق كبيرة؟

● إن دوري كتشكيلي في سياق الحداثة المتأخرة هو للتأكيد على البعد النقدي للإبرازات السلبية للعولمة. فبقدر ما يتيح لي التجربة الحياتية، أقوم برصد وتسجيل تناقضاتها الحادة على المستويات الاجتماعية والثقافية. هناك مهمة أخلاقية للفنان المعاصر في عدم الرضوخ لتسطيح المعاني والقيم. وهناك عدد لا بأس به من الفنانين من مختلف بلدان العالم، وبالأخص من الشباب، يعي هذه المهمة، ويلتزم بها.

إن عالم اليوم قد غيّر، وما زال يغيّر، الكثير من سلوكيات الناس ومثلهم. وهذه عملية تجري بسرعة مذهلة، لم يسبق لها مثيل، سرعة «دوختي» وجعلتني أقدم نتائج لا يدعو إلى الحنين للماضي. أنا على يقين أن التاريخ لا يرجع إلى الوراء، وأن الأمور، شئت أم أبيت، لا تعود إلى ما كانت عليه سابقاً. لكن نتاجي لا يستشرف المستقبل لأنني كائن متشائم بعض الشيء، مع أنني أفضل أن أصف نفسي ولقياً.

إن سؤلك هذا يدفعني إلى تذكر حكاية عن بيكاسو قرأتها مرة، وهي أن مجموعة من أصدقائه المقربين من الفنانين والشعراء زاروه في بيته بباريس أيام الاحتلال النازي لها. كان يبدو عليهم القلق الشديد من الأحداث الجارية، فسألوه: ما العمل؟ أجابهم: علينا أن ننتج. وهذا ما فعلوه، والتاريخ حفظ لنا ما أنتجوه □

## الفرشاة.. الجواهري.. الأرق

[خواطر فنية<sup>(\*)</sup>]

### فلاح الجواهري

هذه الملوى العجيبة، فرشاة، علبة ألوان صغيرة، وورق. بها تحمل مشاعرك وانطباعاتك، رؤاك وأحلامك وشوقك وحنينك. تحمل بها الحب والتجربة والانبهار، بل وحتى الإحباط والكآبة. تعبر من خلالها ليل النجوم واحترق «فحمة الديجور» والضوء المنتشر الذي لا حدود له والظلال المتحركة، خضرة الوادي وزرقة البحر التي تلتصق وتكبر وتغرق وتشف بمر الثواني. ترجع بك إلى شاشة غير مرسومة الحدود تظهر عليها تفاصيل ذكرياتك براقعة متفجرة الألوان حيناً، ضبابية غامضة عسيرة الوضوح حيناً آخر. تقرب منك الأبعاد التي تلاشت والهينات والفضاءات والجُذر، الواحة والمصحراء والنهر المتدفق، الجدول والطين والأرض المتييسمة المتشققة، سعف النخل المنتشر الهفاهف المسحور كشعور السعال في الليل، ونو الحزن الأزلي المتوحد في لفح الظهيرة. ترتقي بها جبال الشمال الملونة المتراصة السلاسل في بنفسج الغسق والغروب حتى لتخالها تمتد إلى الأبدية الغامضة. تحمل بها الوطن، تستحضره متى ما أمضك الشوق وأنهكتك الغربة، تنير بها عمّة الشمال الاسكندنافي الطويلة وتلهب جليده.

كم كانت لك البديل حتى عن أسرة الردهات الصامتة وعقاقير الاكتئاب المرة. كانت الحبل الذي تنسقه خارجاً من عمّة الإحباط إلى نور الأمل.

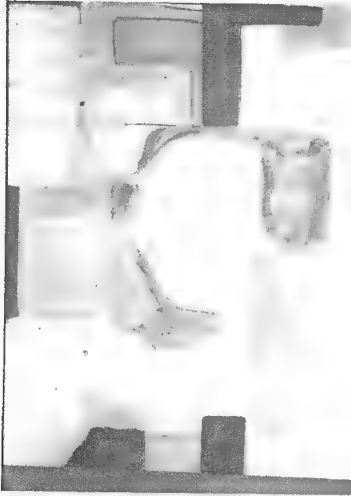
وهناك وأنت تحمل متاعك وهمومك، وبين فواصل تعب التجوال والضياح، حين تلقى بعضاً ترحالك في استراحة بين المتاهات، تجد ركناً تضع فيه حاملتك الخشبية وألوانك وفرشك ولفة من قماش الكتان وصفحات وميعة من الورق ورزماً من الكتب وبعضاً من أشرطة الموسيقى، تكتشف فجأة أنك ابتليت وطناً صغيراً، تستعيز به ولو إلى حين عن الوطن الكبير المتناهي.

(\*) كتب الفنان فلاح الجواهري هذه الخواطر على هامش معرضه الأخير في ديوان الكوفة في لندن أيار ٢٠٠٣ والذي حمل عنوان «مرحباً يا أيها الأرق» مستعزاً من شعر الجواهري الأب.

هأنّت قد تجاوزت منتصف عقدك السليح وما زلت عند مفترق الطرقات.

\*\*\*

هل أنت الذي تتبع الضباب لم أنه هو الذي يتبعك؟ هاهي أحزمة منه تقترب منك متوجسة، ساحبة، حذرة، تنزلق فوقها أحزمة أخرى باتجاه مغاير. هاهي حواشي أوشحتها تتسحب فوق سطح التربة الندية التي تبين حيناً بقعا وأخاديد وكتلا، ثم تتوارى بعد لحظة لتظهر في مكان آخر.



ترتفع الأبخرة المتماوجة في بفعة مجاورة مذكّرة بغيومات الخزان المتصاعد بين موافد الحطب المشتعل بين أكواخ قرى الجنوب عند الفجر، أشباح عجيبة ملونة تطل متحركة من خلال كوى نصف شفافة في الأبخرة المتصاعدة، تتبدل هيئاتها وكثافتها دون انقطاع.. إنها أشباح الغاية البعيدة «حين تتحرك الغابة..» تسير لتلحق الأحزمة للشفافة وكوى الألوان المتحركة التي تعاود الظهور هنا وهناك. تهرب الأحزمة وتتلاشى الألوان والهيئات وتجد نفسك ملفوفاً في ماتهة زجاجية متماوجة..

تواصل سيرك دون هدف مرئي. تحس أنك قد صبحت

فرّلي من يد الظلم وتخطائي ولم أتم

سطحاً ليناً، وهأنّت تتحدر فوق أحجار مبلولة، ثم لتمييز أنك تخوض في جدول يمتزج خريره بحقيق أشجار تتقارب.. تخال أن للضباب همساً، تغوص في الوحل بمتعة وتصرّ على متابعة مسيرتك كطفل عنود، فتخطى سياج الأسلاك الشائكة المديد بين حدود المزارع، فتنهب مساميرها أجزاءً من ثيابك وتُسمي زراعيك ومساقيك، ولتكتشف، بعد سير في المجهل، أنك مطوق، لا بأحزمة الضباب وحدها، بل بجذوع السنديان العتيق الضخمة، وأن خيمات وسبعة من أغصان الصنوبر. تهف فوق رأسك، وأن الألوان قد ازدادت كثافتها تماماً كما ازدادت روائح لحاء جنوع الأشجار العتيقة وإبر الصنوبر والعفص والأعشاب الندية.

يتصاعد الفضول من ذلك الغموض الذي يلفك ممزوجا بخوف غريزي من المجهول والظلمة.. ما الذي يختبئ وراء هذه الظلال المزدحمة وأمواج الضباب المبحر في اتجاهات ومستويات متفاوتة؟ ما زال العديد من أحزمته يتهاذى أمامك بإغراء وغج منسرباً بين الجنوع، مغرباً إليك باللاحاق.. غولاً رقيقة شفافة مسحورة تجرك إلى المجهول فتفتح مأخوذاً. وتعيق من جديد رائحة العفص والصنوبر الندي للمذاب يعطر الأرض المبقعة بالكتل الهشة من القربة، المنفخة بالطحالب والأشنيات وكفها يثور أن لها أن تنفقع.

هانت تحني متاملاً بثرة أرضية قد انفجرت في زمن ما، فاعرة كوة عاتمة في للتربة تملئ بخليل عجيب من إير الصنوبر العتيقة المتبسة وقطع صغيرة من لحاء متتخر وبقايا هلامية مخضرة لفطر للثلب الهرم.

تحني فتعرف بكفك من مزيج هذا الدورق الترابي وتقربه إلى أنفك وتستشق عقبه ملء رتئك. توصل رحلة السندباد في هذا البحر الشفاف.

وفجأة تخترق الأحزمة الضبابية السابحة أمامك، أصابع ساحرات مستدقة ومتشعبة يمتد بعضها تجاهك في حين ترتفع أخرى مشطية شعوراً كثة خضراء متشابكة، بجداول معككة ملفوفة بشباك من خيوط العناكب. تزيجها ميتساً لدعابة الساحرات الطفولية الهادفة إلى استئثار خوفك الغريزي للامان. تحني رأسك ماراً فتحت بالأصابع المستدقة تمشط شعرك بخشونة وتسمع تكسر بعض هذه الأطراف. القصية. تزيج البعض الآخر بحذر ورقة وأنت توصل خطواتك وكأنك تخشى أن تؤذيهم مفسداً دعابتين بكسر أنامل أخرى، رغم أنك تسمع وتحس صرير حطام أطراف أخرى تساقطت بأزمان متباعدة، مترامكة، كحصيرة إسفنجية تحت قدميك. وفجأة، وكما تتزاح ستارة مسرح بأناء وبطء وصمت، تتباعد الأبخرة وتشف وينساب ضوء منكسر بين حزم كثيفة خضراء.. تخطو بضعة أمتار تجاه منبع الضوء، وفجأة ينبج أفق رحيب لامع الخضرة تنزلق فوقه بقع النور الصفراء البراقة التي تبدل بانسياب سريع هادئ أماكنها، تاركة أماكنها، تاركة بين مجالات مرورها، أخاديد زرقاء وبنفسجية وخضراء عاتمة.

تعود من رحلتك تلك عند حلول المساء. تفتح باب وطنك الصغير، فتقابلك بحفاوة رائحة زيت الكتان الطرية المنوثة بمزيج محاليل المنهيات التي تذكرك برائحة علكة المستكي. تزيج من على سطح اللوح الخشبي للواسع، علب الأصباغ وألوانيب الألوان، والفرش، وسكاكين المزج المعدنية الرقيقة، وصحوناً، وقطع زجاج، وأواني فخارية تستخدمها بدلاً عن لوح خلط الألوان.. تسح مجالاً لصفحة ورق خثينة الملمس مدغمة البياض وتضع عليه الألوان المائية الصغيرة وكوباً من الماء، وتستل فرشاة ناعمة تبلها وترطب بها حققات الألوان، وتبدأ معها سياحة فوق سطح اللورق.

تبدأ الصفحة بالاتساع وتترمل أبعاد حواشيها.. تبهر من جديد في متاهة أحزمة الضباب.. تتمايز وتتوضح معالم جنوع السنديان اللضخمة وخيمة أغصان الصنوبر الههفافة وينفجر ثغر

ذلك الدورق العجيب من بثور تربة الغابة والذي انفقع منذ أزمان ويتراكم ذلك الخليط المتقادم من جديد.

تفوح من الغرفة الصغيرة روائح رحم الغابة المظلم فتشم من جديد ذلك الخليط من العفص وإير الصنوبر الندية وبثور التربة المنفخحة بالطحالب والأشنيات وقطع اللحاء العتيق المنخور وبقياء فطر الثعلب الهرم.

نغص حنجرتك بغرغرة مكبونة، تندى عيناك، تتصاعد حسرة مسموعة إلى شفئك. تهرع إلى باب العرفة نفتحه على عجل، وقبل أن تضع قدمك خارجه، تدفع رأسك إلى السماء مطالباً، لا سنلاً، فسحة قصيرة أخرى من العمر.

\*\*\*



اليوم الثالث ولا يزال  
نديف «الثلج الأسود» يهبط  
متواصلًا نون انقطاع ورحمة.  
تقترب بوجل لتطل من النافذة،  
فتتراءى الشوارع المقفورة التي  
انسمحت واختفت خطوطها  
ومعالمها. وهنا وهناك تدور  
نوامت بيضاء، صافرة وهي  
ترفع في لفائفها آخر أوراق  
الخريف.

تتحسر، ثم تبين، ثم تغيب  
تماما تعرجات الأربعة الجانبية  
واشباح من بقع الجدران  
المواجهة. تختصر وتسري  
قشعريرة برد رغم أنك تكاد  
تتعرق من لفح صفائح التدفئة  
المشعة.. فرغ وريحة.. هذا  
هو الجحيم!! النار ذات الشعلة  
الزاهية بالألوان، بحرارتها،  
بترقص اللهب المرح الزاهي  
النور، قبس الحياة.

الثلج اللاكون، البيضاء

المقفر، البرد عنوان انطفاء الحياة.. الثلج هو الموت.. الثلج هو الجحيم.

من بعيد وبغصة ألم تطفو إلى سطح الذكرة للتماعات ذلك الضوء الدافئ المنهمر بسخاء من كل نوافذ السماء المشرعة، تحن إلى لهب شمس تموز وإلى نسمة الليء النندية في غابات النخيل. تعود إلى مياه «نهر الكوفة» الذهبية إلى اليوسق الشامخة، إلى حصرة الظلال والنور. بين تلك الجنود الفارمة إلى «أم الذهب» بستان للشيح الكريم، أريحي القلب والخلق (باقر الجوامري)، إلى عبثاً صبية وصبايا على ضفافه الغرينية عند حواشي البستان. تتحرك الهوينا تجاه طاولتك الوسيعة المهمة، المفروشة بعلب الألوان التي كانت تجف من الهجران الطويل. تقف بخشية قبل أن تفتح أرجل الحاملة الخشبية وتضع عليها لوحاً عريضاً.

تفوح من جديد رائحة زيت الكتان الزكية. تتلاصق كتل الألوان الطرية فوق تراكمت وبقع لونية متبسة قديمة، تمازجت حواشيا المغبرة فوق صفيحة الخطط. تُغمد مجموعة مختلفة السطوح من الفرش في قبضتك اليسرى.

.. شيئاً فشيئاً تبين وتتوضع وتتسامق جذوع النخيل. ينخلق الشط الذهبي المتلأم بأمواله حول الجزيرة المقيئة بخيمة السعف المفروش.. تفوح رائحة الطلع.

تسبح في تيار من الماء والبهجة والنور يتدفق متواصلًا من حاشية كبيرة في اللوح العريض. تمتلئ حنجرتك بغصة. يتفرغ صوتك بصرة متصاعدة. تهرع إلى باب الشرفة، تفتحها فتفتحك للريح للباردة. تخرج قارعاً صدرك متحملاً زوبعة الجحيم الأبيض.. يغمر الناء كل أعماقك. ترفع وجهك صوب السماء المغلفة بالندف وتصرخ مطالباً، لا سائلاً، فصحة قصيرة أخرى من العمر.

لقد أسرى بي الأجل وطول مسيرة مل  
وطول مسيرة من دون غاي مطمح خجل

هأنت تزرع بخطاك، وعلى غير هدى، أزقة ودروب «مدينة النور».. لا ترى «النور». وتتحجب عن أبصارك للقباب الذهبية، وأطواق الجسور الفارمة. وتمرّ دون أن تلحظ أو تسمع التفاف العشاق على بعضهم وهمسهم المحموم وهم يوزون في أركان نصف مظلمة من أرصفة ضفاف «السين».

تمرّ دون لكتراث بتلك الكتيمة القوطية للشهيرة غير عابئ، لا بأبراجها وأجراسها، ولا ملائكتها اللاتنين في حمى جذرائها المزخرفة، حتى ولا بشياطينها، بالسنتهم المملوكة، وهم يجحظون من عل بأحداقهم الحجرية الوسيعة مائتين بأجسامهم مطّين ومتحفرين للقفز من أعينهم على أفواج السواح المارين بصخب مرح تحت عرائش حدائقها الجانبية.

تظل تتسكع دون أن تنتبه إلى أن قرص الشمس الملتهب بالأرجوان، قد اختلطت ألوانه ببريق قبة ضريح «نابليون» لتخترقها بخشوع، وربما لتلتام تحت رخام قبره عارية بعد أن تركت أوشحتها البنفسجية الزرقاء، تسبح في الفضاء المحيط بالقبة الذهبية.. تهبط الظلمة فتواصل ضبايعك في الأزقة الملتوية. الليل طويل منهاك.

تعود، متعباً، محبطاً، خائباً، إلى غرفتك الصغيرة. تستعد لليلة أرق أخرى!

«تفرش أحداً» قمرٌ منصت لليل عبر محاجر زجاج النافذة العاتمة. تتخطاك دون أن تتطيق عينك، تنهض عند الفجر، تنصب خيمة قماشك فوق الحاملة الخشبية. تعامل مساحتها بانفعال وتوتر. لا تحس بمسالك الضوء الكابي للخلج، ولا بحُرم النور بعده، وهي تتسلل، ثم تخترق بعناد زجاج النافذة.

تتوقف لحظة وتتظر.. تتملى بلمعان المساحة التي كانت قماشاً. هالأت أمام (الجوامري) في تسمينياته فارشاً حنقته الوسميتين عبر منصات الليل العابرة.. تسمع هذيله للشجي الحزين:

«فرّ ليلى من يد الظلم

وتخطاني ولم أقم»

هالأت تراء بعد سنين من النأي، تحسه كقريب ما يكون القرب، بكبريلته ورقته وحزنه للكامن العميق.. هاهو يرغب في مسامرتك أنت، لا لليل الأبدى الموحش.. يركن إليك بعد تعب السهاد الممض عبر مسيرته الطويلة في بحار الظلمات.. أيها الحبيب! كم حطام سفينة ركبنا؟ كم شراع مزقنا كي تصل إلي؟

يتدفق لشوق. يتصاعد ألم ممض مرّ. تأخذ حنجرتك غصة عذبة. تسيل بصمت بموعك.



المرات الدهي

يتفرغ صوتك بالصرة المتصاعدة. تسرع لتفتح ظلفتي الشباك. ترفع وجهك إلى السماء وأنت تشيح كرجل عزٍ طويلاً عليه اللبكاء، متسائلاً.. □

لندن ٢٠٠٣/٥/٢٦

# علوكي

سلام عبود

صيف عام ١٩٦٢

اليوم هو الخميس. كم أحب أيام الخميس! فهي تأتي قبل يوم العطلة الأسبوعية. لكن هذا الخميس أحبها إلى قلبي على الإطلاق، فهو اليوم الأخير قبل عطلة الصيف.

انحنيت أُمي وشدت رباط حذائي بقوة، ثم عدلت ياقة قميصي وقبّلتي وهي تهمس:

— ناجح، بجاء الحبيب محمد، بجاء الزهرة لم الحسين!

أنا أعرف أنني ناجح. اليوم ستوزع علينا الشهادات، ولست خائفاً، فأنا واثق من أنني لن أحصل على أية درجة تحتها خط أحمر. لكنني رغم ذلك أحس بأنني لست على ما يرام. شيء ما لا أفهمه يجعلني أشعر كما لو أنني... لا أعرف بالضبط... ربما لأنها المرة الثانية في حياتي التي أحصل فيها على شهادة مدرسية. في السنة القادمة، حينما سأكون في الصف الثالث الابتدائي، لن أكون قلقاً كما هي الحال الآن. نعم أنا قلقان. أُمي تعرف ذلك، لكنها ربما قلقة مثلي. أما عمي (علوكي) فقد ظل واقفاً بباب البيت، مستنداً على الجزء المفتوح من الباب، ينظر خلسة من بين ثنابا ستارة الباب الخارجي «البردة»، ويتظاهر بعدم الاهتمام، لكنه في حقيقة الأمر كان مشغولاً وقلقاً أكثر مني، فهو لفرط اهتمامه قرر أن يرافقني إلى المدرسة، وينتظرني حتى استلامي للشهادة. نظرت إلى عمي علوكي فأدار وجهه ناحية الزقاق.

— عمو علوكي يريد أن يروح معي إلى المدرسة.

— ماذا؟ تخيلت! ماذا يعمل علوكي أفندي معك في المدرسة؟ ردت أُمي بغضب.

— يمه، الله يخليك، اليوم ما عندنا دروس، نأخذ للشهادة ونرجع للبيت، يعني ساعة، يمكن نصف ساعة.

— حتى إذا كانت دقيقة. وأيوك، لو عرف؟

— يمه! فوه لك! لن يعرف. والله العظيم لن نتأخر! المعلم (زهرون) قال، لن نتأخر، نأخذ الشهادة ونرجع للبيت.



— لا.

— والله والله، المعلم (زهرون) لا يكذب، أنت تعرفين أنه صبي، وليس مسلماً، يعني ما يكذب، ساعة ونرجع.

— ما هذه للتربية الزفرة، (ضوية)! صبي ومسلم! صاحبت عمتي (كاملة) وهي تقف قرب المطبخ، ثم أضلقت: ما يخالف، خليفهم يروحون يا أختي، المدرسة ليست بعيدة، وهما اعتادا أن يذهبا معا حتى أبعد من المدرسة.

— ليس هذا القصد يا (كاملة)، القصد إذا دخل هذا للمدرسة ماذا يعمل ذاك ببابها؟ هذا قصدي.

رغم أن تدخل عمتي شجع عمي علوكي، وجعله يرفع رأسه لثوان وينظر إلينا بشيء من الأمل، إلا أنه ظل يتظاهر بالنظر إلى الخارج، كما لو أنه يقول لنا بأنه سيذهب في كل الأحوال. ورغم ذلك لم يكن وجهه يحمل شيئاً من التحدي. كانت تماثيله أقرب إلى التوسل والاستعطاف، لذلك قالت أمي:

— زين، لرجعوا بمرعة.

من مكانه البعيد، ومن دون أن يكون قد سمع ما قالت أمي، انفجرت ملامح علوكي الصخرية القاسية عن ابتسامة عجيبة، لم يكن بمقدور أحد غيري رؤيتها وهي تختفي تحت طبقات اللحم للحجري، الذي يكون تقاطيع وجهه: شفتاه الغليظتان، وحواجبه الكثيفة، وعيناه السودوان الغائرتان. لم ينتظر عمي علوكي أمي كي تكمل كلامها، بل جرى مسرعاً وقيل يدها، فجرت يدها وهي تنقسم وتقول لعمتي:

— والله ما أعرف من فيهما الطفل!

لم يسمع عمي علوكي تعليق أمي، ولم يكن معنياً بسماعه، فقد جرتني من يدي بقوة الخارقة، وراح يسير إلى جوارتي، وهو ينظر إلي نظرة المنتصر. نعم المنتصر. فقد فاز بالرهان. لأنني أصررت يوم أمس على القول بأن أمي إن تسمح له بالذهاب معي إلى المدرسة، أما هو فكان يقول العكس. وكان مصراً على المجيء، ومصراً على أنني سأفشل في الامتحان. طبعاً هو لا يمتنى لي ذلك، ربما هو خائف من أنني إن أفجح فيهم بأنه هو الذي يلهيني عن الدراسة، لذلك كان يخالف خوفه بالعناد. كان يناكدني طوال الوقت مدعياً بأنه أول من سيرف بأمر سقوطي في شهادة نهاية العام، ولأنني إن أحصل على هدية النجاح التي وعدني بها أبي، وأنه غير محتاج إلى تقاسمها معي لو نجحت، لأنه متأكد من أنني إن أنجح. سبب آخر يدعوه للإصرار على فشلي هو طمعه في الهدية. فالنفود التي وعدني بها أبي سيتقاسمها معي مناصفة، إن لم يكن سيستولي على أغلبها، وحتى لو اشترى لي أبي لعبة فلها ستكون من نصيبه. لذلك فإن طمعه وحرصه على الفوز بأكبر حصة من هدية النجاح هو الذي يجعله يصصر على

مناكدتي. كان عمي علوكي خائفاً أكثر مني من عواقب الفضل.

نظرت في وجهه وابتسمت فانطقت فجأة بلسامته الخفية، كما لو أنه خشي أن أفضح فرحه. طفرنا معاً ساقية المجاري المفتوحة، التي تسير بمحاذاة الشارع، واتجهنا صوب الجسر، حيث تقع المدرسة في نهاية الشارع، عند أطراف بستان «بيت السوامرة».

كان علوكي رغم جسمه الثقيل يسير خفيفاً، مرحاً مثلي، لكن فرحه بمرافقتي لم ينسه واجباته المعتادة، فقد ظل يضبط على كفي الصغيرة من حين إلى آخر مداعباً، لكنه كان في الوقت نفسه ينحني، مرة تلو أخرى، ليلتقط كسرة خبز صغيرة ملقاة على الأرض، يقرّبها من شفتيه مقلّداً، يضعها على جبينه وهو يتمتم بشيء ما، ثم يدسها في شق حائط أو يضعها على حافة نافذة.

توقفتنا أمام باب المدرسة الحديدي. انتزعت كفي من كفه ودخلت، بينما ظل هو واقفاً ينظر إلي، وحينما توقفت واستدّرت لرؤيته ذهب مسرعاً، عبر الشارع، ثم جلس على الأرض، متكئاً على جدار السور المقابل للمدرسة.

في الصف طال انتظارنا. لم يكن اليوم ككل الأيام. كان المعلمون يدخلون للصفوف ثم يعودون إلى غرفة المعلمين. ولم يدق جرس الاستراحة في موعد انتهاء الحصّة الأولى. كانوا كمن يتوقع حضور أحد ما، لكن أحداً لم يحضر.

دخل المعلم (زهرون) للمرة الرابعة إلى الصف وقد بدا في نظري مرتبكاً وخجلاً. ربما لأنه كذب علينا حينما قال بأننا لن نبقى هذا اليوم سوى ساعة. (زهرون) لم يكذب يوماً. هذا أمر يعرفه الطلاب جميعاً، حتى الذين تخرجوا من المدرسة قبل سنوات. الصابئة يكذبون أيضاً! فكرت ورحت أنظر إلى ارتباك المعلم (زهرون). بعد عدة دورات، قام بها المعلم في الصف، فرك يديه كعادته وقال، كما اعتاد أن يفعل في لحظات الملل، حينما يريد إنعاش نفوسنا:

— قصصاً، ها، تريدون قصصاً يا أقرام؟

لكننا لم نفرح لكلماته، وحتى القصاصون المعروفون في صفنا: (نعيم عباس) و(رياض المنبكي)، لم يفرحوا، بل قاما وأديا دوريهما كرواة محترفين بتثاقل واضح. ولأول مرة في حياتي بنت لي اللقصص، التي طالما شغلت بها، شيئاً مملّاً ومرهقاً. ومن دون سبب أحسست أن (نعيم عباس)، ابن عامل النفط، بوجهه الأسمر المائل إلى الحمرة، لم يكن مثيراً للدهشة وصادقاً، كما كان يبدو دائماً، حينما كان يأخذنا معه، في قصصه الخيالية، إلى عوالم الجن والأميرات والبحار والقصور والسحرة والطناطل والبلدان البعيدة. فقد بدا لي وجهه الأسمر الغامق يشبه لون النفط الأسود، وربما شابه لون الزفت، حتى أنني أخذت أشم رائحة النفط كلما ابتسم تلك الابتسامة لاحقاً، المتمكنة التي كانت تبهرني هن قبل. أما (ابن المنبكي)، بوجهه الذي يشبه وجوه الأطفال الرضع، فقد بدا مضحكاً، أكثر مما هو مسل. وحتى عبارته الغريبة،

التي اعتاد أن يكرها في قصة الأرنب البري، والتي كانت تفعل فعل السحر فينا، حينما ينطقها بفمه الذي يشبه أفواه الأرانب البرية المرححة قللاً: «هيناتي هيناتي، مدري منو طقني بإئيناتي...»، يقول الأرنب ذلك حينما تسقط قطرات المطر على أنفيه الطويلتين. حتى هذه العبارة السحرية بدت لي خالية من المعنى. فأنا لم أسمع أحداً من قبل، عدا (إبن العنبيكي)، ينطق كلمة «هيناتي»، ولا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة السخيفة!

كان كل شيء مملاً وفي غير موضعه. شيء ما كان مفقوداً ونحن ننتظر بلهفة اللحظة التي سينخل فيها المدير معلناً بدء توزيع الشهادات. لكن ذلك طال، فكرر (نعيم) قصة «درب الصد من رد»، التي سمعناها قبل أيام محدودة لا أكثر. وكالعادة علق الأستاذ (زهرون)، في نهاية القصة، بصوت مخفم قللاً: «إمشي شهر ولا تطفر نهر»، فتذكرت عمي الذي ينتظرني بباب المدرسة.

أخذ عمي علوكي يقفز إلى خيالي في كل لحظة. وظلت صورته لا تكاد تفارق عيني، فأخذت أراه بين اللطناطل وبين المغاريت والأمراء المسحورين وفي جزر المرجان وبين الأرانب والطيور، التي تتردد على لسان (نعيم) و(إبن العنبيكي). لم أتمكن من مقاومة رغبتي في رؤيته. ترى ماذا يفعل الآن، وماذا سيقول أبي لو تأخرنا أكثر؟

تحاملت على نفسي وقلت بخجل للمعلم، وهو أمر لم أفعله قط من قبل:

— أستاذ، هل تأذن لي بالذهاب إلى الخلاء؟

— ماذا؟

— أريد أن أذهب إلى الأدب.

— إلى الأدب! ابتسم المعلم لي وهز رأسه موافقاً، لكنني عجلت فقلت له وأنا مسرع:

— فقط أريد أن أبول لا أكثر، فواصل المعلم (زهرون) ابتسامته العطوفة.

ركضت بأقصى ما أستطيع ومن خلفي ابتسامته للمعلم (زهرون) تلصق في ظهري، وكلمات (نعيم) المملة تتبعني، بينما أنا لا أعرف ماذا حدث لعمي علوكي. تسلفت سور المدرسة، من الجهة التي أحدث فيها الطلاب القاسدون خرواً يهربون منه في الدروس الأخيرة. نظرت إلى حيث جلس عمي، فرأيت جالساً في الموضع نفسه. لم أتمكن من الاقتراب أكثر لأطمئن عليه، فما كان بمقتوري الذهاب إلى الباب الخارجي، خشية أن يراني فرأى المدرسة، كما كنت أخشى أن يفتضح أمري ويعرف زملائي أنني كنت أكتب على المعلم (زهرون)، حينما ادعيت بأنني أريد الذهاب للمرحاض، بينما أنا قلق، أريد أن أكلم عمي المعلق، ذا الستة عشر عاماً، الذي كان يجلس على الأرض منتظراً حضوره، دون أن يعبا بقلقي. كان علوكي مشغولاً عني، يحاور أصدقاءه المرثيين وغير المرثيين: يساعد (عنكبوت اللبني) على بناء بيته المخرب، أو يعين نملة ضعيفة على الحركة، أو يتابع طيران

ذبابة شرهة ذاهبة إلى وليمة دسمة، أو نحلة محملة بالرحيق في طريقها إلى أولادها وأهلها الطيبين...

اطمأن قلبي، فعدت إلى الصف مسرعاً، فوجدتهم قد باثشروا باستلام شهاداتهم، وحينما نادوا على اسمي عرفت أنني من الناجحين. أخذت شهادتي وركضت باتجاه باب المدرسة فاستقبلني عمي علوكي بحوية عجيبة، كما لو أنه لم ينتظر تلك الساعات المملة الطوال. اقترب مني واختطف الشهادة من يدي وراح ينظر إلى رموزها الغامضة وقال:

— يا أبا.

تمعت عيناى وأنا أسمعته يتحدث بحماس عن نجاحي. فقد كان عمي علوكي عملاقاً لا صوت له، عملاقاً آخرس، لا ينطق إلا في المواقف الاستثنائية الكبيرة أو الكوارث الجسيمة.

هز رأسه مجدداً وهو يبتسم تلك الابتسامة الغريبة التي تشبه وردة وحشية خارجة من شقوق صخرة.

جرني بيده الكبيرة وركضنا فرحين.

فمنذ هذه اللحظة بدأ الصيف بحق وحقيق ؟

## الكل

### عبد الجبار الحلبي

[إلى: إسماعيل فهد إسماعيل]

بدأت قوامي تتصلب، كأنني أفتزعها من طريق مصعوقة، إلى الحد الذي أتوقع فيه أنها ستتكسر. بعض المارة يلقي نظرة عابرة عجلي، وآخرون يقهقهون ببلاهة، فالأمر لا يعنيهم.. سواء كان هذا الكل ذاهباً إلى منزل راقٍ، أو سيقلى مصيره التمس في أية لحظة. بل إن أحدهم أحرق أحشائي المتيسة عندما أطلق صيحة مصحوبة بضحكة رنانة، لافتاً نظر زميله: انظر إلى هذا!!

ليس أمامي من سبيل، لأبقى حياً سوى أن تنافضني عن تهيار قوامي وهي تخب وراء العربة التي يجرها حصان أعرج أعجف، وأن ألحق العربة التي شددت إليها بحبل قنب خشن غليظ، لكي لا أموت خنقاً.. أسمع طرقات حوافر الحصان على الطريق المكتظة بالحفر الصغيرة، وتغام صوت سنابكه الذي يطوه، ويختفي أحياناً، وأترقب أن يخف الحصان من خيبه لأسترجع بعض أنفاسي، وأتلافى السقوط على الشارع، فتسجني العربة كحيوان نافق. أكاد أوص صفير الموط الذي يرشق جلد الحصان وهو ينخر، وربما ينفث المزيد.

توقف رجل لفت انتباهه في المنعطف، إذ تمكنت من رؤية وجهه يحدق بي في أثناء استدراة العربة، واكتشاف الرؤية للفضاء الذي صار بمستوى ارتفاع العربة عن الأرض. لأبد أنه لمح كثافة شعري الرمادي لداكن وطوله المفرط بحيث غطى وجهي كله، وتكتلى أنفائي المريضتان. أنا أيضاً لفت انتباهي هذا الرجل الذي رقبتي باهتمام بالغ. هل عرفني. لم كان قد فقد ما يشبهني في الخلق؟

لا أدري متى غادري مكانه الذي توقف عنده عندما رأيته أجاهد للحاق بالعربة. ابتاعني مالك العربة الذي يجمع ويبيع (العتيق) قد عدوني عتيقاً أيضاً. ربما تكون هذه هي المرة العشرين التي يبتاعونني بها. طوق الرجل رقبتي بسلسلة فوس، أرهقني مادام الليل والنهار. وربطني إلى عمود من حديد ينتصب جنب سواج الدار. عندما رأيته زوجه ذات الملابس السود المتسخة، عبت، وأمسكت بيديها قبضتين من شعر رأسها وأسلفتها على وجهها المتقشر، حاجبة عينيها. وقد استدارت برأسها إليّ بغمرة الضجيج. أما هو، فقد أمسك بحزمة من شعرها، ومررها بين السباباة والوسطى. ثم أراحها عن طريقه، نافضاً ذراعيه العاريتين. كانت

المرأة لا تأبه لتضوري جوعاً. فالرجل يغادر البيت قبيل شروق الشمس، ولا يعود إلا عند أقولها.

منذ ابتاعني أول رجل من ذلك اللص الذي اختطفني قبل سنوات مضت، شعرت كأنني أصبحت شجراً عارياً أنا والسماء، بعدما كنتُ متعمماً بالفيافي الشاسعة، في حديقة منزل عامر بالمودة والرخاء. في المرة الأولى، عندما اقتادوني إلى أحد الأحياء، أدخلوني زقاقاً ضيقاً، حيث السواقي تفصل بين البيوت القديمة المتقابلة، طافية بالمياه الأسنة.. تخوض بها الكلاب، حتى خلت أن هذا هو زقاق الكلاب. أحدها غافل للرجل الذي يقودني وهو منشغل بالكلام مع رجل آخر في الزقاق. في البدء.. شعشع بريق في عينيه الجاحظتين الحمراوين، ثم انقضَّ عليّ واقتلع شريحة من فذتي، حيث للتصق شعري بشقيقه. في هذه الأمكنة المستوطنة بالنفايات، لا غربة أن يموت أي كائن، من دون أن يهتم به أحد. في المنزل الذي ترعرت فيه، كأن لي جُزْزٍ أوي إليه. صنَّع من الخشب المصقول. وطلَّي بلون الثيل في حديقة المنزل المرقشة بالورد.

كان صاحب المنزل بصطحبي في لثناء عطلته الأسبوعية. وفي بعض الأماسي نذهب إلى ساحل رملي يمتد طويلاً بجوار البحر، بسيارته الفارغة، مع أسرته الصغيرة. فانطلق مع ولديه وابنته، الصغار، هناك، يرشقوني برذاذ الماء الدافئ. حيث تستمتع بالأمواج تتدحرج فوّارة، متسابقة مع بعضها. على طول المسافات المرئية. وأنا دافع نبلي للكت، أتطلع إلى الجانبين بشموخ، كمثل الأبراج العالية التي كنا نمر قريباً منها. الآن تذكرتُ، كيف كنت أستحمُ وسط حديقة المنزل في اللقيظ، تحت رذاذ النافورة الدوارة بالماء البارد. ثم انقضَّ شعري الليليل. وأرقدتُ منتشياً في وجري. وكنت أمزح مع كلب جارنا (الوولف) عندما يأتي لزيارتنا برقة صاحبه، كنا نلعب معاً على الثيل في الحديقة. نشبتك، نرلوع. وكثيراً ما كان يتعرَّج بجرمي اللواطى. فأنا من فصيلة (الكولي).. أه من محو أشرطة هذه للذاكرة التي لا تعطب..!٢٠

أَسْأَل أحياناً، إن كان هؤلاء الناس الذين يقتادونني، ينتمون إلى الجنس البشري الذي عرفته..! حتى الكلاب هنا لا تنتمي إلى جنسها. يتركونها سائبة أمام أبواب المنازل، وفي الخرائب نهراً. وفي الليل تجوب الأزقة. وتصطرع إلى حد نزف الدماء. ونباحها يوقظ الطرشان في سدف الليل.. وكما ينبش الكثيرون في القمامة، فهي تفعل ذلك أيضاً. ولا سمة لليل هنا، إلا بالظلام فقط. فالصمت المعهود يبدو لغواً هنا، ولغطاً هناك. نهيق حمير، ونباح كلاب، وعواء مستمر. وقع أقدام تشخط وجه الأرض. وإطلاق نار يهتك ستر الليل. وعويل مغن رخيص يجار مثل بقرة أعدت للجزر. ماذا ينبت في هذه للقمامة سوى الكوراث.. مدن لا تعرف الأزار.

لبطأت العربية سيرها قليلاً. صعد إليها رجل لم يظهر من وجهه سوى عينيه. جلس إلى جناح العربية، مقابل صاحبها الذي رفع يده ملوِّحاً بالسوط. ضارباً تلك العظام النائقة تحت جلد الحصان. قال الرجل:

— أهو الكلاب المعجوز نفسه.. لم غيره..؟

— أخذته معي اليوم لأبيعه.. فلم يرغب به أحد.. لقد كانت صفقة خاسرة.. يبدو أنه لا يصلح

لشيء!

سيعيدني الرجل إلى بيته.. يسجنونني في قن قديم. غرف البيت الثلاث المتلاحمة مع بعضها البعض، أقبية صغيرة، سُفَّتْ بعوارض حديد قديمة مع الجص والطابوق الذي بان في بعض أجزاء السقف المشبع بالرطوبة. ووسط البيت تلمحه الشمس من الصباح، حتى قبيل عتمة المساء. ويتحول إلى موقد يحترق من غير نار. القن الذي حيموني فيه مصنوع من الطين والقصب، وواجهته من سلك مشبك، لُقِطَ من سياج قديم. وتجاوره أفاص الدجاج والأوز. في القن قضبان حديد صدئ ملتوية ومستقيمة ومدورة، وأغلفة عتاد نحاسية متنوعة، وخُذَ بلاستيكية قديمة. في إحدى الليالي، مَرُمْتُ نفسي بالقضبان وأغلفة العتاد، تحسبا من هجوم الكلاب علي في الليل الفحيم. يخزنني جرح فخذني الذي صار فريسة للذئاب في أثناء النهار، ومثار جنب لدواب الليل وحشرات التي تنز دون كلل. كنت أختنق برائحة تتبعث من القن، سَدَّتْ مجرى تنفسي، كأنما تفوح من جث متسخة. للدرب مازال يمتد، ولا أندري الآن.. إن كانت قد بقيت لي قوائم أنتصب عليها.. وتلتحم بجسدي.. فلم أكن أشعر حتى بالخطر. هواء ثقيل في صدري.. لا أرى سوى شبح غروب قرص الشمس الهامد في الأفق.. وراء سحبيات رمادية.. أرجوانية.. متناثرة..؟

البصرة ٢٠٠٠/٩/١٤

## كلمات مخفي الخاطر

غزار حنتوش

[إلى عبد الوهاب البياتي]

محفوظاً بمصافيرك

هيه.. هيه.. هي..

تدري حططنا لا نأكل

في المنفى النفسى شعيرك

هيه.. هيه.. هي

وفرنا للقيا

دجلة

وفرات

جناحين

يطيران على وهج ضميرك

وحنان أعاصيرك

هيه...!

\*\*\*\*\*

«شمن حوائي غابت»

\* لا.. لا.. لا من لفتى..؟.. لا أجد

«لا يدري أجد..»

\* الشعب ميديري

«ما من أحد يعرف في هذا المنفى أحداً»

\* يعرفك الغيم للراحل

يا من تكتبنا كل صباح

فوق جدائل شمس البصره

كل شواطئهم زلق

من بغداد «الميزه»

.....

ريحان عبر الآن

أين أبي...!

أيقظني غداً يا رمان

وتبجح..

في قلبي

أصحو في فجر المنفى

كي أكتب عن شعبي

أغيتي طار بها القداح

حطت فوق ضمير الشعب

.....

البياتي عبر الآن

جاء أبي...!

\*\*\*\*\*

جئت إلينا بمزاميرك



كل عصافير المنفى  
تنقر خبزاً في كفوك  
عين عراقك منك  
وما للفرق...؟  
إن أطبقت الجفنين عليها  
أو أطبقت الجفنين عليك  
من بستان الشرق  
تأتيك رسائل برق  
عين عراقك  
منك  
وما للفرق...؟  
إن أطبقت الجفنين عليها  
أو أطبقت الجفنين عليك  
.....  
خذي إليك.....

«الكل وحيد...»  
\* لا... إنكما اثنين.. أنت.. وأنت  
«قلب العالم من حجر...»  
\* حاشا للحجر..!  
«في هذا المنفى: الملكوت»  
\* بغداد معك  
أين هو المنفى  
\* \* \* \* \*  
عين عراقك.. منك  
وما للفرق...؟  
قطرة ماء  
تحضن قطرة ماء  
وسحابهما في عينيك  
عين عراقك..  
في عشتار، وعائشة  
وستعشى خلقة الأعين

الديوانية - كانون الأول ١٩٩٠

## الساعة الواحدة

## وحيد خيون

وهل نمت فوق الرصيف ؟	برغم احترقي
وهل نقت برد لشتاء ؟	برغم السقوط على ساحلي .....
فرغم جميع العذابات في داخلي	ورغم انزلاقي
فإنني تطلعت هذا الحناء	ورغم اختلافي ورغم اتفاقي
لكي لا أعيش على هامش .....	أحاول تأويله لاغترابي
مثل صنف للنساء	فأرمي على اليأس يأمني
فهل أنت مثلي ؟	ولبحث عن نقطة للتلاقي
وأين وجوه التشابه ما بيننا ؟	أحاول لكنني في انطلاقي
وهل أنت تنتظرين البريد ؟	تغربت عشرين عاماً وعاماً
تقامين في الشرفة الباردة ؟	وما زال قلبي العراقي .....
وهل أنت بعد اندلاع الظلام ....	عراقي
إذا دقت الساعة للواحدة	أحاول ترجيعه للتلاقي
تعدّين مثلي نجوم السماء ؟	أحاول منذ الولادة حتى تمكنت ....
تعدّين واحدة واحدة ؟	لم يبق في العمر باقي
وهل أنت مثلي ؟	تأكدت بعد اختلاف الليالي .....
تشدّين دوماً عن القاعده ؟	وبعد انفلاقي
أقول اتفقنا ؟	بأن اندحاري .... وأن للتصاري
لأنني لفضّل حرب الرصاص .....	مقابل بعض انحاء صغير ....
على حرب أعينك الباردة	ورهن التسيافي
أقول اختلفنا ؟	ولكنني لم أزل مُحببنا ....
ولستببط الآن منك اختلاف	بأن تسيافي محال ولو بت بين المواقف
ولستقري الآن ألف اختلاف	فهلاً تغربت مثلي ؟
فشتان بين البحار التي ضيعتني .....	وهل تعرفين الكساء ؟

وفي ذات يوم ....  
 رأيت تكسرات وجهي  
 رأيت المسافات ضدي  
 فاطرقت في حانة الوهم وحدي  
 تغرقت عشرين علما وعلما .....  
 ولم تبقى إلا الخرايط عندي  
 لماذا تكونين ضدي ؟  
 وفي ذات يوم إذا دقت الساعة الواحدة  
 ستبكين بعدي  
 لأني أحبك رغم اختلاف خطوطي ...  
 ورغم اتجاهات بعدي  
 أحبك ..... رغم المسافات ضدي  
 ومن كل قلبي أقول استعدي  
 لنهرب من وقع من رماذ  
 لنخرج من ممكات الزمن  
 فأني على مر هذا الزمن  
 من الساعة الواحدة .....  
 إلى الساعة الواحدة .....  
 دفعت الثمن  
 فلا تتركيني .....  
 ظم يبق عندي سواك تسامح  
 وقد ضاق حتى البدن  
 ولا تتركيني .....  
 فأنت الصباح الذي جنت من أجله ...  
 لهذا الوطن  
 فإن كنت حقاً ستمضين عني  
 فأني أعيش ... ولكن لمن ؟

وبين الضفاف  
 لأحاول جمع للتقارير عنك .....  
 لأحاول بين اشتباك وبين الثقافات  
 لعلي سأحصل يوماً .....  
 على الاعتراف  
 أقول اتقنا ؟  
 أنسى اغترابي ؟  
 أخرج من وقع يعتريني ....  
 وأدخل في حاضر من غيابي ؟  
 أقول اختلفنا ؟  
 وأنسى اضطرابات قلبي ودقات بابي ؟  
 إنن ما الذي نلت من شبلي ؟  
 إنن كيف أحتاج ستين علما لأمي .....  
 وأحتاج ما بي ؟  
 أحقا سأنسك في ذات يوم .....  
 وفي منتهى الجبن بقي لسحابي  
 لماذا أكون جباناً ؟  
 وكيف أكون جباناً  
 وأعز منك لسحابي ؟ !  
 مفارقة كل ما بيننا .....  
 وأعلم أن التلاقي محال  
 وأعلم أن النهاية مثل اليبدايه  
 ففي دورة نلتقي ولكنها دورة للزوال  
 نوالنا كلها منقطة .....  
 نوالنا من زجاج  
 وأحلامنا حبة من بخار .....  
 وأيامنا من ظلال  
 أحلول وحدي ..... ولشفاق وحدي

## التربة الأولى

بنقيس حميد حسن

وقاتلنا وأبكينا الزمانا،  
 أه قل لي ما فعلنا؟  
 وطقوس التربة الأولى عشقتُ العمر فيها  
 أقرأها أصبحت شيئاً عتيقاً؟...  
 ثم يأتيني صدى صوتي غضوباً  
 أنت من أنت سوى ضائعة عبر الحدود؟  
 أنت ذكرى في المقابر  
 لا صغار عرفوك لا شباب  
 والشيوخ رحلوا من دون عودة  
 كيف نقوين على قول بلادي؟  
 أنت اسم في سجلات قديمة  
 أحرقوها عندما النيران ثارت  
 لا نقولي يا بلادي  
 أنت لا أرض ولا حتى هوية  
 قد نسميك بقايا الوطن المهودر  
 لو حتى نسميك اجنبية...  
 أه يا صوت وما أفساك كم تنكأ جرحي كل يوم  
 أه رحماك حنيني  
 أه رحماك بلادي  
 جرديني من هواك  
 لو أحيايني رماًداً كلُّه شوق لأقدام ممافز  
 لبلادي!

لاماي/ هولندا

أخذتك الريحُ مني لامطارات السفر  
 ورمتك الريح في دربٍ ممافز  
 أنت مني كنت لا كالأيوم أحلاماً ومنية  
 تتراءى بخيالي كمراتٍ جميلة  
 وكأيام الطفولة  
 وتنام في رؤى يوم حبيب ببساتين الوطن  
 وأردت الصوت يعلو  
 فوق صوت الحب للأرض الحنين  
 كنتُ أشدو وفادي فرحي حين يلاقيني قليلاً  
 هل ترى عند حدود العشق يا قلب نقف؟  
 وجميل فني أعشق  
 لكن لي حبيب لا كما يهزون  
 إلي لا كما يعشق كل الكون  
 إني طائر جردة الكل الجناحين  
 غريب لا رسائل  
 من ترى يسأل عني  
 وأنا مذنبوحة بين الشواطئ والتخيل  
 شامخ نوما بروحي؟  
 من ترى يسأل عني؟  
 هل ترى قد جمعت أحزاننا من كل حزن؟  
 من قديم وحديث؟  
 منذ جلجامش حتى اليوم نيكى  
 عشتروت التحرت فينا

## صَوَاتُ مَوْجَلَة

سامي العامري

من ذا قال:  
أنا ما زلتُ  
أو ما زال...؟  
بني عائدٌ لمنابتي طفلاً  
وهذا يدينُ الأشياءَ  
باسم الماءِ  
أنا للمتملّشِ الداعي لكلِّ خطيئةٍ مقموعةٍ  
من بينها الإسرائُ  
غامرٌ بي  
فأتبعُ بغشةٍ غناء  
ثوبي رحلةَ العصفورِ  
من نبعٍ إلى نبعٍ...  
سرابُ العالمِ المحفورِ نيراناً بذاكرتي  
فلا بهجة  
تُثيرُ  
لِها للنهرُ الخرافُ البكاءُ  
ألا...  
ألا...  
أفديك من نهرٍ بموجةٍ!

أبدأ إذا تأوي الأحاديثُ الطوالُ  
لصمتها أبداً  
وينصغي النهرُ لي ولهم سدى  
يهتاجُ ذكرُ الأقدمين ببالنا  
هو مطبقٌ  
حتى استحالت تميمةٌ فتوطدا  
كفجبة الغرياء  
أو كالتاءِ أنْها السُّى  
أرجُ الأحبةِ نهرنا  
واليومَ فليرحلُ  
ولكن ليس من دولي!  
بعيداً  
في مجاهيلِ السديمِ،  
كما هيروغليفيةٌ شرّنتْ بقافيتي التي  
أنا من شواردها  
ومجدكُ لَهَا للنهرُ للطفولي الصفا  
بذلك الساري بهواتي وغصاتي  
قرنفلُ يدِ الذكرى  
وما الشعراءُ... إلا الشيبُ  
ويحُ كهولةُ الأطفالِ،

## لابني الذي ليس هنا

عباس خضر (\*)

ليس كل قتلى النجمات بغرباء  
فاحتم بي..  
احتم بورق جرائد تالف مثلي  
احتم بقافية لا كمشفة  
احتم بي، فأنا أبواب بلا جدران  
ولتطمئن أكثر..  
سأطلقك في الفضاء كأي حجر لا يصيب  
كأي حجر لا يعود  
كيقين..  
بلا يقين

أتريد يقينا كالقصيدة؟!  
لا تخف!  
سأطلقك في الفضاء  
كأي حجر لا يصيب..  
فما من وصول، وللمدينة هكذا  
ما من وصول، والأرض هكذا  
حتى الموتى،  
أولئك الذين رموني يوماً من النافذة ولحسوا  
الكأس،  
كانوا بلا سبابة تشير...  
لا تخف

عمان ٢٠٠٢

(\*) عربي، مقيم في ألمانيا.

## من قصيدة جسر الطين

شعوب محمود

- ٢ -

تماسكت في كل كبوة  
وغمرت من كل كوة  
وشرقت حيث يدور الزمان  
وكنت المصان  
تلاعن بالدمع أضلاع كل المدائن  
وأعرف كل الخيول  
ومن كل جرح  
تفيض مناهل  
وفي كل ساحة  
تجرد سيفاً  
لتشعل جرح الرجال  
فتشرق نجمة  
لتشعل فوق جبين العراق  
ظلام السنين.

- ١ -

انتظرتك قبل انهمار المطر  
وقبل انبجاس المياه بقلب الصخر  
ورحت أغني هواي القديم  
كما رقّ عند الصباح النسيم  
ورحت على خضر أوركنا  
أصور أحلامنا،  
والحنين  
تحت ظل السنين  
فقلت لقلبي الحزين  
تجنرت في طينه  
وقمت على قاعه  
كالنخيل الذي نكس الرأس،  
وانفجرت في الجدار المرأيا  
فكنت الشظايا

— ٣ —

كان نخل السماوة  
وصبح السماوة  
شاحباً وحزين  
وقطار السماوة  
يطلق صفارة التعب للمرء في كل حين  
كان وجه الحبيبة،  
يصعد من شرفات الجدار الكبير  
كان يصعد نحو السماء  
لينفخ فينا العبير  
ويثبت فينا الزغب  
ناعماً كالحرير  
يا زمان الهوى  
وزمان الحداد  
كل قلب يطير  
في سماوات أحلامه  
للغدير  
غير أن الليالي التي لربّ فيها الزمان  
كان يُقتلُ فينا الأمل  
بين صبح الرجاء  
ومستودع الريح،  
والقلعة الحجرية  
كانت الريح تسرق من سرّة الأرض،  
في بسملة للنزلاء  
رملنا، واليهاء

مقعرة سرّة الأرض

لا طير يعبر بين السماوة،

والقلعة الحجرية

ولا ساق يشرق بالورد،

والنبنة البربرية

شوكتها للهمجي

يتسلق جدران قلعتنا الحجرية

يا زمان الحداد

كلت الريح تسرق كل الرمال النقية

وتطبع بالذكريات

رجالاً تجاوز علف الحياة

بين صبح السماوة،

والهوة القدرية

تحت أضلاعها الشوك،

والشوك بين الجفون

والشتاء الجليدي ينسل تحت العظام

وعشب الفطام

تجنر في قعر آبارنا

على مرّ أيامنا العشق يكبر،

والعشق يكبر

— ٤ —

من حيث الرمل، وحيث الملح، وحيث الجمر  
من حيث اللثّر، وحيث للفكر، وحيث الشعر  
من حيث للخوف، وحيث الرعب، وحيث للكفر  
في قيم العصر



- ٦ -

في الزمن المرّ،  
يجيء شتاء مرّ،  
يمض البرد عظام الأخوة في البيداء  
وينق جدار الصمت،  
عواء الذئب،  
فتتنهك الصحراء  
بمناكير أحد من المكين  
ولجنة سوداء  
حيث يعرّى الليل،  
تمرّ سماء  
قبل غناق مدافئه الخضراء  
الطير الهارب  
يسقط وسط مقادير عمياء  
يأكل من وجنته للنسر،  
ويشرب من عينية الماء  
يتلاشى للنجم،  
وتغرق في العتم الأسماء  
ويضيع الأفق،  
تضيع سماوات الأحياء  
في الوحدة حيث تمازجت الأشياء.

يا كل مفاتيح الغابلات

يا كل سكّون الذات

يا قفلاً كان يدور

في المعصم،

فوق فم الإنسان

في حوض الموت، وفي حوض الأحران

نتطلع للأحلام

من فوهة بنر

من باطن قبر

يا حلماً يأتي، ولا يأتي

لقوافل تضرب في الصحراء

كي تخرج من طين الليل

نسخ الأحياء،

وترسم فوق جدار السجن: مدينة عصر النور.

- ٥ -

صفارة حارس قلعتنا

تغتال الحلم،

وتغرس في جفن الإنسان

إبر الأحران

وعويل الريح، وليل الصمت

يعكس غيض الأرض،

ويغرس فجر الصبح

بغداد

## أنهى البعيد

### مؤيد حنون

بما يحمله قلبك من السنوات،  
 أمام رغبة تدوس مساحات فسيحة من الأكم.  
 الأحلام وحدها تقيض من السرير  
 أي حصار سيحتل غيابك؟  
 إنها عزلتي كما هي عزلتك  
 كلانا يواصل طرقاته.  
 أبعد مما نترقب مجيئه  
 أرحل نحو الغامض فيك  
 ندرك صلصالنا مفتوح للصدر  
 لتدرك كل قطعة قبضتها المتاحة  
 عندما أنور برأسك لا يغلبني نعاس  
 أصل دروب الماء بالماء  
 ولتضعك يدي من حزن.

مثل جرح بالغ للرنين يضيح  
 بك القلب  
 عندما أنور برأسك مثل خمرة تمشقنها  
 لتذكر دائماً الرقة.  
 مثلاً ينسحب الفردوس من اللحم  
 تتبدد رائحة الأكنى  
 في قلب العالم الوحيد.  
 مثل سيف يصلح تحت الشمس  
 — المتفرقة بضوئها —  
 يفاجئ العالم برثائه  
 أحبيك بيومك المقدس  
 بأساريك الممزوجة بحليب الأمهات  
 تخرج من شفتاك أبعد من عاشق مضرج

## الاختراجه

عبد الرزاق صالح

- ١ -

سترى أحلاماً كثيرة في اليقظة  
لكذك ستعُدُّ خطاك للمدم  
وليلة ما، حين تتأمل للمائدة  
ستتفقّد أصدقاء كثيرين  
وتعي الوحدة والآنزواء  
وفي سخريتك وهول المشهد  
ستشهد مرور الظلام وأفق البحر  
دع نبضك يحس حرارة اللقاء  
دع شيطانك يتأمل في سلام رفات الموتى  
لو أن عالمك مقلوب  
لو أن الأشياء تأتي بالمقلوب  
كشوق فسائل النخيل  
فيم يهيم؟  
فالأشجار أشجارك  
والمناخ في الجهل، لاختيارك  
وبجنونك ندفع الثمن

- ٢ -

حمامة البحر تجتاز السماوات  
أو ظل يمامة  
أو صورتك في البحر  
هكذا يمضي الحبيب  
ويتلاشى  
كما ننسى الموتى  
كلهم أسطورة  
مجد نبوخذ نصر، وزنوبيا — تدمر، وحكمة

سليمان

الكوفة، البصرة، القسطنطينية  
لكنّ الليلة التي تمّقرها الآن  
والبحرين الخضراء التي تتأملها  
كل إلى زوال  
كلهم عظماء زمن آخر  
كالسراب... سقطوا

- ٣ -

الهيكل التي أقامها العراقيون  
معابد وراء معابد

واطلب زجاجة عطر أخرى	هي الآن نثار
اشرب حتى الهبات	فهل تعيشون بعد التراب
وتوقف منتصف اللحظة	اشرب
وحطم استشرافك	تأمل غروبك
فنفسه الاحترام للمرء؛ للفكر	فمثل الخمرة يموت عالمك
صل للهمجية	فكن جديراً إن بذهب الخمرة
ثم انتقل للموتى	عاقرها.. ولكن في رعب
حياتك حطام	فإنك لا تعرف أبداً
بميونك نرى الآخرين	حتى وإن طال بك السفر
وحطام الكون	ما مر بك ليس المصير
ومناهة كلكاش	ولا كل الدروب الغريبة
وبصبرك نرى خريطة السلطة	فقد كتبت على قدميك، الآلهة
وجسداً مطلقاً فوق الأسوار	— الاغتراب —
احتفل بالجهل السائد	دع جسبك يلامس التراب
بحقارة عالمك	فنديك غير مأمون
بخيومك للذهبية	والنسمة بينك وبين الخمرة
ترنح كي يلمو الوضع	لا تجري
فالقوى غامضة	أين المستقر؟
والقسوة منقوشة في الجسد	والنخمة في الأعلى
كالظل الرهيب	والذكرى في القلب
وستبقى الحقارة نصب عينين	
كأنساب الآلهة	— ٤ —
كونك فريداً	ليها الشاعر
حين يهجم الحلم عليك	اهرب من كأسك للفارغة
افتح باب الهجر للمناهة	وطب في مدبك الخيالية
حتى تجعلنا نرى الآخرين	ليس سواك والجسد
أطلق احتفالية العيش	أنت لم تعرف ما وراء الزمن
حتى تسقط عروشك الذهبية	ما عرفت قط (قافية) قصيدة مرتين
حقارة أن يبقى للقليل — القليل	لشذى امرأة
الذي لا يقل...	فيم تهم حياتك؟
يقطع ونيد القلب وكأسي	وورود غرستها لا تنمو
لملأ جسدي ثانية بالرغبات	افتح قلبك للنيل أو للتنبذ
ولترك حول الصنقة	نفس المرأة

تفرق الصدقات

والبيت الذي أغرقته، المحبة

هل تبقى حقاارتنا حكمة واحتقالات؟

كي تعيش أنت؟

ابن بلدا حطمتة!

واشرب كأس الانزواء

ومع كأس النزوى

المن صدى كلماتك الأخيرة

وترك الكحول للذين يحبون مثلي، وللحبيب!

فخارطة الشعر ممكنة لعلاك شروك!

هذا لومك أنت

فما تراه يفعلون؟

- ٥ -

في سخريتك سيمر الملوك

وأخر توازن كليوباترا

يترصد قمر الحدود

وافق النيل

والفرعون المنعمي في (الجيزة)

لكن قبصر اغتم فرصة اليوم

كحقارة عالمه

قوى غامضة

في مومياءات الجسد

كي يعيش عالمة

وتبقى حقاارتنا

- ٦ -

أمالك ممكنة

كي تعالج أليون للثقافة

في أي بلد تريد

افحص قلب المرأة

واملا كلسك ثنائية

انظر كيف تنفذ خيوط الازدراء

بالفساد وجهل العيش

اطلقها بحقد واحتفل بالقوى، كالنذير

لا تبال بافتتان البحر

ولا في مخربة الأشجار ورعب الملوك

أمامك تمثل (السياب)

ووراءك ضحكات امرأة عاهرة

لا نقل (سلاما) على الحثوف

حياتك طلبتها من (مردوخ)

نبيل الرحلة

هل تنام بالثمام أو بورود المرخص؟

لا يهم، قيم بهم؟

سترى وجوه الشعراء كالشفاء

حين تتأمل السماء

في كل ليلة ذهبية.

وتطير الزمن أحياء للموتى

أذهب لنفس المرأة

سترى الترمسة تنمو

من يرافك في الدرب الطويل؟

لا الإكلم ولا أغراس الموتى!

اشفق عليها إن بعد اغترابك!

البصرة

في الأول من أيار ٢٠٠٢

قصيدة من أمريكا اللاتينية عن العراق

## خطرسة

عشتار محسن سعدون

كُتبت هذه القصيدة باللغة الإسبانية وقام بترجمتها والد الشاعر، محسن سعدون المخرج للمسرح العراقي الذي تغرب عن بلاده عام ١٩٦٨.

ابنته صاحبة هذه القصيدة هي الأخرى تحمل روحه العراقية، وجيناته الإبداعية، وحتى اسمها كان تيمناً باللهة الحب والجمال في بلاد الرافدين (عشتار). أما أمها (الينا غوتيرس) مصممة وأستاذة الباليه، فقد حملت فموم للعراق قبل أن ترى ابنتها النور.

تخرجت عشتار في معهد السينما في موسكو. ومن بداية عملها الفني أسست فرقة مسرحية صغيرة تعتمد أساساً عليها مخرجة وممثلة، وأغلب أعمالها المسرحية بشخصية واحدة ونادراً بالثنتين. هذا إلى جانب شركتها للإنتاج السينمائي: ASTARTE.

(عشتار محسن سعدون) إلى جانب احترافها فن السينما والمسرح، تكتب القصة والرواية ولها قصائد نابغة من القلب نقدم للقراء واحدة منها عن الأحداث الدراماتيكية الأخيرة التي جرت في العراق، فقد كانت تذكّن من الألم وهي تشاهد المأساة العراقية من خلال التلفزيون.

ليس العراق وحده يشغل بال الفنانة الموهوبة، فهي حالياً تعدّ فيلماً سينمائياً عن معاناة المهاجرين من نيكاراغوا وعذابتهم من أجل العرش والحريّة، والفيلم يُنتج بتمويل من مراكز إنتاج إسبانية

والماتية.. فيما يأتي نص القصيدة:

اغلق فمك وسممك واحجب بصرك  
الواقع مخيف  
اضحك وترنم بالغناء وتسوق  
ولا تلتفت إلى العدالة  
الشتر يستشري كالسرطان  
وبطريقه يدمر كل شيء  
كيف لأحد أن يصوب إطلاقه نحو طفل؟  
كيف له أن ينعم بالعيش مع هذه النكوى؟  
سيرى الطفل في أحلامه  
بكوايس لا نهاية لها  
أجنحة صقور الموت من دخان أسود  
وبغداد هي الهدف  
شعب العراق سينهض من جديد من تحت  
الرماد  
الحل في التاريخ غائب  
في امبراطوريات تحتضر  
ليت الآلهة تنهض بحمية وغضب  
وتوقف الزمن  
وتتظف الأرض من اللثام  
وتحجرهم في حضيض آسن  
الواحد فوق الآخر  
في جهنم الخاصة  
هكذا يستقيم الحل على الأرض  
أرى عن قرب وجوه أطفال للعراق  
أرتعب من أجلمهم

كان الموت قد أعلن  
وفي كل الأوطان ارتفعت الصرخات  
شرقات البيوت انتظرت الإشارة  
تتخذ القرار، ولا أحد يحول دونه  
اللحظة سانحة والمسخ مهياً  
إنها الساعة المميتة  
في ليل بغداد ذلك  
يرقع الصمت الخوف  
وفرقعات القنابل رنحت الرعب بعيداً  
مع أن الموت قاتم  
لم واحتضار  
رجل استوقفني، قال إنه صديق  
أعدائي سكيناً ثم قال: أنت إنسان خطر  
وقتلني بغيار واحد.  
قطة الحياة  
هم من يخلق مسخ المهمات  
يمصرونه ثم يقتلونه دون تمهل  
قال فارس سفر الرؤيا  
ماذا يهم إذا ما ماتوا لاثنين  
هنوداً أو عرباً؟  
ليقتلوا فيما بينهم  
الشركات والمصمون بالانتظار  
والبترول أيضاً!  
سفرض قبضتنا على البلاد  
فالقوة هي التي تتحكم.

المضاربون لخدمة الإمبراطورية  
 خيافة أن نلتزم الصمت  
 ونتحمل أخطاء العالم  
 ونحجب أبصارنا ونسد سمعنا ونغلق أفواهنا  
 هذا هول  
 هذا إعدام  
 دخل المارنز لم يدخلوا  
 فالطغاة ليسوا ألبينين  
 بين دجلة والفرات  
 ميسوبوتاميا الأمس، عراق اليوم  
 كان الجسر قارات ثلاث  
 هناك أكثر من عشرة آلاف موقع أثري  
 لمائة ألف عام من الماضي  
 ببقايا حضارة تعود إلى العصر الحجري  
 منذ خمسين ألف عام كان للكواوم  
 حص خاص بالجمال  
 هم أنبتوا الزهور عند المقابر  
 وكانوا على معرفة عظيمة في الرياضيات  
 والهندسة  
 وكذا في علم الفلك والفن والأدب  
 وللقانون القضائي في مسلة حمورابي البابلي  
 قلبي مع الشعب العراقي  
 دمه من دمي ودمي منه  
 إله لمؤلم أن نكون ضغفاء لا فعل لنا  
 غير تضرعات النفس المترنحة.

وجوه مفعمة بالبراءة والمحبة  
 متعبة من الانتهاكات  
 ولا أحد ينتبه إلى هذه الحرب الصامتة!  
 كل هذا جزء من الخطة  
 خطة الموت البطيء والأكيدا  
 شملنا عصر الإمبراطورية الجديدة!  
 سيبقترون لا محالة  
 فرنسهم مسلح بالإيمان «الجديد»  
 يتألم بداء العظمة  
 بكى كطفل اسقوط للبرجين  
 الضياع الأخير المتبقي هو «طهارة الذئيل»  
 الآن كيئونته بدون حدود!  
 في ليالي بغداد يتوارى المارنز  
 بأجنحتهم السوداء  
 يتخفون في الظلام الدامس  
 ييصرون من خلال عدسات خاصة  
 يتوارون خلف الأكتعة  
 يتحدثون عن الديمقراطية  
 إكسيرا الحياة والحرية  
 يا لها من مغرية  
 يظنوننا أغبياء  
 الحقيقة ضائعة بفعل ذلك الإعلام  
 حروب وجوع وإعدام جماعي  
 فقراء في أرض غنية  
 صدام قال: أسلمكم أرضاً بدون أهلها!



## تجربة مسرحية

[مسرحية في فصل واحد]

### شاكر خصبك

(يرتفع الستار عن خشبة المسرح وقد رُصّت فيها المقاعد على الجانبين وهي امتداد لمقاعد الصلاة. تمثل خشبة المسرح ساحة حنيقة عامة. وتزين جدران المسرح الثلاثة بصور الأشجار والأزهار. حينما يرتفع الستار تكون المقاعد مشغولة بالحضور وهم يتحدثون مع بعضهم بعضاً. يدخل المسرح (مسعود الهادي) ويتجه إلى منصة قائمة في عمق المسرح فيسود الصمت).

مسعود الهادي: السلام عليكم. سأقدم لكم نفسي أيها الحضور الكرام. أنا مسعود الهادي مصمم هذه المسرحية إذا جاز لي أن أسميها مسرحية. فهي في الحقيقة أقرب إلى ندرة ثقافية اجتماعية منها إلى المسرحية بقواعدها المعروفة منذ أيام أرسطو. وأحب أن أقول لكم ابتداءً بأنني من المؤمنين بأن المسرح ينبغي أن يكون في خدمة الشعب. ولكن مهما حاولنا نحن المسرحيين أن نتحدث بلسان الجمهور فلا يمكننا التعبير عن مشاكله وطموحاته وعواطفه تعبيراً دقيقاً. لذلك خطر لي أن أقدم عملاً مسرحياً يعرض فيه بعض أفراد الجمهور مشاكلهم ومعتقداتهم بأنفسهم وبشكل تلقائي. فمهما يكن النص المسرحي بارعاً صيقل بفقد التلقائية. (يرفع جبار العودي يده) تفضل يا زميل جبار.. تفضل.

جبار العودي: أريد أن أقول يا زميل مسعود إنه ليس جميعنا نحن المخرجين نفضل أن يتحول المسرح إلى منبر للوعظ الاجتماعي أو السياسي. وإلا فلن تمتع الفن الخالص إن؟

مسعود الهادي: (وهو يضحك ضحكة مقبلة) على كل حال نحن مختلفان في هذه القضية كما تعلم يا زميل جبار. ولكن سمح لي أن أقول إنه ليس هنا مجال للنقاش فيها. (ملتفتاً إلى الحضور) وكما تعلمون فقد اتصلت بعدد منكم وعرضت عليهم المشاركة في هذه

المسرحية فوقلقوا مشكورين. وأحب أن أقول لكم أيها الحضور الحرام إن المجال مفتوح  
لأول واحد منكم للمشاركة في هذه المسرحية عن طريق مدخلته، ففي إمكان أي شخص  
منكم للمدخلة في المشكلة المطروحة شريطة أن يكون النقاش حضارياً وأن يعترف  
بالأرائ والأرائ الأخر. وأطعتمكم أن في إمكان أي شخص منكم أن يعرض رأيه بمنتهى  
الصراحة. (يرفع أحد المشاهدين يده) تفصل. تفصل. أفضل أيها الأخ.

**مشاهد:** أسمع لي يا أخ مسعود أن أسأل: هل من الحكمة أن نعرض مشاكلنا بصراحة وببينة لبعض المسؤولين الكبار الذين قد لا تروق لهم صراحتنا؟

مسعود الهادي: بالعكس أيها الأخ. فقد عرضت فكرتي هذه على المسؤولين فرحبوا بها وأنشأوا لي بتفويضها. وقد تحمس لها سيادة مدير الأمن وطلب المشاركة في المسرحية باعتباره أحد أفراد الجمهور.

المشاهد نفسه: (في استنكار) باعتباره أحد أفراد الجمهور!

مدير الأمن: (يخاطب المشاهد في غلظة) بالطبع أحد أفراد الجمهور .. لم أني است مواطناً مثلك!!  
المشاهد نفسه: (في تهيؤ) أبدأ يا سيادة مدير الأمن.

مدير الأمن: (في لطف وهو يتسم) لوكد لكم يا إخواني أنني واحد منكم. ولي مشاكل الحياتية أيضاً. فخذوا حريتم في الكلام وكأنني غير موجود. ونحن المسؤولين نؤمن بحرية الرأي إيماناً كاملاً.

ممسعود الهادي: (وهو يضحك ضحكته المغفلة) أرايتم! نحن هنا جميعا مواطنون هدفهم عرض مشاكلهم على بعضهم بعضاً. وأعتقد أن هذه التجربة ستكون ناجحة.

جبار العودي: (وهو ينتمى) أنا أشك في ذلك يا زميل مسعود.

مسعود الهادي: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) بل ستكون تجربة ناجحة فعلاً يا زميل جبار. (وهو يدير عينيه في وجوه المشاهدين) فمن يحب أنه يجب أن يفتتح المسرحية شخص يتحلى بالجرأة الأدبية. لذلك سأقوم أنا بذلك. (وهو يتتحنج) أعقد أن البعض منكم شاهدوا مسرحياتي وأعجبوا بها. وقد اشتهرت مسرحياتي بأنها تعالج مشاكل المجتمع وخصوصاً مشاكل أبناء الطبقة المسحوقة. فانا لأؤمن كما قلت بأن المسرح ينبغي أن يكون في خدمة المجتمع. وقد واجهتي مشكلتان أثناء عملي. الأولى تتعلق بالمسؤولين عن الرقابة، والثانية تخص جمهور المسرح.

فأما المشكلة الأولى فهي أصعب وأعد. فكثيراً ما يعترض الريب على عبارات في النص ويطلب حذفها. فلكون مضطراً إلى ذلك مما يحدث خللاً في النص المسرحي. وصدقوني أيها الإخرون.. قد لا يكون هناك أي مبرر لحذف تلك العبارات. والحقيقة أن الكثير من زملائي للكتاب والصحفيين يشكون من هذه الظاهرة ومن تسف للريب..

مدير الأمن: (مقاطعاً) يا أستاذ مسعود. لابد أنك تعلم أنه من يتولى المسؤولية في السلطة يحمل على كاهله عبئاً عظيماً. فهو مسؤول عن المحافظة على سلامة وأمن النظام والمجتمع من أي أخطار تتهدده من ذوي الأهداف المشبوهة. فلا تلم الرقيب على إخلاصه لوظيفته.

مسعود الهادي: ولكن ليس كل من يقترح أفكاراً تختلف عن أفكار السلطة يهدف إلى الإساءة إلى النظام أو للعبث بأمن الدولة يا سيادة مدير الأمن.

مدير الأمن: أنت لست أدرى يا أستاذ مسعود من المسؤولين بواجباتهم.

مشاهد: فماذا إذن عن حرية الرأي التي تتبناها الدولة؟

مدير الأمن: (إلى المشاهد بغلظة) ليس معنى حرية الرأي حرية التخريب. افهموا ذلك.

مسعود الهادي: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) لنكتفِ إذن بالنقاش حول هذه القضية. واسمحوا لي أن أعرض عليكم مشكلتي الثانية وهي تخص جمهور المسرح. فيه لا يكثر ثون بالمسرحيات الجادة ويولعون بالمسرحيات الهابطة التي تشدغ غرائزه الفجة وتثير ضحكهم. وبمعنى آخر إن جمهور المسرح يعرض عن المسرحيات التي تقدم له غذاء روحياً وثقافياً ويقل على المسرحيات الثقافية التي لا هدف لها. وطبعاً هذا يثبط مستأ نحن المخرجين الجادين إضافة إلى ما يكبنا من خسائر مادية.

مشاهد: كيف تلوم المشاهدين يا أستاذ مسعود على إقبالهم على المسرحيات الخفيفة التي تسليهم وتبند عنهم شيئاً من همومهم ومعاتنتهم اليومية؟ ألا تعتقد أنهم في حاجة فعلاً إلى التسمية عنهم في حياتهم الصعبة؟

مسعود الهادي: وكيف سيتوفر لهم إذن رصيد جيد من الثقافة إذا رفضوا مصادرهم؟!

المشاهد نفسه: هناك مصادر أخرى للثقافة غير المسرح يا أستاذ مسعود.

جبار العودي: أنا أؤيد الأخ وأعتقد أن مهمة المسرح الأولى هي إمتاع المشاهدين لا إلقاء المحاضرات عليهم.

مسعود الهادي: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) على كل حال لنكتفِ بهذا القدر من النقاش حول هذه القضية. ولنعطِ الفرصة لمتحدث آخر. وأرجو من الإخوة أن يوجزوا في عرض مشاكلهم وكذلك في مداخلتهم ليتسع المجال لمشاركة أكبر عدد ممكن من المتحدثين. والآن من يحب أن يعرض مشكلته؟! (يرفع منير السالم يده).. تفضل أيها الأخ. وأرجو أن تقدم نفسك للحضور. (يتراجع مسعود الهادي إلى مقعد بجوار المنصة).

منير السالم: (يغادر مقعده في الصلاة ويصعد إلى المنصة) أنا منير السالم موظف في مصلحة البلديات. ومشكلتي هي مع رئيسي الذي يرفض الموافقة على ترقيتي التي استحقها منذ شهر، مع أنني موظف نشيط ودؤوب وملزم بالدولم وبادء واجباتي، ولا أفرى ماذا

أفعل للحصول على حقي.

مشاهد: إذا كنت كما تذكر يا أخ.. فلماذا يرفض رئيسك الموافقة على ترقيتك؟

مدير المعالم: لأن ضميري لا يسمح لي بقبول الرشوة لتمشية المعاملات غير القانونية. وعليكم أن تفهموا الباقي.

مشاهد: فإذن أنت مثال الموظف للنزاهة ببارك الله فيك.

مشاهد: وما فائدة النزاهة في هذه الأيام يا أخ؟! إنها لا تؤكل خبزاً وهي تجيء على حساب عائلته. (مخاطباً منير) والأفضل لك يا أخ منير أن تتساهل وتطبق المثل القائل «نفيد ونستفيد».

مشاهد: أي والله صدقت يا أخانا. وليت موظفي البلديات يرحموننا ويقترروا ظروفنا نحن أصحاب عربات البضائع فيستفيدون ونستفيد. لكنهم يحاربوننا في رزقنا ولا يسمحون لنا بالتواجد في أماكن كثيرة قاتلين بأننا نخالف التعليمات.. مع أننا نستهلك عطفهم. فظروفا صعبة جداً. وفي الأيام التي لا نبيع فيها شيئاً نبيت بلا عشاء.

مشاهد: ما هذا الكلام المجيب يا إخوان؟ أين ذهبت المثل إذن؟ لو سمح كل موظف لنفسه أن يرتشي بحجة حاجته للمال لخرب المجتمع.

مشاهد: اسمعوا لي يا إخوان أن أصحح ما قاله لكم السيد منير، فأنا زميله في العمل. وأؤكد لكم أن كل ما نذكره هو كلام باطل لا أساس له من الصحة. فهو مثال الإهمال في عمله وأوراق المراجعين مكتمة على مكتبه وهم يشكونه دائماً إلى الرئيس.

مدير المعالم: أنت تعلم أن سبب تراكم أوراق المراجعين على مكنتي هو مخالفتها للتعليمات والقوانين المرعية وأنا لا أقبل الرشاوى مثلك.

المشاهد نفسه: والله إنك لكاذب. وأنت تقترى علي وعلى الرئيس. والرئيس معروف لدى الجميع بالنزاهة الكاملة.

مدير المعالم: بل أنت الكاذب. وأسباب كذبك معروفة لجميع الزملاء. فأنت تحاول الدفاع عن الرئيس وعن سلوكه الدكتاتوري. وقد اتخذك جاسوساً علينا. وأنا في الحقيقة لم أتحدث عن مساوئه كلها وعن تعامله البيروقراطي مع موظفيه ومع المراجعين الذين يضجون بالشكوى منه.

مدير الأمن: اسمع يا سيد منير. لا يليق بالموظف المحترم أن يتحدث عن رئيسه على هذا النحو وأن ينتقد سلوكه هكذا ولا أن يوجه إليه مثل هذه الاتهام بالحق أو بالباطل.

مسعود الهادي: لنكتف ليها الإخوان بهذا القدر من النقاش حول هذه القضية. (وهو يدير عينيه في الجمهور) من يجب أن يعرض مشكلته؟ (ترفع سليمة الهادي يدها).. تقصلي.. تقصلي أيتها الأخت.

سلمية الهادي: (تتألمر مقعدها على المسرح وترتقي المنصة) أنا سلمية الهادي زوجة رؤوف الصالح. وأقول لكم إن الاتسجام بيننا مفقود. وإن حياتنا معاً لم تعد تطلق. لكنني أصارحكم أيضاً أننا نكنتم وضعنا هذا عن أصدقائنا ومعارفنا وهم يعتقدون أننا زوجين سعيدين.

رؤوف الصالح: وهل تريدنا إذن أن ننشر غسيلنا القذر على الناس؟

سلمية الهادي: أنا لا أقول ذلك. ولكن أنت تعلم كم يكلفنا كتمان هذه الحقيقة من معاناة. ولو تحدثنا عن مشاكلنا لأصدقائنا لساعدونا في حلها.

رؤوف الصالح: ليس هناك بيوت خالية من المشاكل ولا تحدث فيها مشاحنات. وكل ما في الأمر أن الناس يحصرونها داخل بيوتهم ولا ينشرون غسيلهم القذر على الآخرين. ثم من قال لك إن هناك مشكلة حقيقية بيننا؟

سلمية الهادي: فلماذا إذن هذه المشاحنات المستمرة بيننا؟

رؤوف الصالح: خيالك هو الذي يصور لك هذه المشاكل.

سلمية الهادي: إذن فهل خيالي هو الذي يصور لي بأنك لا تسهم معي في أعمال البيت وترمي الأعباء كلها علي؟

رؤوف الصالح: ومن قال لك إن الرجل مسؤول عن أعمال البيت؟ أليس المعروف في بلدان الدنيا كلها أن المرأة هي المسؤولة عن أعمال البيت؟ ثم ألا يكفي ما ألقاه من تعب في عملي المرهق طول النهار؟

سلمية الهادي: وأنا؟! أليس أعمل مثلك خارج البيت؟ ألا أعود إلى البيت مرهقة أنا أيضاً؟ ومع ذلك فعليّ أن أهيب لك مائدة الطعام كاملة حتى السلطة ثم أعسل الأطباق.

رؤوف الصالح: هذا ولجيك.

مشاهدة: هكذا هم الرجال.. يتصورون أنهم السادة وأنا إماء عندهم وأن من واجبنا أن نخدمهم ونحن الممنونات!

مشاهد: وما العجب في ذلك يا أخت؟! أليس الرجل هو رب العائلة؟!

المشاهدة نفسها: ونحن أيضاً ربات العائلة.

سلمية الهادي: (في سخرية) على كل حال لا عجب في ذلك فعلاً فأنتم سيدانا.

رؤوف الصالح: لا تضطربني يا سلمية إلى نشر غسيلنا القذر على الناس ولا تتفعيني إلى الحديث عن إهمالك لشؤون البيت والأطفال متحججة بانشغالك بملكك الوظيفي الذي لا ضرورة له.

سلمية الهادي: (في سخرية) وهكذا أكون تحت سيطرتك المطلقة! أفتتكر أن كل شيء في البيت ينبغي أن يتم بموافقتك وتوجيهاتك وأنا لن أستطيع التصرف بحرية حتى برأيتي؟!

رؤوف الصالح: لماذا لا تكوني صادقة وتخبري الحضور الكرام بأنك أنت التي تريد أن تستبد بشؤون البيت كلها ولا تقبل نصحا من أحد؟

مشاهدة: طبعاً.. أليست المرأة سيدة البيت؟

سلمية الهادي: أنا التي تستبد بشؤون البيت؟ أنا التي لا تستطيع أن تتفق قلماً واحداً ما لم تحصل على موافقتك؟! (توجه حديثها للجمهور) تصوروا أنني كلما أردت شراء حاجة للبيت فلا بد من حدوث مشادة بيننا.

مشاهدة: هذا هو طبع كل الأزواج يا أخت سلمية. فهم يقرّرون علينا ولا يهون عليهم أن نصرف قلماً واحداً.

رؤوف الصالح: (موجهة حديثه إلى الجمهور) إنها تتهمني بذلك يا إخوان لأنها أشد النساء إصرافاً. وهي تبذل راتبها على شراء الملابس غير الضرورية والتي تنكس في خزائنها وعلى الحللي التي لا لزوم له. وهي تشتري أشياء للبيت لا ضرورة لها مطلقاً، وتسرف في تقديم الهدايا للأهل والأصدقاء بدون عقل. وإذا نصحتها بالاعتصام في مصاريفها غير الضرورية اتهمتني بالبخل. إنها في الحقيقة مثال الإصراف.

مشاهدة: أنت تكذب فأبنتي ليست مسرفة. أنت الذي تستولي على كل راتبها وتقرّر على البيت دائماً. أنت أحلت حياة ابنتي إلى جحيم.

مشاهدة: دفاك عن ابنتك مفهوم يا أم سلمية فأنت تريينها أن تتفق نصف راتبها عليك. وابنتك هي التي أحالت حياة ابنتي إلى الجحيم.

مشاهد: والله إن تدخلكن في حياة أبنائكن هو الذي يحيلها إلى جحيم.

مدير الأمن: يا ست سلمية.. عليك أن تتذكري دائماً أن الرجال قولمون على النساء، وأن الله قد أمر الأزوجة بطاعة زوجها.

مسعود الهادي: أعتمد أيها السيدات والسادة أننا استفتينا وقتاً كافياً في نقاش هذه القضية. وينبغي لنا أن نعطي الفرصة لمحدث آخر. فمن منكم يحب للتحدث عن مشكلته؟ (يرفع علوان العباس يده).. تفضل يا حاج علوان.

علوان العباس: (يغادر مقعده في الصلاة ويصعد إلى المنصة) أنا الحاج علوان العباس وعملي تاجر.

مشاهد: (في سخرية) وهل لدى التجار مشاكل في حياتهم أيضاً؟ إنهم يعيشون في نعيم دائم وعليهم أن يحموا الله.

مشاهد: ومن قال لك يا أخ إن التجار جميعاً يعيشون في نعيم؟ فالكثيرون منهم قلقون دائماً مما قد يلحق بهم من خسارة.

مسعود الهادي: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) صحيح يا حاج علوان... ما هي مشكلتك؟

علوان العباس: مشكلتي ليس مشكلة شخصية بل مشكلة التجار جميعا. والمشكلة تتعلق بنظرة الناس إلينا.

مسعود الهادي: وما للمشكلة في نظرة الناس إليكم يا حاج علوان؟

علوان العباس: إنهم يتهموننا أننا نبتزهم وأن جشعنا لا حدود له وأنها لا قبالي بالفقراء ونوي الدخل المحدود.

مشاهد: ليس الأمر كذلك فعلاً يا حاج علوان؟ فأنتم ترفعون أسعار البضائع باستمرار. وهكذا ينكوي بنارها الفقراء وذوي الدخل المحدود. ولم نسمع بتاجر يوماً حذ من جشعه ومن رغبته في الربح.

مشاهد: لا.. لا يا أخ. أنت تظلمنا فنحن لسنا كذلك. واعلم أننا لسنا مسؤولين عن ارتفاع الأسعار فهي مرتفعة من المنشأ أو بسبب ضرائب الدولة.

علوان العباس: هذه هي حقيقة الأمر يا إخوان كما ذكرها الحاج أحمد.

المشاهد نفسه: فهل تتكر يا حاج علوان أن التجار يحبون المال أكثر من غيرهم؟

علوان العباس: أبداً يا أخ. فنظرتنا إلى المال هي نفس نظرة بقية الناس. نلني على إنسان لا يحب المال أو يزد فيه. فحب المال والكسب ليس عيباً خاصاً بنا نحن التجار. وقد قال الله في كتابه الحكيم (المال والبنون زينة الحياة الدنيا).

مشاهد: ولكن هناك أناس لا يتهاونون مثلكم على المال يا حاج علوان.

علوان العباس: بالقول لا بالعمل يا أخ. فلو أتيحت الفرصة لأمثال هؤلاء الناس لتهالكو عليه أيضاً.

مشاهد: معنى هذا يا حاج علوان أنك لا تمنع أبداً في رفع أسعار بضائعك ما دمت بدناى عن الحساب.

علوان العباس: لكون كاذباً أو قلت غير ذلك. فهذه هي طبيعة الإنسان. فلا تلومونا على ذلك يا إخوان وأحسنوا الظن فينا.

مشاهد: وماذا عنا نحن الفقراء؟ ألا يفكر أحد فينا؟ ألسنا بشراً مثلكم؟ أليست لنا رغبات واحتياجات؟ فهل كتب الله علينا أن نعيش في كفاف دائم؟ ألا يحق لنا أن نحلم بالحياة الرضية؟

مدير الأمن: (في غلظة) هل هذه المسرحية فرصة لتحريض الفقراء ضد الأغنياء وإثارة البلبلة والشغب في المجتمع؟ كفى نقاشاً في هذا الموضوع. أنتم بدأنتم تلوصون.

علوان العباس: (وهو يتنسم) على كل حال يا إخوان.. لكل ما قسم الله له من رزق. ولا علاقة للتجار بما يعانيه الفقراء من شظف العيش.

مشاهد: يا إخوان.. الحق مع الحاج علوان. فليس للتجار هم الملمومين بل قوانين الدولة هي الملمومة. فهي تتيح لهم فرص الكسب بلا رقابة وحساب.

مدير الأمن: (في غلظة) ما هذا للولص؟ ما العيب في قوانين دولتنا؟! إنها أحسن قوانين في العالم. وهي توفر للمواطنين استثمار ذكائهم وشطارتهم لكسب رزقهم الحلال.

مسعود الهائي: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) أعتقد أنه آن الأوان للاكتفاء بما سمعناه من نقاش حول هذه القضية يا إخوان. (وهو يدير عينيه في الحضور) فهل من رغب آخر في التحدث عن مشكلتنا؟ (يرفع زاهد محمد يده) تفضل.. تفضل أيتها الأخ.

زاهد محمد: (ينلار مقدمه على المسرح ويرتقي المنصة) أنا زاهد محمد.. طالب في السنة النهائية من المدرسة الثانوية. ومشكلتي هي مشكلة الشباب جميعاً ممن هم في سني، والمسؤول عنها هم الآباء، فهم يتدخلون في صميم حياتنا الشخصية ويحرّمون علينا ممارسة كل رغباتنا بحجة الانصراف إلى الدراسة.

مشاهد: وأين الخطأ في ذلك يا بني؟ ليس المفروض ألا تشغلوا بالكم بغير الدراسة لكي تضمنوا مستقبلكم؟

زاهد محمد: الخطأ في ذلك واضح يا عم. فمعنى ذلك أننا نتحول إلى آلات شأننا شأن الكمبيوتر. ونحن بشر من لحم ودم ولنا عواطفنا ورغباتنا خارج نطاق للدراسة.

مشاهد: هكذا هم الآباء جميعاً لا يحسنون سوى هذه النغمة. ومن أجل ذلك يحرمون علينا كل شيء.

مشاهد: وما الذي نحرّمه عليكم؟

المشاهد السابق: تحرّمون علينا ممارسة كل هوياتنا وتتدخلون في اختيار الملابس التي نلثم نوناً بل وتمنعوننا حتى من خلق رؤوسنا بالطريقة التي تعجبنا.

مشاهد: هذا ما يفعله ألي معي بالضبط.

مشاهد: (في سخرية) للحق معكم، فحن مقصرون تجاهكم. ويجب أن ننتج لكم كل ما تمليه عليكم رغباتكم. علينا أن نسمح لكم بالتدخين وشرب الكحول وحتى بتناول المخدرات. أفلا يتمتع شبان الغرب بمثل هذه الحريات.. فكيف نحجبها عنكم؟!

زاهد محمد: لا يا عم. نحن لا نطالب بذلك. نحن نطالبكم بالسماح لنا بممارسة هوياتنا المعقولة. فإني مثلاً أرفض السماح لي بالاستماع إلى الموسيقى والأغاني الغربية مدّعياً أنها تضيع وقتي.

مشاهد: وهل تسمى هذا هواية معقولة يا بني؟ هل تسمى الاستماع إلى صخب الموسيقى الشبيه بصخب سوق الصنابير وصراخ المغنين للشبيه بصراخ المجانين هواية معقولة؟ ما العيب في غنائنا العربي وموسيقانا للعربية؟

زاهد محمد: على كل حال أنتم الآباء لا تراعون رغباتنا ومشاعرنا وهذا يجعل حياتنا مرة كالعقلم. وأنا أصارحكم بأننا نعدّ الأيام بل الساعات للتخلص من عبوديتكم.



مدير الأمن: (بصرامة) ما هذا اللواص؟! بدلا من أن تتفلسفوا عليكم أن تهتموا بدروسكم وتضمنوا مستقبلكم! ويجب عليكم ألا تشغلوا أنفسكم بأي أمور أخرى غير الدراسة. وابتعدوا عن السياسة على نحو الخصوص التي يزرجم فيها المخربون. فالسياسة ليست لعبة بأيدي الزعاطيط.

مسعود الهادي: أظن أن هذه المشكلة قد تم استيعابها. وعلينا الآن أن ننقل إلى مشكلة أخرى. (وهو يدير عينيه في وجوه الحاضرين) من منكم يحب أن يعرض مشكلته؟ (يرفع شمخي العلي يده) تفضل ليها الأخ.. تفضل.

مدير الأمن: (ينظر إلى شمخي في غضب) ما لك وهذا اللواص يا شمخي؟ اجلس.. اجلس ولا تلوص.

مسعود الهادي: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) أرجوك يا سيادة مدير الأمن أن تسح له المجال ليعرض مشكلته.

مدير الأمن: (في غضب) ومن قال لك إن لديه مشكلة؟ أفراد القوات المسلحة ليس لديهم مشاكل أصلا، وكل ما عليهم هو طاعة الأوامر.

مسعود الهادي: (وهو ينظر إلى شمخي) تفضل ليها الأخ شمخي.. تفضل.

شمخي العلي: (يفادر مقعده على المسرح ويرتقي المنصة) أنا شرطي الأمن شمخي العلي. طبعاً سيادة مدير الأمن محق في قوله بأننا أفراد القوات المسلحة ليس لدينا مشاكل وليس لنا إلا أن نطيع الأوامر. ولكن نطيسمح لي سيادة مدير الأمن..

مدير الأمن: (مقاطعاً في خشونة) لا أسمع لك.. اجلس ولا تشترك في هذا اللواص.

مسعود الهادي: استمر.. استمر يا أخ شمخي.

شمخي العلي: على كل حال ليس لدي مشكلة حقيقية. وكل ما هنالك أنني أردت أن أقول لكم يا إخوان إننا أفراد الشرطة أناس طيبون مثلكم ولنا قصة كما تصورون. وقلوبنا رحيمة مثل قلوبكم.

مشاهد: (سخرية) فكيف إذن تسمح لكم قلوبكم الرحيمة بأن تضربوا مواطنكم بقسوة أثناء المظاهرات، بل وأحيانا تطلقون عليهم النار؟!!

مدير الأمن: (في غضب) يا أستاذ مسعود.. عليك أن تمنع هذا اللواص الذي يمس هبة السلطة.

مسعود الهادي: (في حرج) لكننا وعدنا الحضور يا سيادة مدير الأمن بأن يدلي كل واحد منهم بمداخلته بحرية تامة. ثم إن هذا الكلام لا علاقة له بهيبة السلطة.

مدير الأمن: (بلهجة الغاضبة) كيف لا علاقة له بهيبة السلطة؟ (ملتحفاً إلى الحضور في غضب) على كل واحد منكم أن يرقب ما يقوله ولا يلوص. وقد أعز من أنذر.

مسعود الهادي: استمر يا أخ شمخي.. استمر..

شمخي العلي: أنته تظلمونا يا إخواني. ونحن أبرياء من كل نذب. فتحن حينما تضرب المواطنين في المظاهرات أو حتى نقتلهم فلأننا ننتقى الأوامر من مسؤولينا الكبار. ونحن موظفون مأمورون. وحينما تصدر إلينا الأوامر فيجب علينا طاعتها وتنفيذها وإلا تعرضنا لمقويات تقصم ظهورنا. ولترجناكم أن تعلموا أننا حينما ننفذ تلك الأوامر يعصر الألم قلوبنا لأننا ندري أنكم تدافعون عن حقوق المواطنين جميعا، وما نحن سوى مواطنين مثلكم.

مدير الأمن: (بغضب) لا تلوص يا شمخي واضبط لسانك.

شمخي العلي: العفو يا سيادة المدير. أنا لا أقصد انتقاد الحكومة، فالحكومة على العين والرأس. وكل ما أريد قوله للإخوان الكرام أننا أفراد الشرطة مظلومون. ونحن ننفذ أوامر رؤسائنا، فلماذا يوجه اللوم إلينا؟! ثم إننا مساكين نضحي بأرواحنا أحيانا بسبب المهام التي نكلف بها. وكل حياتنا خطر في خطر. ألم يقتل بعضنا أثناء المظاهرات؟ ألم يقتل بعضنا حينما يكلفون بمهمة القبض على المجرمين؟ فما ذنبنا؟ أسنا بشرا نخاف على حياتنا كسائر البشر؟! ليس لدينا عوائل مسؤولين عن إطعامها؟ ومع ذلك لا تدفع لنا الحكومة رواتب مجزية. فرواتينا كما تعلمون يا إخوان شحيحة وهي لا تكاد تسد مطالب عوائلنا، ولكم تعلمون أننا من الطبقة المسحوقة. نحن مساكين يا إخوان وحرام عليكم أن تظلمونا.

مشاهد: أنت على حق في كل ما قلت يا أخ شمخي. والذي ينبغي أن يلام هم رؤسؤكم الكبار الذين يصدرون إليكم مثل تلك الأوامر الجائرة.

مدير الأمن: (يقف ويخاطب مسعود بغضب) لا.. لا.. الأمور خرجت عما هو مرسوم لها يا أستاذ مسعود. ويظهر أن بعض الناس لا يعرفون حدودهم ولا يضبطون أنفسهم. ولدي أمر رسمي بفض هذا الاجتماع إذا تجاوزت الأمور حدودها المرسومة وأخذ الناس يلوصون. انتهت هذه المسرحية البائخة يا أستاذ مسعود. (وجه كلامه إلى الحضور وهو يؤشر ببديه) انصرفوا.. انصرفوا. انتهت هذه المسرحية المخيفة. (يهتف) عباس.. خريط.. محسن.. أخرجوا الحضور من هذا المكان.

(ينهض من بين الجمهور أشخاص يرتدون الزي المدني ويبدؤون بدفع الناس بغلظة وهم يهتفون «هيا.. هيا». يتدافع الحاضرون وهم يخرجون في عجلة من الصالة والمسرح) □

— ستار الختام —

## جنان الطفولة

[قراءة في (بيت في أقصى النسيان) للقاص العراقي أحمد محمد أمين]

محمود سعيد

### لغة النقد

رن جرس التلفون عند المرحوم الدكتور علي جواد الطاهر، رفع الساعية، ثم سمعته يقول: لا، لا أكتب عن روليتك، كررها بضع مرات، ثم قال مؤكداً، مسرحياتك جيدة، لكن روليتك ضعيفة، ولا تستحق أي نقد، ولو كنت مكانك لتفرغت للمسرحية، إيس الرواية، لا تشرها، ثم صمت برهة ليستمع إلى محنته، ثم أكد من جديد: لا لن أكتب قط، وبعد انتهاء المكالمة، التفت إلي وقد تكدرت أساريره:

— هذا د. فلان، أخبرته غير مرة بأنني لن أكتب عن روايته، وهو يلح، لماذا لم يفهم أن النقد ليس مجاملة صديق!

النقد رحمة لا لعنة، ميزان عادل، يبين للنقص والزيادة، للشذوذ والاعتدال، لذا فإنه أحد أهم عوامل البناء الأدبي، والناقد الحي هو الباني المشيد، ومن يطاله النقد إن كان منفتحاً للحياة، محباً للتطور يتقبل النقد مادام صادراً وفقاً لمبادئ عادلة.

رحل الدكتور الطاهر، وربما كان آخر من بقي من جيله في العراق، أقصد جيل النقد الموضوعيين، وقبل مدة رحل الدكتور القط، وقبله مندور، أما من تبقى ممن يطلقون على أنفسهم نقاداً، فليس فيهم من يتمتع إلا بنسبة قليلة مما كان يتمتع به أولئك للرواد صراحة ونزاهة وتمرساً، وأخال أن الزمن سينسأهم، أو قد نسيمهم بالفعل، وما كتاباتهم سوى فقاعات لا تثبت أن تزول من فوق سطح المياه، الزمن كفيل بتثبيت اللقب على من يستحق، ذلك أن معظم «النقاد» المتواجدين في أرجاء الوطن العربي من خليجه إلى محيطه، يفتخرون إلى أدوات عمل ضرورية، بمدار

يتولزى مع افتقارهم إلى ضمير مهني، فهم لا يتورعون عن إطلاق صفات التجبيل على من يتوجسون منه المنفعة، ويهملون المبدعين الحقيقيين، ومهما بلغ الإنسان من الذكاء والفراسة للامعة فلا يستطيع أن يتكهن بطرقهم في النقد، أو باعتدالهم، وعدالتهم، أو بإحاطتهم بألوان عملهم، فهم إن كتبوا عن هذا القاص أو الشاعر فلا ينظرون إلا إلى الدوافع المادية، من محسوبية على هذا المسؤول، ومنسوبية إلى تلك المدينة، أو أنهم يميلون إلى من يعتق مذهبهم، أو من يؤيد نحتهم، أو يشاركتهم في الانسحاب إلى طائفاتهم، أو من يؤخون لديه الفائدة، وعندما يمعن الناظر إلى منهجهم، لن يجد عندهم اهتماماً لإلقاء ضوء على إبداع، أو جدة، أو تجديد، هناك تغليب الهوى، والحكم المسبق، لذا أصبح النقد لعنة، معول هدم لا واسطة بناء، وأخال أن أفضل ما يستحق أن يطلق على بعضهم هو نقاد «للنكتة»<sup>(١)</sup>.

لقامت بعض المجلات والصحف أسواراً في هذا الزمن الأعوج، يتخندق فيها نقادها، وكتابتها ومبدعوها، لا سبيل لاقحامه، والوصول إلى ساحاتها إلا ببارقة ماء الوجه، أو بلبطخ الضمير، ولولا قلة من هذه الدوريات مازالت على العهد السليم الصافي لبلغ للأيأس منتهاه.

أقول هذا وأمامي مجموعة (بيت في أقصى النسيان) للقاص أحمد محمد أمين، الذي ما فتى ينشر منذ أربعة عقود وحتى الآن، والذي أعتبره ضحية لنقاد تعمدوا إهماله، تعمدوا للصمت عن إبداعه، أو الكتابة عنه، اهتموا بمن هو أقل منه موهبة لاعتبارات طائفية، أو عنصرية، أو إقليمية، فعلى كثرة ما عندنا في العراق من «قاد»، إلا أن أحداً ما لم يسلط أي ضوء مغنٍ على كتاباته، ثم جاء خير فوز مجموعته «طائر الليل» بجائزة «أبو القاسم الشابي» في تونس، ليكون صفة مريعة لوجه وفقاً للنكتة، الذين يطربون لأي مغنية شرط أن لا تكون مغنية الحي، لكن هل ثابوا إلى رشددهم؟ لا أظن.

تنقسم قصص المجموعة الخمس عشرة إلى ثلاثة أقسام: ثلاث عشرة قصة تشدها خيوط موضوعات متشابهة موحدة، نكاد نكون كل قصة فيه فصلاً مكملاً للقصص الأخرى، بينما يتكون القسم الثاني من القصة للربعة عشرة: «العريس الأخير» وهو يختلف اختلافاً كاملاً عن القصص المتقدمة لأنه صورة موقفة مؤثرة لطفولة باتمة، أشبه بالسيرة الذاتية، أما القسم الثالث فيتكون من قصة واحدة متألقة قلما وجد مثيل لها في الأدب العربي: (لعبة للدمى).

### الخراب

ماذا يتبقى من بلد تحكمه الديكتاتورية نحو أربعة عقود كاملة؟ تحيله إلى أنقاض وخراب، تنفرقه في الحروب، تقضي على مجمل إنجازاته التي ورثها على مر القرون، ولعل أكثر فئات الشعب التي وقع صعب الديكتاتورية والاضطهاد عليها فقراء هذا الشعب المضطهد، أصبحت السلطة كابوساً يستلج كل شيء، فتبدو البلاد وكأنها خالية من النظام، فلا قانون ولا سلطة تستطيع منع القوي من سحق الضعيف، القوة هي التي تبطلش، وتغتصب، وتقتل، وتنتهي حيوات لم تكد تخطو خطوات فوق هذه المساحة التي يمكن أن تكون ساحة للبراءة والجمال، ص ٩٩، وإن بحثنا

عن ناله أكبر قدر من العذاب سجد أهل البصرة، قبلاً إضافة إلى ما وقع على سكان البصرة من عبء الدكتاتورية كبقاي أراضي الوطن، نراها تحملت العبء الأكبر في الحرب العبثية بين العراق وإيران، إذ ظلت طيلة ثماني سنوات تستقبل قتابل وقذائف وصواريخ إيران بشكل يومي ومن دون انقطاع، حتى إذا انتهت تلك الحرب العابثة بالتنازل عن أهم بقعة من بقاع الوطن، وتنفس الناس الصعداء فوجئوا باحتلال الكويت، وما أعقب الاحتلال من تدمير وقصف وتصفية جندية ليمر ما تبقى صامداً من معالم تلك المدينة الجميلة.

ولعل الصور المثبتة في قصص (بيت في أقصى النسيان) تصور ما عرض لأهل البصرة من مأس: طفل ينتظر والده عبثاً لأن قذيفة غادرة صنعت الوالد وهو عائد إلى البيت عصرًا فتشظى جسده إلى أشلاء نقيفة محترقة، فتشترت حوالبه، لم يبق منه إلا كومة متفحمة، لقي عليها عابر سبيل عبائه وتصرف، ثم جاء أهله من بعد فجمعوا بقاياه، ورموها في حفرة كيما تنفق، غير أن شظايا نقيفة منه ما زالت ملتصقة بالجدران ص ١٢٠، والقصة معاناة ذلك الطفل وأمه، وطفلة تلجأ إليهما لأنها فقدت أمها في القصف أيضاً.

ولعل من مات في الحرب ارتاح، لكن الناجين هم الضحية الحقيقية، حاول (أحمد محمد أمين) تصوير تجذر الخوف والرعب ببراعة نادرة في داخل أفراد الشعب طيلة تحكم الديكتاتورية الهيجي، الناجون يسرون، ويسلون، ويأكلون، ويمارسون حياتهم اليومية، لكن الخوف والرعب، والضياح يشظيهم، ظاهراً بشر اعتياديون، لكنهم في الواقع صخور، حتى حواسهم أضاعوها! «ما الذي بقي لي إذا ضاع سمعي الذي يربطني بالآخرين؟ ليكن أن يكون لهذا العمى الذي يشي أنذك نهاية؟ ستستحيل إلى دودة تتحرك وحسب، لا سمع ولا رؤية!» ص ١١٨.

أبطال القصص جميعاً قراء مضطهون، فيهم المشردون، وفيهم المدقعون، فهذا بطل الصدى..والصداء، طالب محامط بحاجات ومتطلبات حياتية لا يستطيع تحقيق أبسطها، يبحث عن مكان يسكنه، في مدينة فاغرة «فاما العملاق تبتلع الفقراء وأحلامهم» ولكي يسكن في قسم داخلي يضطر للكذب والاحتيال، أخيراً يجد نفسه مع «مجهول بلا ملامح ولا اسم» يشاركه غرفة بالنساء، مقابل حراسة القسم الداخلي وتنظيفه، لكن العثور على سكن لم يحل المشكلة، فالغرفة في الصيف مشتمل من جهنم الحمراء، أشبه بالنفرن، خالية من أبسط مرافق للتكييف، حتى المروحة غير موجودة.

تصور إحدى القصص حياة قاسية: أستاذ رياضيات جامعي يفتح محلاً للحلاقة، ومشردون يملؤون الشوارع، يبحثون عن طعام في القمامة!، ولا أحد يستطيع الكلام، في مجتمع يستقطب الناس تدريجياً إلى فتكتين صغيرة متنفذة متسلطة غنية، تأمر، تسلب، تنهب، تقتل، تطارد، وفئة كبيرة مضطهدة فقيرة محترقة، مأمورة، معتبلة من كل شيء حتى الكرامة، مطاردة، لا مستقبل لها!

لا يشعر العراقي بالأمان، بالراحة، هناك من يطارده حتى بالأحلام، الصديق يخون، الجار يسجن، السياسي يعدم، الهارب من الجيش يقتل ويلقى على باب بيته، الأذان تقطع، الأسمنة تجتث،

ال، إلى ما لا نهاية، أفلا يقضَ ذلك من مضجع الإيمان العادي؟ في النهار خائف، وفي الليل خائف، ولعل خوف الليل أشد، فقومه سلسلة من الكوابيس، فأرسل يحمل رمحا، يرتدي درعا، وخوذة من الصلب، يجوس خلال الصالة، ويبحث عن أحدهم، يقلب النائمين، يحرّكهم بقدمه، ولم أكن أعرف أنه يبحث عني إلا في وقت متأخر. ص ٥٧.

أسأل نفسي: كيف دخلت إلى هذه الفسحة المغلقة على نفسها، تسورها جدران عالية، لا باب ولا منفذ أو مخرج لها، أشعر باليأس، وأقول: حتماً تتطوي على هذه الحيطان اللعينة؟ وأكد أجيش. ص ٦٣.

ثم فجأة امتدت يداي وخيطتا فمي، صرت لا أستطيع الكلام.. وكان صممتي جزءاً من حريتي التي سأمتنع بها.

خذوها إلى السجن لمدة أسبوع ثم يقدمان إلى مجلس الانضباط... بعد قليل تقاطرت الأيدي علينا، وسحبنا إلى غرفة صغيرة ضيقة في زاوية نائية ورمونا داخلها، داخل الظلام والعفونة والصمت.

كنت أتحايل أنتقل من مكان إلى مكان، معطياً ظهري إلى العيون خوفاً ورهبة وقبل أن أنتقل إلى مقاطعة أخرى إذا باثنين من العيون يطبقان على نراعي وكانا يرصدان حركاتي، ولم أستطع مقاومتها، كنت ضعيفاً شاحباً هدني الجوع.. ص ١٠٠

لا مخرج للناس في واقع سجن كبير هو كل المجتمع سوى بالأحلام، فهذا بطل القصة الأولى، رجل سريع العطب، لا يجد مهرباً من وطأة الاضطهاد سوى الموت أو الهرب إلى الماضي، كسر واجهة زمان يمتد إلى خمسين سنة، ليقابل هدية وسلطانة، وهاب وخديجة، ووجه أمه، وبقية فتيات المحلة، ويتمتع بالحديث، باللعب، بالمرح معهن: ذا هو الصباح ثانية لكنني في البيت، بيتنا القديم، مأوى الطفولة والذكريات واللحظات التي لا تتكرر ثانية، حول صينية كبيرة نكتظ بما لذ وطاب من الطعام..

لكن هل ينتهي الحلم إلى خير؟

لا، فإمامه جيد ممجى يصده الأحياء:

تخلص في الأقل من مضايقات أذئاب السلطة، من ممارساتها، لن يقف بعد اليوم في الطوابير، ولا ترى عيناه للصوم والمرايين وصانعي الحصار من الدلخل..

كيف يجوع بلد كان يطعم قبل ١٥٠٠ سنة ٣٠ مليوناً؟

يحلم بطل وجع الانتظار بالشبع! يعود إلى ما قبل عصور الديكتاتورية، إلى ما قبل سلطة الأزمات، حيث جانب النهر مكتظ: بباعة الخضار والفواكه والاحتياجات الاستهلاكية وكل ما يخطر بالبال، إلا أن البيع والشراء متوقفان فما من أحد يشتري ويعين للباعة بتحلق في عدد قليل من السابلة، وعندما يريد لونه أن يشتري شيئاً يرفض البائع نقوده، لأنها نقود قديمة تغيرت منذ مدة طويلة..

استطاع أحمد محمد أمين، أن يصور كوايس حياة شعب كان بمقدوره أن ينوق الرفاهية، والنعم، والبهجة، وأن يعيش حياة رغدة لولا تسلط فئة عبثت بمقدراته، وضعته، وقضت على أي أمل في مستقبل أفضل، فلم يبق عند الواعين من أبناء الشعب سوى الأحلام، ولذلك فقد قراءة المجموعة تجد نفسك أمام أبطال اختيروا لا على التمييز من الأكثرية الصامتة، الأكثرية المستلبة، الأكثرية المضطهدة، أناس بلا حقوق، مهانون، مخلون، أينما يتجهون لا يجدون سوى أبواب موصدة، والمستقبل نفق لا نهاية له، غارق في الظلام، أما السعادة فلا تتحقق إلا بالذكريات، ذكريات الطفولة بالذات.

### العرس الفقير

قليلة هي القصص التي تتبع بعفوية لتترك انطباعات حزيناً يدمي القلب كالعرس الفقير: طفلان، صغير لا يتجاوز بضعة سنوات، وصبيبة في نحو العاشرة، توت أمهما، تتركهما برعاية أب فقير، يقضي نهاره كله خارج البيت بحثاً عن لقمة العيش، لم يجد أحدهما ملجأ إلا في أحضان الآخر، البيت مرارة، والفقر عذاب، والمحيط جهنم، لكن حنان الصبيبة على الصغير جلب الربيع إلى صحراء الواقع المجذبة، فأحال جهنم إلى فردوس.

وعندما كبر الصغير، وتجاوز الستين، لم يجد في كل حياته أجمل من ذكرى حياته مع أخته، «فمن يفرض في ذكريات قلبي بجد صورتها معلقة هناك، تقف بقامتها الباسقة، وثيابها البيض، لصق الدراج تحملي» «عيناها بلون زهرة الشمس ووجهها ملائكي مدور ناصع» «أنهض كل صباح أمد أناملي، للمس وجهها...» ص ١٢٥.

ترفعين جسدي الضامر بكلتا يدك، أهبط معك من السطح إلى الفناء.

أين هي البسمة التي كانت تتبرعم فوق شفيتها كل صباح؟ أين هي الأغنيات الصغيرة تهمسها في أذني؟

من ينسى أول وجه ينحني عليه ويرسم بشفتيه قبلاات دلفيات فوق جبينه؟ نفسل وجهه، تخرج به أيرى الصباح داخل الزقاق، الحركة، الباعة، يغفو ثانية في حضنها.

لكن السعادة انتهت، ففي صبيحة يوم صيفي، وضعوا الصبيبة في حافلة خشبية مع بعض الأفرشة، وصندوق خشبي رديء، وصرة كانت تضم ملابسها، برفقة رجل قميء، جهم، «وقيل أن تصعد إلى العربية، طبع قبلة طويلة، أطول من دهر فوق جيبني، أطول قبلة تألقها في حياتي، لكنهم كانوا على عجل، دفعوها داخل الحافلة، رمقتني بنظرات لن أنساها أبداً، ومستظل ندية طرية لآقة.

كان ذلك عرسها، عرس اليتيمة، (لا دفوف، ولا أغان، ولا موسيقى)، دفوها وحيدة في الحافلة الخشبية.

وحين غادرت العربية للعينة، ظللت أعدو وراءك بلا جدوى، ذهبت إلى غير رجعة، أنت

ومتاعك الفقير، وعرسك الصامت، وأسرارك الصغيرة وأمنياتك.

لمن يبعد إلى جنتي الضائعة؟

لكنه يرى أخته بعد بضع سنوات، أخذته عمته في رحلة على الدواب طيلة الليل، للزءاء، ومن بين عشرات النساء لمح وجهها، تجلس صامتة، فقد وجهها نضارتها، سلطته عن العائلة فرداً فرداً، طوقته بنزاعها، أخذته إلى كوخها، أصبح لها طفلان، أشرقان جميلان، لكنه استشف أن العجاسة تحتل الكوخ الصغير، فلقد كان الولدان خائفين مرعوبين، يتشبثان بها دائماً، وبالرغم من محاولات التفكير للمرح معهما إلا أنهما ظلّا بعيدين، وجلين، لم تستطع الابتسامة شق طريقها إلى وجهيهما، لكنه لحسن الحظ لم يزل زوجها القوي اللطيف، كان في رحلة، وتمنى أن يبقى معها، لكنه عندما فكر برجوع زوجها الجهم أبعد الفكرة، عاد مع عمته، وكان ذلك آخر لقاء له بأخته الحنون زينب، إذ سمع بعنذ أنها انتحرت بإلقاء نفسها بالتور، وأن ألد ولديها مات، بينما لم يسمع أي خبر عن الولد الثاني.

### لعبة الدمى

عندما كتب (جورج أورويل) روايته (مزرعة الحيوانات) ضمنها رؤى سياسية، فبات كل حيوان معروفاً سلفاً يتصرفه، وهنفاً، لكن (أحمد محمد أمين) ترك الحيوانات تتصرف على هواها من دون دوافع سياسية، أو أفكار أو أغراض مقطعة، فجاءت حركاتها عفوية، طريفة، في غاية الإثارة والتشويق، وكنت أتمنى لو أطال فيها، فمن يقرأ القصة لا يمكن أن ينساها، وبرأيي إن (لعبة الدمى) واحدة من بضع قصص عربية لا تتجاوز حفلة اليد بلغت اللقمة، وربما كانت أفضلها على الإطلاق، وأعتقد أنها في حالة ترجمتها إلى اللغات الأخرى فسيرتفع شأنها، ومستصبح من القصص الخالدة على مر العصور، كمعطف جوجول، ورسالة إلى جدي لتشيكوف.

الفكرة بسيطة كأي عمل أدبي جبار، يترك أهل الدار البيت فتدب الحياة في الدمى والتماثيل الصغيرة الموجودة، يتصرفون حسب هواهم، لكنهم لا يتجاوزون حقوقهم، وبذلك يثبتون أنهم أفضل من كثير من البشر، ولا أريد أن أخص القصة لأترك المجال للقراء الكرام ليتمتعوا بها.

بيت في أقصى النسيان، مجموعة قصص، للكاتب ثلاث مجموعات آخر: مرات في دفاتر الطفولة، وأحلام مستحيلة، وطاقير الليل، الفائزة بجائزة (أبو القاسم الشابي) التونسية □

(\*) اللغة: الملابس المستعملة، أي البلبلة.



الإصدار الأول للأدباء والكتاب البصريين

## فنارات (ما فوق الصفر) ونداء



فَنَارَات

FANARAT

مجلس إبداع يصدرها الائتلاف العام للأدباء والكتاب العراقيين في البصرة



كلية فنارات - مائيات الفنان جاسم نايف

المسهمون في هذا العدد.....

محمدي يوسف	نهاد بنويل احمد	علي تكيل	حيدر حسن عتيد	زكري حسن
محمد جويج	خلال السعدي	فرزق الماهر	علي عبد الصمد	لوات صالح
مصطفى محمد	عبد الستار العاني	جابر خليفة جابر	عبد الله حسن جلال	كامل فرعون
عبد الرزاق تميم	جاسم العلي	عادل بوزان	محمد عطوان	سلاخ عيال
عبد العزيز سحر	د. اوي حمزة عباس	وحيد عادم	كريم حيدر	فاسم غزال
جميل الشبيبي	د. جامة النكالي	مكاتب عبد العزيز	مقداد محمود	فاسم محمد علي
نور سري العلي	مجهه محمد جاسم	عادل علي كاسد	عبد الرزاق صالح	

تسلماً بارتعاشة  
الفرح، رغم غصة  
الاحتلال وعقابله، العدد  
(فوق الصفر) من مجلة  
(فنارات) التي أصدرها  
للتشكيل الجديد للاتحاد  
العام للأدباء والكتاب  
العراقيين في البصرة،  
حافلاً بالمواد الثقافية  
والإبداعية المتنوعة،  
وإزدان الغلاف الأول  
للعدد بلوحة للفنان (هاشم  
نايف) الذي تصاحبنا  
لوحاته المائبة المرفهة،  
عبر صفحات العدد  
الـ ١٣٨، أما الغلاف  
الآخر فقد برزت فيه  
صورة الشاعر البصري  
الفقيد (مصطفى عبد الله)  
مع مقطع من شعره.

ساهم في العدد حشد طيب من الكتاب والشعراء والنقاد والمتابعين يبدأ باسم شاعرنا الكبير سعدي يوسف وقاصنا المبدع محمد خضير.. تتبعهما أسماء طيبة ومبدعة تنتهي ولا تنتهي!

يرافق العدد (على ورقة منفصلة) نداء موجه من اتحاد الأدباء والكتاب في البصرة إلى (كافة الأحزاب والتجمعات والاتحادات والشخصيات الدينية والوطنية والديمقراطية والمهنية) تشير ديباجته إلى الخراب الكبير الذي أصاب البنية الثقافية والأدبية العراقية في ظل النظام السابق.. بعد ذلك يشير النداء إلى ما أصاب هذه البنية بعد سقوط النظام وحصول الاحتلال، إذ يقول النداء «لقد استولت بعض العوائل العراقية على مقرنا الدائم الذي نملك مستندات أصولية في عانديته لنا، كما تمت سرقة أثاثنا وكافة لوازمنا الإدارية، وسرقت مكتبتنا ودمر أرشيفنا.. وهام أدباء وكتاب البصرة (..) كذا) يعيشون مرارة تهيمش النظام الفاشي السابق لهم، ومرارة هذه اللحظة العراقية الحرجة!»

ويتابع النداء: «لهم إصدارنا العدد (فوق الصفر) من مجلة (فئارات) وسط هذه الظروف القاسية يؤكد تضامينا ونزوعنا تجاه الإبداع والحرية والجمال من أجل خلق ثقافة عراقية جديدة».

ثم يدعو النداء إلى المساهمة في إنقاذ المبدعين البصريين واتحادهم من هذا الضياع.. ويطلبون المساعدة على المستويين المادي والمعنوي، توكيدا للتوجه الوطني الديمقراطي والإنساني المشترك في بناء عراق جديد وموحد.

وقع النداء الأديب (حاتم العقيلي) رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين في البصرة، رئيس تحرير (فئارات) - من المقر المؤقت للاتحاد في نقابة المعلمين في العشار.

[المحرر]

إصدار:

عريان السيد خلف: الأعمال الشعرية، مكتبة بغداد ستوكهولم، ٢٠٠٣.

### في عدد قادم

نأمل في إصدار ملف بعنوان (الثقافة العراقية والمتغيرات الاجتماعية) يساهم فيه كل من (مؤيد البصام، محمد خضير سلطان، أحمد سعداوي، داود سالم، قاسم السومري، نصيف فلك) .. وآخرين، ننظر وصول مساهماتهم.

[آدب وفن]



